السيرة الذاتية الكاملة

واحات العمر
واحات الغربة
واحات مصرية

محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

سلسلة الأعمال الكاملة

السيرة الذاتية الكاملة

واحات العمر ـ واحات الغربة ـ واحات مصرية

محمد عنانى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيرة الذاتية الكاملة

واحات العمر
واحات الغربة
واحات مصرية

على سبيل التقديم:

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى **«مكتبة الأسرة»** .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

تصـديـر

هذا هو الجزء الثانى من سيرتى الذاتية 'واحات العمر' وعنوانه 'واحات الغربة' يعفينى من الحديث عنه ، فهو يتناول أحداث السنوات العشر التى قضيتها مغتربًا أطلب العلم فى انجلترا، من ١٩٦٥ إلى ١٩٧٥ ، والواحات التى أعنيها هنا هى لحظات الوعى التى ما تزال حيّةً نابضة فى النفس ، وهى اللحظات التى تؤكد لنا حياة الروح ، كياننا الذى يكتنفه الغموض أبدًا ، منابعه مجهولة ، ومساراته متعددة ملتوية متشابكة ، ومصبه بحر شاسع بلا شطآن ، لكنه كالزمن إحساس بالوجود وإطلال على ما وراء الزمن - على الخلود .

ولقد شاركنى الكثيرون حياة الغربة فى تلك الواحات فنفوا عنها الغربة ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، ومنهم من شاركنى مشاعرى الدقيقة وكابدها لحظة بلحظة ، ومنهم من لا يزال يذكر تفاصيلها - بل من يذكرها خيرًا منى - وأنا أذكر أسماء هم الحقيقية وأرجو أن يغفروا لى إغفالى بعض التفاصيل التى أفلتت رغم أنفى من الذاكرة ، أو التى تنكرها الذاكرة - على حد تعبير وردزورث (disowned by memory) فذاكرتى تستعين بالأوراق التى سجلت فيها تلك الأحداث ، وهى أوراق واهية قد تسجل الواقعة ولا تسجل الدلالة ، ونحن نغوص فى أعماقنا استرجاعًا لها وهى عصيّة متأبّية ، وقد يرى بعضهم أننى أغفلت ما هو مهم وسجلت ما هو غير جدير بالتسجيل ، ولكن الغوص فى أعماق النفس لا يأتى دائمًا باللآلئ ، بل قد يكون الغوص هو الغاية ، لا ما يعود به الغواص .

إلى هؤلاء جميعًا أهدى هذه الصفحات ، وإذا كنت أهديت الجزء الأول من واحات العمر إلى زوجتى نهاد صليحة التى صاحبتنى وتحملتنى فى معظم أشواط الرحلة ، فأنا أهدى هذه الصفحات أيضًا إليها وإلى ابنتى سارة التى رأت النور أول ما رأته فى الغربة ، وإلى أبناء جيلها الذين لا يعرفون ما كابده الآباء فى تلك الرحلة الشاقة . ولقد حاولت أن أتحرى الدقة قدر طاقتى فى رصد التواريخ والأحداث ، ولكن الكمال لله وحده ، ونحن بشر نصيب ونخطئ،

ولا شك اننى سوف أرحب بأى تصويب قد يلفت الأصدقاء نظرى إليه مثلما رحبت بتصويب بعض الأخطاء التى وقعت سهواً فى الجزء الأول من واحات العمر .

وأرجو من القارئ أن يغفر لى إدراج بعض الألفاظ الأجنبية فى الكتاب ، إذ إن جُلّ مذكراتى مكتوبة بتلك اللغة ، وكنت أخشى أن أغير كثيراً من مذاق ما سمعته وسجلته إن أنا ترجمت كل شىء إلى لغتنا الجميلة . لقد تحريت الدقة كما قلت وكانت الدقة تقتضى إدراج بعض العبارات بحروفها ، راجياً من القارئ أن يقبل عذرى واعتذارى .

ولابد لى أخيراً أن أشكر الأصدقاء الذين شجعونى على هذا الغوص المضنى فى أعماق النفس ، وقرأوا النص بعناية وأبدوا ملاحظاتهم القيّمة ، فهو سجل لأيام أرجو ألاّ تسقط من ذاكرتهم وأن ينتفع به من لم يشهدها ولم يكن يدرى بها .

والله من وراء القصد ،

محمد عنانى

القاهرة ١٩٩٩

لنــــدن

عندما حلقت بى الطائرة المصرية أول مرة فوق مدينة لندن ، أفقت من الغفوة التى غلبتنى بعد سهر الليلة السابقة ، وفتحت عينى لأرى من النافذة الضيقة سحابات قليلة ، خفيفة وشفافة ومتباعدة ، يسطع عليها ضوء الشمس ، ويلوح فيما بينها على الأرض ما يشبه البستان الكثيف ، تقوم فى أرجائه بيوت منخفضة متناثرة ضئيلة الجرم ، يضرب لونها إلى الحمرة ، فتصورت أننا ما زلنا فى الريف بعيداً عن قلب المدينة ، إذ كنت أتوقع ناطحات سحاب أو قل بعض المبانى السامقة التى أصبحت علماً على الحواضر الغربية ، ولكن الطائرة حوّمت مرتين فى دائرتين متسعتين ، وكانت تزداد اقتراباً كل مرة من الأرض ، دون أن تظهر المبانى السامقة ، ثم اخترقت السحاب وبدأت الهبوط ، فازدادت ملامح البستان وضوحاً ، فأيقنت أننا سنهبط فى الريف المحيط بلندن .

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً ، وكان اليوم يوم الأربعاء ١٢ مايو ١٩٦٥ ، والمطار حافل بالناس ، وعلى الجدران لافتات تحمل سهاماً توجّه القادمين إلى الأماكن الخاصة بكل فئة ، ووجدت السهام التى أتّبعها تحدد الفئة التى أنتمى إليها (مع بعض ركاب الطائرة) وهى فئة الأجانب (ALIENS) تمييزاً لهم عن أبناء البلد ، وانتهى مسارى إلى شباك فحص جوازات السفر ، فدفعت إلى الموظف الجالس فيه بجواز سفرى ووقفت أنتظر .

كان الجواز يقول إن من حقى السفر إلى ليبيا فقط ، وكنت أخشى أن يسألنى الموظف عن دلالة ذلك ، وخفت أن أتلعثم فى قص القصة ، إذ كان من حق طالب البعثة استخراج جواز سفر ، وكانت لوائح مصلحة الجوازات والجنسية آنذاك تقضى بعدم استخراج جواز سفر إلا إذا نُصَّ فيه على البلد المسموح بالسفر إليها ، ولم تكن الموافقة على سفرى إلى لندن قد صدرت من مكتب الأمن ، فوضع المسئولون ليبيا باعتبارها الدولة المأمونة الوحيدة آنذاك ، وعندما أنهيت إجراءات الأمن الخاصة بالسفر إلى بريطانيا كتب الموظف فى الجواز الذى مازلت أحتفظ به 'أضيفت انجلترا بمعرفة المصلحة' .

كيف أشرح للموظف ذلك كله بالانجليزية ؟ وهل تراه يدرك أن مسألة الأمن لا تعنى أننى قد أكون خطرًا على الأمن ؟ وهل تراه يفهم العبارة الخاصة 'بإضافة' انجلترا مع أنها البلد الذى تقدمت بطلب السفر إليه دون غيره ؟ ولكن خوفى لم يطل ، إذ كان الموظف شابًا باسم المحيا ، انتهى من تسجيل بيانات الجواز بقلم فى يده ، قبل شيوع استخدام آلات التصوير ومن بعدها الكمبيوتر ، ثم سألنى عن مقصدى فقلت له 'الدراسة' ، ولم تبد الدهشة على وجهه بل بدا مطمئنًا واثقًا من صدق ما أقول ، وعندما طرح المزيد من الأسئلة عن الشاعر الانجليزى الذى تخصصت فيه (وهو وليم وردزورث William Wordsworth) أجبته إجابات يبدو أنها أسعدته إذ قال إنه درس بعض أشعاره فى المدرسة ، وعندما بدأ يلقى بعض أبيات من قصيدة له، أكملتها له فضحك وتمنى لى حظًا سعيدًا وسلمنى الجواز ، وطلب منى أن أتجه بعد أن يستقر بى المقام إلى أقرب مخفر شرطة لتسجيل نفسى (اسمى وعنوانى) واستخراج بطاقة إقامة . وانصرفت .

وعندما وصلت إلى منطقة الحقائب وجدت حقيبتى المنتفخة ، فحملتها حملاً فلم تكن لها عجلات ولم يكن بالمطار حمالون أو عربات لنقل الحقائب ، وعندما وصلت إلى موظف الجمارك طلب منى أن أفتحها ففتحتها ثم قال كلامًا لم أفهم منه إلا أنه يطلب منى إغلاقها ، وبعد أن أغلقتها أشار لى إلى باب الخروج ، فسرت متثاقلاً بطئ الخطو حتى كدت أن أتعثر فتوقفت . وقبل أن أخرج ، نادانى أحدهم فالتفتُّ إليه ، فطلب منى الاقتراب تاركًا حقيبتى فى مكانها بجوار الباب .

واصطحبنى هذا الموظف إلى رجل الجمارك الأول ، وكان يواجه فيما يبدو مشكلة من نوع ما ، ولم يستطع أن يشرح لى المشكلة . ولمحت إلى جواره راكبًا مصريًا يتحدث بلهجة أهل الصعيد ، وقد بدا الارتباك على وجهه ، ولاحت حبات العرق على جبينه ، وانعقد لسانه بعد فترة فلم يعد يتكلم لا بالانجليزية ولا بالعربية ! وسألت المصرى سؤالنا التقليدى 'خير ؟' فأشار إلى الحقيبة التى أتى بها ، ونطق بعبارات مقتضبة لم تفصح عن الكثير . فسألت موظف الجمرك إن كانت المشكلة خاصة بما يحمله ، ففتح الحقيبة وإذا بغطائها قد انتظمت فيه خطوط مثبتة فى الجانبين ، وبها أعداد كبيرة من حبات البامية الناشفة (المجففة) فبدت كأنها خيوط مسبحة أو عدة مسابح طويلة ، وحدست أن والدته أو زوجته هى التى أعدتها له طعامًا فى الغربة ، وكانت الصفوف المنتظمة المعلقة فى غطاء الحقيبة الداخلى تشبه الرصاصات الصغيرة التى يضعها الجنود حول أسلحتهم أو على صدورهم فيما مضى من الزمان . كان المصرى حائرًا لا يدرى كيف يقنع الموظف أن هذه 'الطلقات' هى طعام مصرى محبب ، والموظف يلح فى سؤالى عن سبب إحضار هذه الأشياء إلى لندن ، خصوصًا لأن الزائر ليس طالبًا ، بل كان فى الواقع من أقرباء ضابط فى الجيش يعالج من إصابة أصيب بها فى حرب اليمن ، وكان قد أتى له بهذا الطعام المصرى لكى يطبخه له فى المستشفى . ونصحت الزائر ألا يذكر قريبه الضابط ، وأن يتخلى عن البامية إذا أصر موظف الجمرك على ذلك ، ولم يطل انتظارنا إذ حضر اثنان من زملاء الموظف وقال إن رئيسهما يصر على عرض الأشياء الغريبة على الخبراء ، ويصر على رفض السماح للمصرى بالدخول إلى بريطانيا ، ولما تحمست فى تبيان 'مناقب' البامية ، قال أحدهما لى : وما يدرينا أنها ليست مخدرات ؟ واستبعدت ذلك القول بحزم وقوة ، وإزاء نبراتى الواثقة ، قال أحدهما : سنسمح له بالدخول بضمانك أنت ، ووافقت ، ووقعت فى ورقة صغيرة ، ثم طلب الموظف من المصرى أن يفك خيوط البامية ، ففعل ذلك والحزن يعتصره ، وقدم له أحد الموظفين كيسًا شفافًا (نايلون) وضع البامية فيه و'حرّزها' وألصق عليها بطاقة تحمل اسم المسافر ورقم جواز سفره ، وسمح له بالذهاب .

وعندما خرجت من المطار كان علىّ أن أجد مكانًا أقضى فيه الليل قبل أن أذهب إلى الجامعة فى الصباح ، وأن أذهب أيضًا إلى مكتب البعثات ، وكنت أحفظ عنوانه وأكرره حتى

لا أنساه . وكان علىّ أن أذهب إلى المدينة أولاً وأن أسأل مثل بطل قصيدة حجازى «يا عم من أين الطريق ؟ » ولم تطل حيرتى إذ تقدمت منى فتاة هندية وقالت بلهجة انجليزية كُتب علىّ أن أعيش معها سنوات طويلة فيما بعد : هل تريد الذهاب إلى لندن ؟ فأومأت بالإيجاب فقالت إذن هيا – سوف نشترك فى سيارة أجرة خاصة – وفى لمح البرق كان السائق قد وضع حقيبتى فى السيارة ، وأجلسنى إلى جواره ، والهندية وأصحابها فى المقعد الخلفى ، وانطلقنا نحو لندن . وفى الطريق سألنى السائق بلهجة أولاد البلد فى لندن (cockney) عن المبلغ الذى سأدفعه له وأدركت مرماه على الرغم من أننى لم أفهم كل كلمة قالها فقلت له بلهجة عرفت فيما بعد أنها لهجة المثقفين والأجانب « خمسة شلنات » فقال fair enough وأردفها بكلام كثير لم أفهم معظمه ، ولكننى تساءلت فى نفسى عن معنى العبارة ، وعما إذا كانت تنم عن الرضا حقًا ، وظللت طول الرحلة أتأمل الطريق الذى تقوم الأشجار على جانبيه ، والسيارات وهى مارقة بسرعة فائقة ، وشمس مايو الجميلة وهى تسطع على الخضرة من حولى .

ووصلنا إلى محطة ڤكتوريا ودفعت إلى الرجل ما طلبه ، ثم اتجهت إلى سيارة أجرة رسمية ، من التى ما تزال تعمل فى لندن ، وطلبت من السائق أن يتجه بى إلى أحد بيوت الشباب ، وكان معى عنوانه ، وانطلقنا على الفور ، وعندما وصلت رأيت أن العدّاد يقول أربعة شلنات ، ففعلت ما أوصانى به الأصدقاء بأن أضفت إليها بقشيشًا قدره نصف شلن (ستة بنسات) ، وتناول الرجل النقود دون تعليق سوى كلمة مقتضبة هى "Ta, guv" اكتشفت فيما بعد أنها تعنى « شكرًا يا أستاذ » وأنها تتكون من كلمتين لا كلمة واحدة هما العامية الدارجة لتعبير 'Thanks, Governor!' ، وفى بيت الشباب اكتشفت أن أجر المبيت (مع الإفطار) هو ١٥ شلنًا ، وكان معنى هذا أننى إذا لم أسرع إلى مكتب البعثات للحصول على المال فسوف أفلس بعد قليل ، إذ كان كل ما سُمح لى بحمله من النقود عندما خرجت من مصر هو خمسة جنيهات استرلينية أنفقت منها أكثر من جنيه فى يوم واحد . وبعد أن وضعت حقيبتى فى الغرفة خرجت للسير فى الطريق الواسع الممتد ، والربيع يكسو المنطقة بالزهور والخضرة الزاهية والدفء الجميل .

كانت تجربة إفطار الصباح فريدة لم أعهد لها مثيلاً فى حياتى . كان بيت الشباب يعج بالأجانب ، معظمهم أوربيون ، وكان الإفطار يتكون أساسًا من السمك ، سمك الرنجة غير

محمد عنانى وعيسى موسى (من ليبيا) والدكتور/ نعيم إليافى (من سوريا) يمسك المظلة



المدخّنة ، وهناك البيض لمن يريد ، واللبن ، و« كورن فليكس» الذى أصبح معروفًا فى مصر ، والشاى ! وكان الجميع يلتهمون الطعام بشهية كبيرة ، ولاحظت عدم وجود مكان لغسل الأيادى والفم ، فعدت إلى الغرفة لأداء ما اعتدت عليه ثم انطلقت إلى مكتب البعثات . وهناك قابلت مستر فيولنج Fuling ، وهو فيما يقال أجنبى (أى غير بريطانى) يحب المصريين وقضى معظم سنى حياته عاملاً بالمكتب ، فاستقبلنى بالترحاب ، وانتهينا من بعض الأوراق الرسمية ، ثم أخذنى إلى مدير المكتب ، حيث تناولت شيكًا بعشرة جنيهات ، باعتباره جزءًا من مرتبى الذى يبلغ ٤٥ جنيها فى الشهر إلى جانب ثلاثة جنيهات « علاوة لندن » . وبعد أن وضعت النقود فى جيبى (إذ كان فرع البنك مجاورًا للمكتب) اتجهت إلى كلية بدفورد Bedford College التابعة لجامعة لندن حيث قابلت رئيسة القسم الأستاذة تيلتسون Tillotson ، وسألتنى عن سبب تأخرى فى المجئ ، وقابلت بعض الأساتذة الآخرين ، ومنهم مستر كيرجنڤن Curgenven ، الذى حدده القسم للإشراف على دراستى . وقال لى المشرف ضاحكًا « لقد أتيت بالجو الصحو من مصر ! » ثم ضرب لى موعدًا فى يوم الاثنين التالى . وانصرفت .



البط فوق سطح البحيرة المتجمدة فى حديقة ريجنت

خرجت من باب الكلية التى تقع فى وسط حديقة ريجنت Regent's Park لأجد ما لا يمكن أن أصفه إلا بالجنة ! كانت الحديقة منبسطة لا تبدو لها نهاية وفى وسطها تجرى قنوات المياة العذبة التى تسبح فيها الطيور – البط بأنواعه التى كنت أعرفها جيداً ، والأوز العراقى (التّم) الذى يشيرون إليه خطأ باسم البجع ، وحولها على الأشجار طيور أوربية لا تأتى إلى مصر إلا فى الخريف عندما تعبر البحر المتوسط لقضاء الشتاء فى السودان ، وبدأت أتعرف على بعضها من صوتها ، ودهشت لأنها كانت لا تفزع حين أقترب منها ، بل تنظر إلىّ فى حيرة أو تساؤل ! وظللت أسير بين الأشجار حتى وجدت مكاناً خُصّص للجلوس ، وانتثرت فيه المقاعد الخشبية وبعض المناضد ومن حولها الكراسى ، وكان على البعد أطفال يلعبون الكرة ويتواثبون فرحين صائحين فى مكان خصص لهم ، وكانت نسائم العصر منعشة تحمل أريج بعض الزهور التى انتظمت فى أحواض خاصة ، ورأيت رأى العين زهور النرجس الأصفر daffodils التى كتب عنها وردزورث قصيدته المشهورة ، فبهرت وتسمرت فى مكانى أنظرها كأنما غبت عن الوعى !

وأفقت من دهشتى عندما سقطت بجوارى كرة ألقى بها بعض الصبية ، فالتقطتها ونظرت حولى باحثاً عن صاحبها وإذا بفتاة كأنها من حور الجنة تقبل نحوى فى سعادة باسمة ضاحكة ، فألقيت إليها بالكرة ، فضحكت وهى تلتقطها ثم مضت . وتذكرت وصف جيمس جويس James Joyce للفتاة التى رآها على شاطئ البحر فى رواية « صورة الفنان شاباً » A Portrait of the Artist as a Young Man وعجبت كيف استطاع ذلك العبقرى أن يبدع تلك الصورة فى كلمات قليلة ، ولو حاولت أنا أن أصور هذه الفتاة ما استطعت ولو سودت صفحات وصفحات ! وذكرت قصيدة « تيرنر » Turner بعنوان « ترنيمة إلى مجهولة » Hymn to her unknown التى كان رشاد رشدى قد نشرها فى أحد كتبه ، وبدأت أحس بصدق ما قاله وردزورث فى قصيدة **المقدمة** **The Prelude** (التى كنت

أدرسها حينذاك فى مصر) عن الخيال ، ويصدق ما قاله عن عجز اللغة البشرية عن التعبير عما يجيش فى النفس حقًا ، وهو عجز يثير الأسى والحزن :

sad incompetence of human speech

كان الخيال قد رسم لذلك الشاعر صورة مهيبة لقمم جبال الألب ، ولما عبر الجبال لم يواجه المهابة بل واجه الخيال ، وها أنذا أواجه واقعًا يتضاءل معه كل خيال لى ، وتعجز إزاءه كل قوة من قوى التصور والوهم ! وظللت فى مكانى ثابتًا ألتهم بعينىّ صور الأشجار والأزهار والطيور والأطفال ، وفى المشهد كله تموج روح البسمة الرائعة فى وجه تلك الفتاة- كانت كأنما تقول إننى الحياة نفسها ، وإننى روح الوجود بل وإننى الخلود !

لا أدرى كم مر علىّ من الوقت وأنا أشهد تلك اللوحة ، وكنت أعرف تمامًا أننى أشعر بما شعر به جويس عندما قال إن صورة الفتاة سكنت روحه إلى الأبد

Her image passed into his soul for ever

فلكم تعددت الأماكن التى زرتها ، ولكم كثر انتقالى وترحالى ، ولكم شاهدت أزهارًا ورياحين ولكن تلك اللوحة الحية ظلت تتملكنى وتشرق فى أعماق نفسى كلما ضاقت بى الدنيا ، وما فتئت أعود إليها أتملى ألوان طيورها وحركة أزهارها على شط الماء ، ونسمات الربيع المنعشة فيها ، وبسمة الصبيَّة المجهولة التى ستظل صَبيَّةً إلى الأبد فى نفسى .



فى اليوم التالى ذهبت إلى المقر الرئيسى لجامعة لندن بجوار « رسل سكوير » Russell Square أو ميدان رَسِلْ ، المسمى باسم عائلة الفيلسوف الشهير برتراند رسل ، وكان هدفى هو البحث عن سكن دائم عن طريق مكتب خدمات الطلبة ، قابلت الموظفة فأعطتنى بعض العناوين وبعض النصائح ، ثم خرجت إلى نادى الجامعة الذى يسمونه اختصارًا «يولو» أى اتحاد [طلبة] جامعة لندن ، فقابلت بعض المصريين ، وبعضهم يشغل الآن مناصب مرموقة

فى الحياة الأكاديمية والعامة ، ثم أطلعتهم على أحوالى ، فاقترح بعضهم على سامى أبو طالب (الدكتور الآن) أن يستضيفنى مؤقتًا ، قائلين إن لديه الآن غرفة خالية ، بعد عودة زوجته وابنه إلى مصر، وإن بإمكانه أن يؤجر لى الغرفة . ووافق سامى على الفور ، وكان أجر الغرفة جنيهين وربع جنيه فى الأسبوع ، وهو مبلغ معقول ، لأن أجر الشقة الكاملة ستة جنيهات . وفى غضون ساعات كنت قد انتقلت من بيت الشباب إلى الشقة ، وكانت تقع فى شمال لندن فى منطقة تسمى « فنزبرى بارك » Finsbury Park ، وكان اسم الشارع هو « ولبرفورس رود » Wilberforce Road ، وقد أطلق عليه اسم هذا المصلح الاجتماعى ، ابن القرن التاسع عشر ، لأنه كان فيما يقال أول من بنى به مسكنًا سمح للزنوج بالإقامة فيه ، والمعروف أن ولبرفورس هو صاحب الجهود التى أدت إلى تحرير العبيد . وبعد أن وضعت حقيبتى فى الغرفة الصغيرة ، ذهبت أنا وسامى لمقابلة صاحب المنزل وهو تركى من قبرص له شارب طويل مبروم ، وعينان براقتان ، فاستقبلنا بالترحاب ، وقد وضع على الجدار صورة السلطان عبد الحميد ، وقال لنا إنه لا يؤجر المسكن أو أى بيت من البيوت التى يملكها إلا للمسلمين ، وكان ذلك البيت مقامًا على مساحة صغيرة من الأرض ويتكون من ثلاثة طوابق ، وباعتباره مسكنًا لأسرة واحدة (فى الأصل) مثل سائر البيوت التقليدية فى انجلترا ، كان الطابق الأعلى يتكون من غرفتين فقط ، وبعد درج صغير يوجد مطبخ صغير ، وبجواره مرحاض ، ثم بعد درج آخر يوجد الطابق الثانى حيث غرفتان ومطبخ ، أما الطابق الأرضى فبه غرفتان ومطبخ وحمام ويطل على حديقة المنزل الخلفية . وكان صاحب المنزل يقيم بالطابق الأرضى مع أسرته ، ويؤجر الطابق الأوسط لأسرة باكستانية . وعلى نحو ما هو متبع فى البيوت الانجليزية يوجد مفتاح واحد لباب البيت الخارجى ، أما الغرف فلا مفاتيح لها ، ولا يغلقها أحد بالمفتاح ، ولو كان مستأجرًا . وكان الإحساس بالأمان هو القاعدة التى


الدكتورة هدى جيشة ومحمد السورى أمام حجر رشيد
بالمتحف البريطانى عام ١٩٦٦

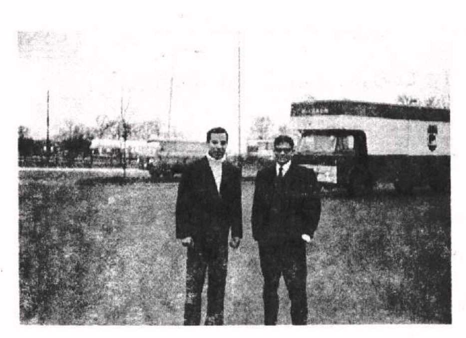
لا استثناء لها (فى تلك الأيام) وكان الانجليز يتفاخرون بأن أى إنسان إذا أراد أن يدخل أى بيت يستطيع ذلك دون إثارة الشك ، ولقد تعلمت فيما تعلمت آنذاك المثل الذى يعتبر البيت المثل الأعلى فى الأمان وهو "as safe as houses" .

كما تعلمت فى تلك الأيام الأولى من إقامتى فى انجلترا مدى تقدير الانجليز للصدق والأمانة . وكان بعض الكتاب يعزون ذلك إلى تقاليد الحركة الدينية البيوريتانية (التى ترجمها بعضهم بتعبير 'التطهيرية' وإن كانت أقرب فى معناها إلى التزمّت أو إلى الأصولية) ولكن خبرتى بالحياة فى بريطانيا نقضت هذا التفسير فيما بعد ، إذ إننى أميل إلى اعتبار نزعة الصدق واحترام الصادق وأداء الأمانة من سمات المجتمع التجارى الذى يعتمد على الثقة ، فالثقة لازمة لإبرام الصفقات بسرعة وتسيير حركة الأعمال التجارية . وأذكر أننى كنت أدهش فى تلك الأيام الأولى لأن أحداً لم يكن يطالبنى قط بإبراز ما يثبت شخصيتى (كبطاقة الهُوِيَة أو جواز السفر) عند صرف شيك أو الدفع بشيك ، بل إن الكلية لم تطالبنى بأية أوراق رسمية عند التسجيل للبحث العلمى ! ويؤكد ذلك إطلاق الانجليز – دون شعوب الأرض – على المحتال (النصاب) لفظ 'خائن الثقة' 'con' man – وهى اختصار confidence trickster – كما أذكر أننى عندما انتقلت من مسكنى إلى مسكن آخر ، ذهبت إلى بائع الصحف الذى كان يرسل لى الصحيفة اليومية فى الصباح لتسوية الحساب قبل الرحيل ، وعندما شرحت له الموضوع قال « لا بأس ! اعتبر صحف الأيام السابقة هدية ! تكفيك متاعب الانتقال ! » فكأنما كان يكافئنى على الأمانة ، مدركًا أننى كنت أستطيع الرحيل دون سداد الدين .

وفى تلك الأيام الأولى شهدت حادثة ما تزال محفورة بتفاصيلها الدقيقة فى ذاكرتى ، وكنا ما نزال فى شهر مايو ، إذ خرجت مع سامى أبو طالب للتريض فى المنطقة فى المساء ، وكان الطريق شبه خالٍ من السابلة ، وفى الهواء لذعة برد خفيفة ، وما كدنا نغادر الشارع الذى نقيم فيه إلى الطريق الرئيسى الواسع حتى شد انتباهنا صراخ قادم من الجانب الآخر للطريق ، وكان مصدره حانة انجليزية يسمونها pub (وهى اختصار لتعبير public house) حيث يحتسى الرواد الجعة الانجليزية بصفة أساسية ، ويتناولون بعض الوجبات الخفيفة ، وجميع تلك الحانات تغلق أبوابها عادة فى الحادية عشرة مساءً . وقفنا نرقب مصدر الصراخ فإذا بامرأة انجليزية تخرج من الباب وهى تصيح بلهجة أبناء لندن « إنه زوجى إنه زوجى ! »

لم تكن ملامحها واضحة ولكنها كانت فى منتصف العمر تقريبًا ، تميل إلى السمنة ، ولم يلبث «الزوج» أن خرج – فإذا هو هندى قصير ربعة القوام داكن اللون وَخَطَ الشيب شعره ، ومن خلفه شابان انجليزيان يبادلانه السباب ، وفجأة ازدحم الرصيف المتسع بالشبان الانجليز الذين خرجوا من الحانة ثم علا صياحهم فى وجه الهندى ، وانقضوا عليه ، فأخرج مدية من ملابسه وجعل يلوّح بها فى وجوههم ، وصراخ المرأة يعلو ويشتد ، وأحاط الرجال بالهندى وهو يحاورهم حتى نجح أحدهم فى إسقاطه من الخلف على الأرض ، وإذا بالجميع ينهالون عليه ضربًا وركلاً حتى خلنا أنه قد قُتل ، ثم انفض الجميع فجأة وانطلقوا يجرون هاربين حين نبههم أحدهم إلى قدوم الشرطة . جلست المرأة على الرصيف تلطم خديها وتبكى وحين وصلت الشرطة لم يجدوا سواها وزوجها فنقلوهما فى السيارة وانطلقوا مسرعين .

وقلت لسامى هامسًا فى فرق : هذا تأثير الخمر ! فقال بل كراهية الأجانب ، وقص علىّ طرفًا مما شهده على مدى السنوات الثلاث الماضية من أحداث تؤكد تلك النزعة العدوانية التى تتحول إلى العنف الدامى فى لمح البرق ، وإن كنت ما أزال أعتقد أن الخمر هى التى أطلقت تلك النزعة الجائحة الجامحة ، وشرح لى سامى خوف الناس من الشرطة لأن رجال الشرطة لا يرحمون ، وعقوبة العنف رادعة ، ولو لم يفر المعتدون لتعرضوا لأقصى العقوبات ، فالقانون الانجليزى ينص على أقصى عقوبة للإخلال بالأمن (أو حرفيًا 'تعكير صفو السلم' Disturbing the peace) .



د. محمد مصطفى رضوان ود. سعد حجازى
أثناء رحلة لبيت الطلاب العرب

عندما قابلت الأستاذ المشرف فى الموعد المحدد (فى الساعة الثانية يوم الاثنين ١٧ مايو) ، ناقشنى فى تفاصيل الرسالة ، وكنت قد قطعت فيها شوطًا كبيرًا فى مصر ، فأشار إلىّ بأن أقتصر فى الدراسة على الكتب الثلاثة الأولى من قصيدة **المقدمة** ولكننى كنت طموحًا فأردت توسيع نطاق البحث ليشمل الكتب الثلاثة عشر كلها فى النسخة التى كتبها

عام ١٨٠٥ ثم أصبحت أربعة عشر كتابا فى النسخة المنشورة فى عام وفاته عام ١٨٥٠ ، ووعدنى بتوسيع نطاق البحث فى مرحلة لاحقة ، ولكنه طلب منى أولاً أن أطلعه على نموذج من كتابتى . واقترح أن أقرأ كتابًا وأعد له عرضًا فى ثلاثة آلاف كلمة ، وآتى به فى الأسبوع التالى . واستعرت الكتاب من المكتبة ، وعدت به فرحًا إلى المنزل إذ كان من الكتب النادرة التى طالما سمعت عنها وقرأت مقتطفات منها فى غضون كتب أخرى دون أن أطلع عليها . وما إن دخلت غرفتى حتى انكببت عليه ألتهمه التهاما مستعينًا بالمعجم الذى اشتريته بعشرة شلنات ، حتى غلبنى النعاس ، واستأنفت القراءة فى اليوم التالى فلم أذهب إلى الكلية ، ولم أتوقف عن القراءة إلا لأداء الواجبات ولكننى لم أنته من قراءته حتى اليوم الثالث – يوم الأربعاء – وعندها بدأت الكتابة .

كنت أعرف أن ذلك المقال – كما يسمونه (essay) – بمثابة اختبار لقدرتى على التعبير فتعمدت التنميق والزركشة ، محاكيًا كُتّاب الملحق الأدبى لصحيفة التايمز (TLS) أو ما يسميه شكرى عياد 'التأنق فى الأسلوب' ، وكتبت عشر صفحات قَدَّرْتُ أنها تضم ثلاثة آلاف كلمة ، وراجعتها بدقة ، ثم أسرعت إلى الكلية ، وكان ذلك يوم الخميس ٢٠ مايو فوضعت المقال فى درج البريد الخاص بالأستاذ وخرجت .

كان الجو الصحو يغرى بالسير فى الحديقة ، فسرت الهوينى أرقب الطيور والزهور ، وأتأمل أنواع الأشجار الأوربية التى لا نألفها فى مصر ، وأنظر إلى صفحة الماء الساكنة ، وأتطلع إلى السحابات التى لا تكاد تتحرك عند الأفق ، حتى بدأت تصطبغ بألوان الأصيل ، فأيقنت أن اليوم يطوى صفحته وأن علىّ أن أهرع عائدًا لشراء بعض اللوازم المنزلية قبل أن تغلق المحلات أبوابها .

وعندما عدت إلى المنزل حدثنى سامى عن رسالته ، وكانت عن أثر الثقافة فى تعليم اللغة الانجليزية فى مصر ، وتحادثنا طويلاً فى الصعوبات التى تكتنف مناهج التعليم بسبب اختلاف المفاهيم ، وعرض علىّ بعضًا من النتائج التى توصل إليها ، وما يتصوره من أساليب للتغلب على الصعوبات الثقافية ، ووجدت الموضوع شائقًا لكننى لم أفهم ما يعنيه بالنحو التحويلى transformational grammar ، ولم أكن سمعت بعد عن تشومسكى وأوستن

وسيرل (Chomsky, Austin, Searle) ، إذ لم تكن علوم اللغة الحديثة قد « وصلت » إلى مصر فى تلك الأيام ، فبدأت أسأل وهو يجيب حتى حان موعد النوم .

وفى اليوم التالى – يوم الجمعة – اقترح سامى علىّ أن أصحبه إلى مسجد لندن لأداء فريضة الجمعة ، فتوضأنا وذهبنا فرأيت عجبًا . كان معظم المصلين ممن لا يعرفون العربية ، فهم مسلمون من بلدان إفريقية أو آسيوية ، وبعضهم من أوربا ، وكان عدد المصريين لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وكلهم يستمع إلى خطبة باللغة العربية ويؤدى الصلاة طبعًا باللغة العربية ! كان من بينهم جارنا فى المنزل (باقر) الباكستانى ، وبعد الصلاة تحادثنا فعرفت أنه من طائفة الاسماعيلية ، ولم أكن أعرف عنها شيئًا حينذاك ، فكنت أستمع فى صمت لما يقال ونحن نسير خارجين عبر الحديقة المجاورة للمسجد ، حتى تفرق الحشد الحاشد وذاب فى زحام الطريق .

كنت مشغولاً أثناء العودة بالتفكير فى خطبة الجمعة ، كانت ولا شك من الخطب المحفوظة، وذكرتنى بالخطبة التى كان يلقيها الشيخ 'حمدتو' فى مسجد الشيخ قنديل فى رشيد ، فهى تبدأ بالصلاة والسلام على النبى وتلاوة آية ثم تأتى العبارات المعهودة « أما بعد فأوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وطاعة أوامره واجتناب نواهيه ... » وقلت فى نفسى هل يفهم المصلون هذا الكلام ؟ إنهم ولا شك يفهمون الآيات وقصار السور التى يقرؤونها فى الصلاة ، ولكن تراهم يفهمون معنى 'تقوى الله' ؟ وهل من الجائز إلقاء خطبة الجمعة بالانجليزية ؟ وهل هى خطبة حقا (homily) أم موعظة (sermon) ؟ وما الغرض منها فى لندن ؟ ولم تتوقف تساؤلاتى بعد كل جمعة أُصلّيها فى ذلك المسجد .

وذهبت يوم السبت إلى 'اليولو' حيث قابلت بعض المصريين ، فعلمت منهم أن كلية المسرح فى لندن (رادا وهى اختصار Royal Academy of Dramatic Arts) ستقدم حفلاً فى نفس اليوم مرتين ، الأول ماتينيه (نهارى وإن كان يبدأ مثل جميع المسارح فى الثانية والنصف ظهرًا) والثانى مسائى ، وأن المسرحية هى « عطيل » لشيكسبير **Othello** ، وأن البطل الذى يقوم بدور عطيل هو المصرى أحمد عبد الحليم ! ولم أتردد . ذهبت وشاهدت العرض ، وبهرنى ذلك العملاق المصرى وهو يؤدى دور القائد المغربى الذى نهشته أنياب الغيرة فقتل زوجته ظلمًا ، وكنت أتابع حركاته وسكناته بمزيج من الإعجاب والاعتزاز بموهبته الفذة،

وسعيت إليه بعد انتهاء العرض وقلت له إننى سأكتب عن العرض فى مجلة المسرح القاهرية ، وطلبت صوراً تنشر للعرض ، فوعد أن يأتى بها بعد أيام ، وعندما صدرت جريدة المسرح الانجليزية The Stage كان فيها مقال يمتدح أداءه ، كما ذكرت صحيفة التايمز The Times اليومية نبأ حصوله على ميدالية الشرف . وكتبت المقال وأرسلته إلى مصر ، فرئيس التحرير هو رشاد رشدى ، وسكرتير التحرير هو فاروق عبد الوهاب (الدكتور - الذى يعمل أستاذاً بجامعة شيكاغو حالياً) ولم يلبث المقال أن نشر فى العدد التالى من المجلة بعنوان «عطيل جديد من القاهرة » .

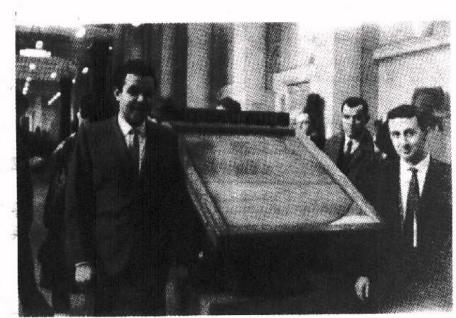


عندما قابلت المشرف يوم الاثنين التالى كان منفرج الأسارير ، بشوشاً كعادته ، ولكن تعليقه على مقالى لم يكن يبعث على الاطمئنان ، إذ بدأ - بعد تعبير عام عن الرضا - بتعداد عيوبى الأسلوبية ، وأهمها ما كنت أظنه مزية كبرى وهو التأنق فى العبارة ! وجعل يردد أن الكاتب عليه أن 'يختفى' وراء كتابته لا أن يبرز ذاته ، وأن يعمد إلى البساطة فى التعبير حتى يفهمه القارئ دون عناء ، وأن بناء الجمل الطويلة المعقدة يرهق القارئ ، وأشار بالقلم إلى بعض عباراتى التى قال إنها عسيرة الفهم ، وإن علىّ أن أضع الوضوح نصب عينى لا الصياغة البديعة ! وأردف قائلاً إنه سيمنحنى فرصة أخرى ، لكتابة عرض لكتاب آخر ، وموعدنا الأسبوع التالى . كان معنى ذلك أنه لم يرض عن المقال ، وعبرت عن احتجاجى قائلاً إن كاتبة الكتاب تستخدم الأسلوب نفسه ، ولكنه رد فى هدوء قائلاً : إذن عليك أن تتولى تبسيط الأفكار بلغتك وبسطها بسطاً مستفيضاً أى expatiation فذلك من حق القارئ عليك. وانتهت المقابلة وخرجت أحمل المقال الذى خيّب الظن ، وعدت إلى المكتبة فاستعرت كتاباً آخر وذهبت إلى المنزل لا ألوى على شىء .

كنت أشعر أننى طُعنت فى أعز ما أملك وهو قدرتى على الكتابة ، أو على التعبير الواضح الجلىّ ، وأن علىّ أن أجتهد حتى أبرر حسن ظنى بنفسى ، فعكفت على الكتاب الثانى أقرؤه على مهل ، وأتوقف عند النقاط المهمة ، فأنقل منه فقرة أو بعض فقرة ، فى أوراق صغيرة

مقواة (مثل البطاقات) حتى انتهيت من الفصل الأول . وجعلت أسأل نفسى ماذا تقول الكاتبة (واسمها Enid Welsford راسم الكتاب **Salisbury Plain**) ثم كتبت ما تصورت أنها تقوله فى صفحة واحدة ، وانتقلت إلى الفصل الثانى . وهكذا قضيت ثلاثة أيام لا همّ لى إلا إيضاح الأفكار التى لم تكن فى الواقع عميقة ولا جديدة عن الشاعر وردزورث ، على عكس الكتاب الأول الذى كان يناقش العلاقة بين الرمز والصورة فى شعر الشاعر نفسه (لمؤلفة أمريكية تدعى Florence Marsh) وانتهيت يوم الخميس من الكتاب ، ولكننى لم أكن قد انتهيت من المقال ، فتفرغت له صباح الجمعة ونقّحت المسودة ، ودعمته بمقتطفات من كلام ولسفورد نفسها ، حتى طال فأمعن فى الطول . ولكننى كنت راضياً عنه فلم أحذف أى شىء ، وأسرعت إلى الكلية فوضعته فى درج بريد الأستاذ وخرجت .

لم أكد أعود إلى المنزل حتى وصل خطاب فى بريد العصر من سمير سرحان ، يقول لى فيه إنه سوف يسافر يوم السبت (اليوم التالى) من مصر إلى أمريكا وإنه سوف يتوقف يوماً وليلة فى لندن ليرانى . وطرت فرحاً وأخبرت سامى أبو طالب فقال لى إنه يستطيع قضاء الليلة هنا معنا ، وفى صباح اليوم التالى اتجهت إلى المطار فى إحدى الحافلات المخصصة لهذا الغرض وأجر الرحلة ثلاثة شلنات ونصف ، وانتظرت وصول الطائرة المصرية ، وخرجنا معاً إلى لندن. وحكى لى فى الطريق أن الدكتور محمد مندور توفى وأن الدكتور لويس عوض مال على الدكتور رشاد رشدى أثناء العزاء وقال له « الدور علينا بقى » فغضب رشدى غضباً شديداً لأنه لا يحب ذكر الموت ، ولولا شعوره بالواجب الاجتماعى ما حضر العزاء أصلاً . وظللنا نتجاذب أطراف الحديث حتى وصلنا إلى المنزل ، ثم انطلقنا إلى وسط المدينة لأول مرة.


محمد السورى، محمد عنانى أمام حجر رشيد
فى المتحف البريطانى عام ١٩٦٦

كانت تلك ليلة السبت (أى عشية الأحد ٣٠ مايو ١٩٦٥) وهى تقابل ليلة الخميس لدينا (أى عشية الجمعة) وكان ميدان بيكاديلى Piccadilly Circus

غاصًا برواد المسارح والسينما ، فتجولنا ما شاء الله لنا أن نتجول ، من ليستر سكوير Liecester Square إلى شارع ستراند The Strand حتى وصلنا إلى مسرح أولدويتش Aldwych – مقر فرقة شيكسبير الملكية ، وعرجنا على مسرح كَفِنْت (كوفنت) جاردن Covent Garden حيث تعرض مسرحية موسيقية ، وأخيرًا عدنا إلى المنزل وقد أنهكنا طول التجوال ، فوجدنا سامى أبو طالب فى انتظارنا وقد أعد لنا عشاءً خاصًا ، وبعد الطعام أكملنا السمر فى غرفة سامى حتى حان موعد النوم . وفى الصباح اصطحبته للمطار وفى حلقى غُصّة ، فقد بدأت أيام الغربة حقًا ، وعلىّ أن أنتظر عامًا على الأقل حتى تنتهى نهاد خطيبتى من دراستها وتلحق بى فى لندن .

أصبح قطار المترو (The Underground) عادة يومية ، أستقله فى الصباح فى الثامنة حتى أصل إلى الحديقة فأسير حتى الكلية ، ثم أنتظر افتتاح المكتبة فى التاسعة فأكون أول الداخلين ، وأقرأ حتى الحادية عشرة – موعد القهوة – فأخرج لتناول القهوة بأربعة بنسات ثم أعود للقراءة حتى الثانية عشرة والنصف ، فأخرج لتناول الغداء ، حتى الثانية – وكان ذلك موعد الأستاذ يوم الاثنين – أما فى الأيام العادية فأعود إلى المكتبة حتى الرابعة – موعد الشاى – ثم أستأنف القراءة حتى السابعة – موعد العشاء !

وعندما قابلت المشرف فى ذلك اليوم (٥/٣١) لم ألق بالاً إلى هشاشته فهى لا تعنى شيئًا بل ركزت اهتمامى فى الألفاظ التى سينطقها كأنما كان مستقبلى متعلقًا بها ، وعندما بدأ الحديث كان ما يزال يحدق فى الأوراق التى كتبت فيها المقال ثم استدار فجأة ليقول «أرى أنك تعلمت الدرس » وأردف ذلك ببسمة صافية ، ثم قال كأنما يكلم نفسه « لم تكن هذه الفتاة تلميذة مجتهدة فى يوم من الأيام .. ما رأيك فى هذا الكتاب ؟ » وتملكنى الصمت والذهول .لم أكن أدرى أنه يعرف المؤلفة معرفة وثيقة ، ولم أكن أعرف رأيه الشخصى فيها ولا فى الكتاب، فتلعثمت وهو ينقل بصره بينى وبين الأوراق ، فأجبت على سؤاله بسؤال من عندى ، وهى حيلة أوصانى بها الدكتور مجدى وهبة (رحمه الله) للخروج من المأزق ، فقلت «ما رأيك فى المقال؟» ويبدو أن الأستاذ فطن للحيلة فقال ضاحكًا «يبدو أنك راض عن الكتاب !» وهنا أدركت أنه كان يريدنى أن أهاجم المؤلفة، فقلت بنبرات واثقة وضعت فيها كل ما أملك من

التواضع « لقد حاولت عرض ما تقول بأمانة - وموضوعية » ونجحت الحيلة ، إذ قال بسرعة «وأتيت فى مقالك بالأفكار التى سرقتها من أستاذنا السير موريس رحمه الله ! هذه من لصوص الأفكار يا مستر عنانى ! هل تعرف أنها سرقت منى أنا عبارة وضعتها فى بحث التخرج عندما كنا فى أوكسفورد Oxford ؟ وهل تتصور أنها كوفئت على تلك العبارة بتقدير ممتاز فى البحث ؟ » وصمت ليرقب تأثير ذلك الخبر علىّ فسألته : « عبارة واحدة ؟ » فأسرع يقول « كانت العبارة الأساسية (Key) التى أوضحت للممتحن إلمامها بالموضوع ! » وقلت فى دهشة صادقة هذه المرة « وماذا فعلت أنت ؟ » فضحك وقال : « كان ذلك من زمن بعيد ، وقد أغلقنا الملف وانتهينا ! » - ولم أجد ما أقوله فساد الصمت ، وقام ليفرغ لنفسه شرابًا من الجلوكوز يستمد منه القوة ، فقد كان شيخًا واهنًا ، ثم قال « أعتقد أنك قادر على الكتابة ويجب أن تبدأ بصياغة عنوان دقيق للرسالة حتى يتسنى التسجيل قبل انتهاء الفصل الدراسى » . وسألته إن كان العنوان وحده كافيًا للتسجيل فأجاب بالإيجاب ، وقال إن ما كتبته فى خطاباتى لرئيسة القسم مُقنع وسيرضى عنه مجلس الجامعة (The Senate) وسألته عن الإجراءات والأوراق المطلوبة فقال « اذهب إلى سكرتيرة الكلية ، وعد إلىّ غدًا أو بعد غد بعنوان دقيق ، فإن لم تجدنى اتركه فى درج الخطابات » . وانصرفت .

كان العنوان هو الذى سبق الاتفاق عليه ، ولكن التحديد مشكلة ، وآثرت عدم الإصرار على تناول جميع الصور الشعرية فى قصيدة المقدمة برمتها ، والاكتفاء بالصور الأساسية فى الكتب الستة الأولى ، وكتبت العنوان وجئت فى اليوم التالى فوضعته حيث طلب ، وعدت إلى المكتبة ، وبدأت منذ ذلك اليوم ، وكنا فى أوائل يونيو ، رصد كل ما كتب فى الموضوع ، وتلخيص كل مقال أو كتاب فى بطاقة صغيرة (كارت) وإعداد هذه البطاقات للرجوع إليها عند الحاجة للاستزادة من كتاب من الكتب ، وقدرت أن هذا العمل سيستغرق شهرًا أو شهرين، ولكننى آليت على نفسى أن أنتهى منه قبل تحليل الشعر نفسه . وكانت المكتبة زاخرة بالكتب التى تتناول شعر الشاعر ، وبالدوريات العلمية الحافلة بما كتب عنه ، فكانت ساعات اليوم تفر سراعًا وأنا منهمك فى ذلك العمل المضنى حتى انقضى الفصل الدراسى ، واطمأن قلبى إلى أننى سوف أعرف كل ما كتب عن الشاعر حتى عام ١٩٦٥ .

٤

ولكن شهور الصيف سرعان ما انقضت دون أن أنتهى من ذلك العمل ، وكنت أدرك كل يوم مدى التحول فى كل شىء حولى ، فلم يكد شهر سبتمبر يأتى بأجواء الخريف حتى اختلف وجه الطبيعة ، وتغيرت ألوان أوراق الشجر ، وبدأت الرياح تعصف أحيانًا بلا مطر ، وإن كانت الأمطار تسقط بلا نمط ولا نظام من أى نوع ، وكنت أحس فى كل يوم بذلك التغيير ، وأفهم منه مدى انشغال الانجليز بالطبيعة ، بل وبدأت أفهم الشعر الذى أقرؤه فهمًا جديدًا ، فالانجليزى يحب الطبيعة حبًا مشبوبًا ، وهو دائم التفكير فى حديقة منزله وزهور شجيراته ، والمجلات التى تعالج موضوعات 'البستنة' horticulture (أى غرس أشجار البساتين المثمرة والمزهرة ورعايتها) كثيرة لا حصر لها ، وأحاديث طُلاّب الدراسات العليا وأعضاء هيئة التدريس فى غرفتنا (The Common Room) كثيرًا ما تدور حول أنواع الأزهار والثمار التى يزرعونها فى حدائق بيوتهم ، وبدأت أفهم أيضًا سر ميل الشعراء إلى تحديد أنواع الأزهار فى أشعارهم ، فالأزهار جزء من الثقافة الانجليزية ، ورعايتها جزء لا يتجزأ من تفكير الانجليز بل ومن اللغة الانجليزية نفسها ، ووجدتنى رغم أنفى أتعلم التمييز بين الزنبقة tulip والأقحوانه daisy ، وبين القرنفلة carnation والبنفسجة violet ، وبين أنواع الورود. ثم أقف حائرًا عند عشرات أسماء الأزهار التى لم أكن أعرف لها مقابلاً بالعربية ، واجتهدت حتى أصبحت أعرف الـ blue bells والـ foxgloves والـ orchids وغيرها ، وفرحت لأننى استطعت إدراك المعنى الصحيح لبيت ورد فى قصيدة المقدمة ، وكنت أسأت فهمه فى مصر وجاء فيه :

Planting my snowdrops among winter snows

إذ كنت لا أعرف أن snowdrop اسم زهرة وتصورت أنها تعنى قطعة صغيرة من الثلج!

كان جمال الخريف أخاذًا ، وكنت أرقب الحديقة من مجلسى فى المكتبة وكثيرًا ما كنت أترك القراءة وأتطلع فترات طويلة إلى الأشجار وهى تنفض أوراقها وتتعرى غصونها مع هبات

الريح ، وفى ذاكرتى أبيات الشاعر شلى Shelley ، وكان الجو أحيانًا يكفهر وتغيب الشمس خلف السحاب ، وأنا أُقَلِّب بصرى بين ما أقرأ وما أشاهد ، حتى انقضى سبتمبر ، وفاجأنى سامى أبو طالب ذات يوم بأنه سوف يترك الشقة ، لأن إدارة البعثات أخبرته أن كلية التربية قررت إيقاف مرتبه لأنه لم يحصل بعد على أى درجة علمية تبرر بقاءه فى البعثة ، وقال إنه سوف يضطر إلى الالتحاق بعمل 'بعض الوقت' فى بيت الطلاب بجامعة لندن بالقرب من ميدان رسل ، مقابل الإقامة والطعام وبعض قروش زهيدة ، حتى يستطيع الانتهاء من الرسالة!

وقع الخبر علىّ وقع الصاعقة ، ولم أكن حزينًا فحسب لأنه سوف ينتقل إلى مسكن آخر ، بل أيضًا لأنه كُتب عليه أن يعمل عملاً يدويًا حتى يستطيع الاستمرار ، وكان الأمل فى أن تغيِّر الكلية رأيها أو أن تتراجع عن قرارها شبه معدوم ، وكان سامى طالبًا مُجدًا قطع شوطًا كبيرًا فى اكتساب المعرفة بعلوم اللغة الحديثة وهى بعد فى مهدها ، وكان يتابع الجديد ولا يترك شيئًا دون تمحيص ، فأحسست أنه مظلوم ، وقلت فى نفسى إن ما حدث له يمكن أن يحدث لأى إنسان ، خصوصًا بعد أن زارنى كرم محسن ذات مساء عاصف فى أواخر سبتمبر ! وأذكر أنه كان يوم الجمعة (٩/٢٤) إذ جاء فى الصحف نبأ يفيد اتفاق مصر والمملكة العربية السعودية على وقف إطلاق النار تمهيدًا لإنهاء حرب اليمن . وكان كرم محسن زميلاً يسبقنى بعام فى الدراسة ، وتخرج بتقدير جيد جدًا وعُين مدرسًا للغة الانجليزية بالقسم ثم حصل على بعثة إلى اسكتلندا وسافر قبلى بعامين ، وكنت أتصور أنه قد بهر الجميع فى جامعة إدنبره Edinburgh بجده واجتهاده ، ولذلك فوجئت عندما طرق بابى فى لندن ذات يوم وهو مهموم كاسف البال ، وجلس يغالب الدموع ليقص علىّ رسوبه فى الامتحان التأهيلى Qualifying Diploma الذى تعقده تلك الجامعة لجميع المتقدمين للدراسات العليا قبل التسجيل للدرجة (أولاً لدرجة .M.A أى الماجستيرالتى قد تتحول إما إلى .M. phil التى هى وسط بين الماجستير والدكتوراه أو إلى .Ph. D أى الدكتوراه) وذلك بعد دراسة قد تستمر عامًا واحدًا يعقبه ذلك الامتحان ، أو لمدة عامين إذا لم يوفق الطالب فى الامتحان الأول ، ويمنح الطالب الناجح ما يسمى بدبلوم الدراسات العليا postgraduate diploma وهو ليس درجة علمية بل خطوة تأهيل للبحث العلمى .

وجعلت أناقش كرم محسن فى التفاصيل فقصّ عليّ أنهم طالبوه بقراءة عدة نصوص لشيكسبير فى مادة الدراما وكتابة أبحاث عن النقد الحديث الذى كان ملمًا به ، وتوسع وأفاض فى ميل بعض الأساتذة إلى اضطهاد الأجانب ، وقال إنه يظن أنهم يهود (وقد اعتدت سماع ذلك فيما بعد من الذين لم يوفقوا) وأضاف إنه سيتحول إلى جامعة أخرى قد تكون أرحم وأشفق ، وذكر لى بعض الجامعات الانجليزية التى قبلته ثم مضى . (وعلمت فيما بعد أنه صادف صعوبات كثيرة عاد بعدها إلى مصر دون الحصول على الدرجة) .

كان الموقف كئيبًا ، وبدأت أتردد على بيت الطلاب العرب الذى يسمونه نادى الطلاب العرب ومقره هو مكتب البعثات أى مكتب المستشار التعليمى والثقافى المصرى ، وتعرفت فيه على معظم المصريين وبعض الطلاب العرب من خارج مصر ، وكان من بينهم من همس الهامس بأنهم 'مخابرات' أى عيون ترقب سلوك الطلاب وترصد أقوالهم ، فكنت أتعمد تحاشى المشاركة فى المناقشات السياسية ، وأحوّل دفة أى مناقشة إلى اللغة الانجليزية وصعوباتها ، وهم فى حيرة من أمرى ! كان بيت الطلاب صورة مصغرة من الجو السائد فى مصر والبلدان العربية 'التقدمية' وكان الخوف هو الشعور السائد بين الجميع ! من يدرى ؟ قد يكون من تحادثه من 'العيون' وقد يكون حديثُه فخًا منصوبًا للإيقاع بك ! ورأيت السلامة فى تحاشى هذا وذاك ، وإن كانت ثقتى لم تتزعزع ببعض زملاء الكلية الذين كانوا يدرسون تخصصات مختلفة .

كان ضيق ذات اليد من أهم ما يشغلنى آنذاك ، فاقترح عليّ أحدهم أن أتجه إلى القسم العربى بهيئة الإذاعة البريطانية علّنى أستطيع أن أكتب شيئًا يأتى بعائد مادى معقول . كان رئيس قسم الدراما هو الكاتب السودانى الطيب صالح ، وكان رئيس قسم المنوعات اسمه عبد الرحيم الرفاعى ، ويرأس القسم الأول انجليزى اسمه دكورث Duckworth ويرأس الثانى سيدة اسمها مسز شرينغهام Mrs. Sheringham وكان صالح والرفاعى قد اطلعا على ترجماتى لشيكسبير التى نشرت فى مجلة المسرح القاهرية ، فاقترحا أن أكتب بعض الأحاديث للإذاعة ، فكتبت حديثًا عن رديارد كبلنج Kipling قصاص الامبراطورية البريطانية وشاعرها، وسلمته إلى سعيد العيسى وهو فلسطينى يعمل رئيسًا لقسم الأحاديث ، فأبدى رضاه عنه ، خصوصًا ما ترجمته من قصائد عثرت عليها فى المجموعة التى نشرها ت.س.

إليوت وكتب لها المقدمة ، ولكنه لم يجد قصيدته المفضلة والشهيرة التى يشار إليها عمومًا باسم قصيدة 'If' والتى يقول مطلعها :

If you can keep your head when all about

You are losing theirs and blaming it on you ...

ومعناها :

« إذا استطعت أن تظل ثابت الجنان

وطاش عقل كل من يحيط بك

وقال إنك السبب ... »

فتساءل كيف أغفل قصيدة شهيرة مثل تلك القصيدة ، ولم يقتنع بما ذكرته عن عدم إدراج إليوت لها فى المختارات ، وأكد لى أن الحديث الإذاعى لن يكتمل إلا بها ، ومن ثم اتجهنا إلى المكتبة وأتينا بديوان الشاعر ، وفى دقائق كنت أعددت ترجمة منظومة للأبيات الأولى منها، مما أدهشه دهشة واضحة ، فقال فلنضف الأبيات إلى الحديث ففعلنا ، وانتهينا من التسجيل فى أقل من نصف ساعة ، وانصرفت على أن يرسل لى العقد الخاص بكتابة الحديث بالبريد ، يتلوه الشيك . وكان العنوان الذى أعطيته إياه هو عنوان المنزل الجديد الذى انتقلت إليه فى أكتوبر ، وهو منزل قديم بُنى قبل الحرب العالمية الأولى ، فبدت عليه دلائل الهرم ، ولذلك قصة موجزة .

بعد أن انتقل سامى أبو طالب إلى بيت الطلاب ، كان علىّ أن أبحث عن مسكن آخر بسرعة ، وفى المنطقة نفسها ، لأننى أصبحت أعرفها وحيث يقيم عدد من إخوانى المصريين وحيث ألتقى بهم فى نهاية الأسبوع أحيانًا ، مثل فؤاد أبو حطب ، وحامد زهران ، وحسنين ربيع وغيرهم ، وقد تعرفت فى منزل حامد زهران الذى كان تخرج فى قسم الجغرافيا ولكنه كان يدرس التربية وعلم النفس ، على سمير رضوان الذى كان يدرس الاقتصاد ، وكان يتحدث عن الاشتراكية بحماس وإيمان منقطع النظير ، ثم دار الزمان وسمعت صوته أثناء مقامى شهرًا فى جنيف للعمل بالترجمة فى الأمم المتحدة عام ١٩٩٢، سمعت صوته فى التليفون يسأل عن محمد العليمى ، أحد خريجى القسم والعاملين بالأمم المتحدة ، ولما سألت

إن كان المتحدث هو الشخص نفسه الذى تفوق فى جامعة كيمبريدج وكان من أبرز الدارسين ودعاة الاشتراكية ، جاءنى الرد بالإيجاب مع تذييل قصير مفاده أنه أصبح من كبار الدعاة الإسلاميين ، شأنه فى ذلك شأن محمد العليمى نفسه . ولم أشأ أن أطرح المزيد من الأسئلة، فالقصة متكررة ومألوفة . وأعود إلى قصة الانتقال إلى المنزل 'الجديد' .

كان من عادة أصحاب المنازل الذين يريدون عرض غرفة أو شقة للإيجار أن يعلنوا عن ذلك فى بطاقات صغيرة توضع فى لوحة خاصة خارج المحلات التجارية مقابل قروش زهيدة ، وكنت قد اعتدت قراءة هذه البطاقات وفك رموزها التى تحدد 'نوع' الساكن المطلوب ، وكان معظم المعلنين من العجائز أو الأرامل اللائى أصبحن يعشن فى وحدة بعد وفاة الزوج ورحيل الأبناء ، أو بعد فقدان الأهل ، وما كان أكثرهن فى تلك الأيام ، فلم يكن مضى على الحرب العالمية الثانية سوى عشرين سنة ، وكانت تلك السيدات اللائى فقدن رجال الأسرة مازلن قادرات على العمل (على تقدمهن فى السن) وكان وجود السكان الأفراد فى الغرف المفروشة يمثل مصدراً للدخل ، ويوفر لصاحبة المنزل The landlady عملاً يشغلها وينسيها آلام الوحدة. وكان الشائع فى تلك الأيام أيضاً وجود عبارة فى ذيل البطاقة تقول «لا نقبل الملونين» مثلاً (no coloured) أو لا نقبل أبناء أيرلندا ، أو لا نقبل الأطفال أو الكلاب إلى آخر ذلك .

وانتقيت بطاقة لا يضع صاحبها شروطاً من أى نوع ، ويقول إن الغرفة إيجارها ثلاثة جنيهات إلا ربعاً فى الأسبوع ، فأسرعت بالاتصال برقم التليفون فوجدت ترحاباً ، وطلب المتحدث منى أن أتجه إلى المنزل وأن أخبر من يفتح الباب أننى قد استأجرت الغرفة وأن لى أن أنتقل دون إبطاء ، على أن يحسب الإيجار اعتباراً من اليوم التالى. كنا يوم الخميس (٩/٣٠) . فتوجهت من فورى إلى المنزل فى شارع أيزلدون (13, Isledon Road) [وكنت أظن أن حرف الـ S صامت ولكننى اكتشفت أنه ينطق زاياً !] الذى لا يبعد إلا مائتى متر تقريباً عن منزلنا القديم . وعندما قرعت الباب فتحت لى امرأة سوداء هائلة الجرم ، ضاحكة السن ، شعرها أبيض كالقطن ، وبدت خفيفة الحركة على ضخامتها ، ترتدى ملابس زرقاء داكنة ، وقالت كلاماً لم أفهم معظمه ، ثم اصطحبتنى إلى الطابق الثالث (يوازى الثانى عندنا) وفتحت لى الغرفة وقالت لى تفضل! كان بالغرفة شباك كبير يطل على فناء تابع لمحطة قطارات الضواحى ، وقد تناثرت فيه قطع الحديد والأخشاب ، ثم ارتج البيت رجة عظيمة حتى

خلت أنه كاد أن يسقط ، وبدت أمارات الهلع على وجهى وأمسكت بأحد قوائم السرير ، والتفتُّ إلى السوداء الضخمة فى تساؤل وذعر وكانت الأوانى الموضوعة على المنضدة تصطك وتحدث جلبة مفزعة ، فأجابتنى بضحكة مجلجلة قائلة : 'إنه القطار ! سوف تعتاد عليه !' وبعد أن هدأ روعى خرجت لا أدرى هل أمضى فى مشروع الانتقال أم أبحث عن مسكن آخر، وعندما وصلت إلى باب المنزل قالت لى السوداء : « سأعطيك مفتاح البيت عندما تأتى .. وإذا شئت أتيتك بمفتاح للغرفة .. أنا فى انتظارك على العموم » ! وخرجت إلى الطريق العام دهشًا من كلامها . وبعد أن قلّبت الأمر على وجوهه قررت الانتقال فى نفس اليوم ، فأعددت حقيبتى وحملتها على كتفى وسرت حتى أفرغت ما بها فى الغرفة الجديدة ، ثم عدت إلى المنزل القديم وملأتها من جديد ثم عدت فأفرغتها وتركتها ، ورجعت إلى التركى لكى أودعه وأعطيه مفتاح المنزل . وعندما استقر بى المقام فى الغرفة الجديدة ، حاولت أن أروض نفسى على تقبل الأمر الواقع ، فالغرفة لا تدفئة بها ، ولدى مدفأة تعمل بالجاز (الكيروسين) أوقدها ليلاً ، وليس بالغرفة مكتب ، بل منضدة صغيرة لا تكفى كتبى وكراساتى . والمشهد من الشباك قبيحٌ قبيحْ، وضجيج القطار يتكرر ليلاً ونهاراً ، وعندما جاء صاحب المنزل يوم السبت (١٠/٢) لتحصيل الإيجار وجدته عملاقًا أسود ، اسمه آشيل Achilles (مثل البطل الاغريقى أخيلاس) وكان يتحدث كأنما لا يشاركه الحوار أحد ، وأكاد أذكر كل كلمة قالها ذلك الصباح :

● صباح الخير يا مستر عنانى .. أنت من مصر .. هذا حسن ! أنا من إفريقيا ! نحن جميعًا من إفريقيا . هل أعجبتك الغرفة ؟ هذا حسن ! روزانا تقول إنك دمث الأخلاق . هذا حسن. هل تحتاج لشىء ؟ هذا حسن ! إذا احتجت لشىء فاطلبه من روزانا ! سآتى صباح السبت التالى !

لم تستغرق المقابلة سوى دقائق معدودة ، اختفى بعدها آشيل ولم أعد أسمع له صوتًا ، بعد أن كانت جملة 'That's good' ترن فى الفضاء مثل الرعد ! وفى الهدوء العميق الذى ساد المكان بعد رحيله ، وجدتنى أجلس على الكرسى الوحيد المواجه للنافذة ، وأتأمل قضبان السكك الحديدية الصدئة ، وأكواخ المهمات المهملة ، وأكوام الأخشاب والصخور المستخدمة فى بناء الوصلات ، وأحد العمال يصيح فى زميل له بلهجة من المحال تحديد كنهها . أنا لا شك إفريقى ، ولكننى لست من هذه الفئة ، وذكرت ما قاله سامى أبو طالب عن العنصرية

والتعصب فقررت ألا أشغل بالى بالتصنيفات العرقية ، وأن أتفرغ للدرس حتى أعود إلى مصر العربية ، وإلى من لا يعتبرنى 'غريب الوجه واليد واللسان' !

وقضيت عطلة نهاية الأسبوع ما بين القراءة وبين التريض فى الحديقة العامة التى أطلق اسمها على الحى ، وعدت ابتداء من يوم الاثنين إلى النظام اليومى فى الكلية أحاول أن انتهى من تصنيف كل ما كتب عن الشاعر ووضعه فى البطاقات ، حتى خلت أن المهمة اكتملت ، فأفضيت بالخبر السعيد إلى المصرى الوحيد الذى كان يدرس معى فى كلية بدفورد وهو عادل مشرفة ، وفى تضاعيف الحديث ذكرت له تلك الغرفة الكئيبة ، وكان قد عرّفنى بطالبة تخرجت فى قسم اللغة الفرنسية ، وهى انجليزية تدعى هيلارى وايز (Wise) وتدرس اللغة العربية فى غضون بحثها عن النحو التحويلى الذى ما لبث أن 'تحوّل' إلى موضة فى الستينيات وما بعدها . وما إن سمعت هيلارى قصة أشيل حتى انطلقت تحدثنى عن مغبة الحياة مع الزنوج، وكانت كأنما تذكرنى بأحاديث جدتى - رحمها الله - إذ روت لى (أى جدتى) أن جدتها كانت لديها جارية سوداء ، واكتشفت الأسرة ذات يوم أن لها ذيلاً قصيراً ، فتأكد لهم أنها 'غولة' وسرّحوها خوفًا على أطفالهم منها . لم تزعم شيئًا مثل ذلك ولكنها ذكرت بعض 'الوقائع' ثم اقترحت علىّ أن أتقدم بطلب إلى بيت طلاب جامعى اسمه Lillian Penson Hall ومعنى Hall هو مقر إقامة فهو اختصار تعبير Hall of Residence الذى ما يزال مستعملاً فى بريطانيا ، وأما الاسم فهو اسم الأستاذة الجامعية التى تبرعت بالمال اللازم لتحويل فندق ضخم اسمه Stephen Court Hotel إلى بيت طلاب . وأرسلت الطلب بالبريد فى اليوم التالى إلى عنوانه فى تولبوت سكوير Talbot Square واستأنفت حياتى المعتادة .



كارول أثناء العمل بالترجمة فى كوينز هاوس

وانقضى أكتوبر وأنا أتحمل رائحة القرنبيط والكرنب المسلوق ، وهم لا يضيفون إليه الكمّون الذى يذهب بالرائحة ، ولا يطبخونه بطريقتنا بل

يسلقونه سلقًا ، وكانت الرائحة تملأ البيت فى المساء ، وما كان أبغضها وأقبحها ، وفى يوم من أيام نوفمبر عدت إلى الغرفة مرهقًا من طول القراءة فى المكتبة فأويت إلى الفراش بعد أن أوقدت المدفأة ولكن قبل أن يشيع الدفء فى الغرفة ، وإذا بى أرتعد وأرتعد ساعة أو ساعتين حتى خلت أننى سأهلك . وفى الصباح ذهبت إلى الطبيب ، وكانت امرأة شرقية الملامح اسمها هانا بيرمان Hanna Beerman ، شرحت لها ما أصابنى فكتبت لى علاجًا ونصحتنى بالدفء.

اشتريت الدواء وبعض الطعام الذى أوصت به وعدت إلى الغرفة ، وكان ذلك يوم السبت، فوجدت جارتى السوداء (ولم أكن رأيتها من قبل) قد استضافت روزانا الضخمة ، وباب غرفتها مفتوح ، فدعتنى للدخول فدخلت وسلمت ، فقالت الجارة إنها سمعت رعدتى فى الليلة السابقة ، فقد كان السرير يهتز ، ويبدو أننى كنت أتألم بصوت مسموع دون أن أدرى ، وقالت إن ذلك كثيراً ما يحدث لمن يسكن تلك الغرفة . وحينما لاحظت دهشتى قالت : « إن الروح الباردة تسكنها (haunted by a cold spirit) ، ولا يجدى فيها أى قدر من التدفئة ! » وضحكت روزانا وقالت « إنه يريد تدفئة خاصة تُذهب تلك الروح ! » وضحكت الأخرى . وأحسست بالرعدة من جديد ! وقدمت لى جارتى قطعة من الكعك وفنجان شاى ، وقالت إن البريد أتانى بخطاب قدمته لى فأخذته وانصرفت .

وعندما فتحت الخطاب وجدته من بيت الطلاب المذكور ، وهو يتضمن الموافقة على الانتقال إليه ، على أن أشارك أحد الطلاب غرفته بإيجار شهرى قدره ١٤ جنيها أما الغرفة المستقلة فإيجارها ضعف ذلك ! ولم أضع الوقت فانطلقت إلى الطابق السفلى حيث التليفون المشترك (لسكان المنزل جميعًا) ووضعت أربعة بنسات وطلبت بيت الطلاب وقلت لهم إننى قادم ! وعندما جاء السيد أشيل بعد نحو ساعة أبلغته الخبر فهاج وماج ، وقال لابد أن تخطرنى قبل الرحيل بأسبوع ، وأصررت على موقفى ، فتصايحنا فجاءت جارتى ، ثم جاءت روزانا ، واقترحت المرأتان أن أدفع نصف قيمة إيجار أسبوع بدلاً من الإخطار ، ووافق أشيل وأخذ المال وانصرف .

وأبدت المرأتان حزنهما لرحيلى ، ولكنهما أظهرتا قدراً لا بأس به من التعاطف ، وساعدتنى روزانا فى حزم حقائبى (وكنت اشتريت حقيبة أخرى بجنيهين ونصف) بل حملت الحقيبة الثقيلة بنفسها وطلبت لى سيارة أجرة بالتليفون ! وفى أقل من ساعة كنت فى مقرى الجديد على مشارف وسط لندن !

الشتاء الأول



كان بيت الطلاب الجديد ما يزال فى مرحلة الإعداد ، وكانت جميع ملامح الفندق القديم ظاهرة فيه ، ولم يكن قد تغير فيه سوى تحويل قاعة الضيوف أو قاعة الاستقبال بالدور الأرضى إلى مكان يشبه المكتبة العامة ، به مناضد مصفوفة وكراسى خشبية غير وثيرة، وإلى جواره غرفة خاصة للتليفزيون يجتمع فيها الطلاب فى المساء لسماع نشرة الأخبار أو مشاهدة حلقة بوليسية ، وكان به مطعم فى الدور تحت الأرضى يقدم وجبات زهيدة السعر لتكون فى متناول أيدى الدارسين ، وكان هؤلاء خليطًا عجيبًا من الأجناس المتنافرة إلى جانب الانجليز المغتربين عن أهلهم للدراسة فى لندن ، فكان فيه العرب وأبناء إفريقيا وآسيا وأمريكا. بل وأستراليا ونيوزيلاندا ! وما إن حططت الرحال حتى تعرفت على زميلى الذى يشاركنى الغرفة ، وهو هندى تقدم به العمر ، وكان يحاول جاهدًا أن يحصل على الدكتوراه فى الأدب الانجليزى ، ولن أنسى صباح أول ليلة أقضيها فى ذلك المكان ، إذ عندما فتحت عينى وجدته فى وضع مقلوب ، قدماه فى الهواء ورأسه على الأرض ، وفى الغرفة رائحة بخور خفيفة ،

عبيرها غير نفاذ ، وضوء الصباح يتسلل برفق من خلف الستائر التى تحجب شباكًا كبيرًا واجهته شرقية .

كان الصمت يلف المكان ، فمكثت فى الفراش أرقب القدمين المعلقتين فى الهواء عدة لحظات وأنا حائر فى تفسير ما يفعل 'ڤيكرام' Vikram ، حتى انتهى من تلك الرياضة الصباحية ، وقد اكتشفت فيما بعد أنها نوع من اليوجا ، ثم جلس أمام صورة للزعيم الروحى بوذا فى استغراق شديد ، ورائحة البخور تزداد قوة ، ولا أدرى كم مر من الوقت عليه وهو فى تلك الحال ، وأنا أخشى أن أنهض حتى لا أتسبب فى تعكير صفو تأملاته . وبعد برهة قام فأزال الصورة وأطفأ البخور وفتح الشباك وقال لى صباح الخير !

كانت اللهجة الهندية التى يتحدث بها اللغة الانجليزية طريفة ، ولم نلبث أن تناوبنا استخدام الحمام ، ثم انطلق كل منا إلى كليته . وعرفت من مناقشاتى فيما بعد معه أنه يؤمن بتناسخ الأرواح أو transmigration of souls أى بأن لكل مولود روحًا تأتى من أحد الراحلين ، وأذكر أننى عندما سألته كيف يفسر الزيادة فى عدد الأرواح بزيادة عدد سكان الأرض أجاب بأن الأرواح تأتى ممن تركوا الأرض على مر الأزمان ، وعندما اعترضت قائلاً إن ذلك لا يعدو أن يكون من باب الظن ، قال 'بل هو اليقين' وانطلق يعرض النظرية التى درج على الإيمان بها دون مناقشة ، ثم سألنى فجأة « ألا تشعر أحيانا أن بداخلك إنسانًا لا تعرفه؟» ولم ينتظر منى الإجابة بل أردف يقول واثقًا :

« لقد قرأت شعر الشاعر وردزورث ، ولعلك تذكر ما يقوله فى قصيدة « مشاعر الخلود المستوحاة من ذكريات الطفولة الأولى » – ولعلك قبلت ما فيها على أنه رؤية شاعر لرحلة الروح من عالم سابق على الوجود المادى إلى عالم لاحق على هذا الوجود ! والشاعر كما تعرف ينكر تأثره بأفلاطون مؤكدًا أن ذلك الإحساس داهمه حتى قبل أن يقرأ ذلك الفيلسوف اليونانى ، وأنه كان يشعر بغربة روحه عن عالم الأرض ، وضيقها بسجن الجسد ، ونزوعها للتحرر منه آخر الأمر ! إنه يؤكد أن الروح التى تولد معنا مثل الشمس التى تشرق فى عالم جديد فى اللحظة التى تغرب فيها عن عالم آخر – وهذا هو معنى التناسخ ! » .



د. حسين ربيع أمام ميدان راسل في لندن عام ١٩٦٦

وسجلت ملاحظاته في كراسة لديّ ما زلت أحتفظ بها ، وعدت إلى قراءة تلك القصيدة التي كنت ترجمتها ذات يوم في مصر ، ولاقت إعجابًا من أستاذي مجدي وهبه ، رحمه الله، وشُغلت يومًا أو يومين بهذه الرؤية الشرقية المحضة لحياة الروح الإنسانية ، وانتهيت إلى أنها لا تعدو أن تكون رؤية شاعر ، وأنها لا تصل أبدًا إلى يقين العلم ، فالروح من أمر ربي ، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً ، ولكنني أحببت أن أستزيد من العلم بهذه الفلسفة الشرقية التي كتب لها أن تظل ضربًا خاصًا من الاستبطان (introspection) وألا ترقى أبدًا إلى مرتبة الفكر الحقيقي . وعندما صارحته بذلك دار بيننا حوار أرجو أن أنجح في تلخيصه هنا استنادًا إلى مذكراتي ، إذ التفت إليّ ببسمة الواثق قائلاً :

– لقد تدربت على التفكير الذي ينسب كل ما لا تعرفه إلى السماء ، أي إلى مصدر خارج النفس ، ولديكم في الإسلام والمسيحية رموز تتوسلون بها حتى تتجنبوا حياة الروح الحقيقية ، ولكن أستاذنا بوذا يعلمنا كيف نغتني بالمواجهة الصادقة مع النفس عن رموز الجنة والنار ، وعن تصور الملائكة والشياطين ، ومفهومنا للخير نسبي ، وكذلك مفهومنا للشر ، فكل ما يؤدي إلى التوافق والتناغم والسلام خير ، وكل ما يفسد ذلك شر ، وأفكارنا الدينية أقرب إلى البراجماطية والعيش في هذا الكون من أفكاركم التي ترجئ كل شيء ليوم الحساب !

– ولكنك تستعين بالرموز في صلاتك وتستخدم طقوس البخور والصور !

– هذه ليست رموزًا بل هي من العوامل التي أستعين بها في التركيز !

– ورياضة اليوجا ؟

– هذه ليست رياضة بالمعنى المفهوم بل هي تدريب للروح على تقبل الجسم الذي قُدّر لها أن تعيش فيه ، وتدريب الجسم على تقبل الروح التي تسكنه !

- أنت إذن تفصل بين مفهوم الروح ومفهوم الجسم ، وهى الفلسفة الثنائية التى ينكرها علم النفس الحديث وتنكرها الفلسفة اللغوية المعاصرة !
- الفصل قائم يا صديقى مهما برع العلماء المزعومون فى تبيان الصلات وإقامة العلائق! قل لى : ألا تشعر أحيانًا بأن فى ذاتك نوازع غريبة عنك ؟ ألا تشعر أحيانًا بأنك لا تعرف تلك النفس التى يقطع العلماء بوجودها ؟ بل لعلك أحسست يومًا ما بأن فى داخلك ما تسميه الأديان بالملائكة والشياطين ! إنها نوازع الروح التى تخاطبك بما لا تعرف !
- وهل يعنى ذلك أن الروح جاءت من كائن حيّ آخر ؟
- قل لى وكن صريحًا معى .. ألم تشعر يومًا أن مشهدًا ما قد سبقت لك رؤيته ؟ ألم يداهمك الإحساس بأن نغمًا ما يثير نفسك فجأة دون سبب ؟ ألم تنظر يومًا إلى السماء فتدرك أن ما تراه ليس غريبًا عليك ؟
- ربما سبق لى أن شاهدته فى الطفولة !
- وعندما كنت طفلاً .. ألم تكن تشعر أحيانًا بأن منظرًا ما مألوف لديك ؟
- لقد انتهى علماء النفس من تحليل ذلك !
- لم ينته أحد من شىء ! كلّنا يحاول ترويض روحه حتى تقبل الجسم وتقبل العالم .. وقد ننجح أو نفشل .. لكننا فى الحالين لا نستطيع تغيير طبيعة الروح الخالدة .. قد تكون ذات خير فتدفع الجسم إلى الخير ، وقد تكون ذات شر فتدفع الجسم إلى الشر ، ونحن فى صراع دائم مع الخير والشر معا !
- وذلك ما تقول به الأديان السماوية .. كل ما هناك هو أننا ننسب الخير إلى دوافع عليا يرسمها العقل ، وننسب الشر إلى دوافع سفلى يرسمها الشيطان ! ونحن نهتدى بما أوحى إلى الأنبياء من آيات وأنزل عليهم من هدى !

ولكن ڤيكرام لم يكن – رغم عدم تصديقه للأديان السماوية – ممن يسخرون منها أو يهزأون بما أنزل على غيرهم من الأمم ، بل كانت البسمة لا تفارق شفتيه ، وكان هادئ الطبع، 'طويل البال' ، وكان أحيانًا يطلب منى مغادرة الغرفة لأنه يريد 'التأمل' وحده ، ولم أكن

أعارضه ، بل كنت أحمل كتبى وأهبط إلى قاعة الدرس فأقضى الوقت الذى حدده وحدى ثم أصعد لأنام .

ثم جاء يوم من أيام ديسمبر عدت فيه من الكلية مرهقًا ، فوجدته يطلب منى «إخلاء» الغرفة ساعتين ، وكان لدىّ عمل كثير ، إذ كنت قد بدأت تصنيف الصور الشعرية التى كنت كتبتها فى بطاقات كثيرة فى مصر ، وكانت نهاد خطيبتى قد أرسلتها فى طرد كبير ، وكنت أعيد قراءة هذه الصور على ضوء ما قرأته عن الشاعر فى مراجع لم تكن متوافرة فى مصر ، فأخذت أوراقى وهبطت إلى قاعة الدرس ، وجعلت أعمل بجد حتى انقضى الوقت ، وكنت قد تناولت العشاء فى الكلية على مائدة طلاب الدراسات العليا والأساتذة ، فشعرت بأننى لابد أن آوى للفراش .

وعندما طرقت باب غرفتنا ، فتح لى ڤيكرام ، وكان يرتدى ملابس الخروج مع أن الساعة قد تجاوزت العاشرة ، ودخلت فإذا بحسناء انجليزية الملامح واللهجة تجلس على سريرى وفى يدها قدح حدست أن فيه خمرًا ، فقدمنى إليها وعرفنى بها ، ثم قال إننا نرجوك الانتظار نصف ساعة أخرى فنحن على وشك الانتهاء من الحديث الشائق ذى الشجون ! وانعقد لسانى من المفاجأة ، ولم أشأ أن أعترض ، فوضعت الكتب على المكتب ، وخرجت .

وفى قاعة الاستقبال التى كانت ما تزال تحمل ملامح الفندق القديم ، جلست شارد النظرات لا أدرى ما أصنع . هل كان ذلك دأبه فى كل مرة طلب منى مغادرة الغرفة ؟ وقررت الانتقال إلى غرفة مستقلة single room مهما كلفنى ذلك من مال ، فنحن نطلق فى مصر لفظًا غير كريم وغير مشرف على من يحتمل ما احتملت ، ولم أقل شيئًا لأصدقائى العرب الذين أدهشهم وجودى فى ذلك الوقت المتأخر فى قاعة الاستقبال ، وشُغلتُ بالحديث مع بعض الزملاء السودانيين ممن يدرسون تخصصات مختلفة فى جامعة لندن ،


محمد عنانى يكتب على الآلة الكاتبة فى حجرته عام ١٩٦٦

وكان عدد آخر من دارسى الأرصاد الجوية يجلسون قريبًا ، ثلاثة منهم من سوريا والرابع ليبى ، وسرعان ما اشتعل النقاش وحمى وطيس الجدل ، فنسيت ما أنا فيه ، ولم أُفق إلا حين رأيت الحسناء تغادر البيت .

وذهبت فى الصباح إلى الإدارة وطلبت الانتقال إلى غرفة مستقلة ، فنظرت لى السكرتيرة وقالت ما يلى بالحرف الواحد :

- It didn't work out ? No, I didn't think it would !

أى « لم تنجح إقامتكما معا ؟ لا ، لم أكن أظن أنها ستنجح ! »

وعجبت من ردها ! إذا كانت لا تتوقع لها النجاح فلماذا حاولت إنجاحها ؟ يبدو أنها كانت تأمل (على استحالة الأمل أى Hoping Against Hope) أن نتفق بسبب دراستنا المشتركة للأدب الانجليزى ، ثم أردفت قائلة إن الغرف المستقلة مشغولة ، وبقاء غرفة مشتركة دون 'شريك' من قبيل 'وجع الدماغ' (is a headache) ولكننى ألححت ، فوعدت خيرًا ، وفى اليوم التالى اقترحت علىّ الانتقال للسكنى مع أنور عبد العظيم (الأستاذ حاليًا فى كلية العلوم بجامعة القاهرة) حتى يتسنى لها تدبير غرفة مستقلة لى .

وسرعان ما أصبحت غرفة أنور عبد العظيم ملتقى للمصريين وللعرب أحيانًا ، وأصبح من روادها صديقى محمد مصطفى رضوان ، طالب الهندسة المتخصص فى التصوير الجوى ، وكان يقضى النهار كله فى المختبر الهندسى بجامعة لندن ، وكان بارعًا فى الرياضيات وكان أستاذه معجبًا به ، وكان يقيم فى غرفة مشتركة مع دارس آخر للرياضيات اسمه ريتشارد لندن، وكان هذا الأخير مصداق قول ألبرت أينشتاين إن بعض الناس يفكرون 'بالأرقام' أى لا يستخدمون الصور ولا الألفاظ ، وكنت قد قرأت كتابًا عنوانه 'العملية الإبداعية' The Creative Process وردت فيه أقوال الكثيرين فى هذا الموضوع ومنها أقوال عالم الرياضيات الشهير مع تحليل علمى لها ، ولذلك لم أدهش للصمت الدائم الذى كان يعيش ريتشارد لندن فيه ! ولا أذكر أننى سمعته يومًا يقول عبارة يزيد طولها عن ثلاث كلمات .

وعندما انتصف شهر ديسمبر (١٩٦٥) حل شهر رمضان المبارك ، وبدأنا الصيام ، وما كان أيسره فى لندن ، فنحن نتناول السحور فى الخامسة صباحًا (الفجر يؤذن له فى السادسة) ثم نصلى الفجر ونتجه إلى كلياتنا فى السابعة ، ونعود فى الثالثة ، حيث نقوم

بإعداد طعام الافطار معًا ، ونفطر فى الرابعة تقريبًا ! كان قصر النهار فريدًا ، وبرودة الجو تمنع العطش (أو الإحساس به) وكانت الصحبة رائعة ، خصوصًا ونحن نفطر جميعًا معًا ، وكانت تتناول الطعام معنا طالبة مسيحية اسمها نادية (لحق بها زوجها جورج بعد فترة) وكانت صائمة ، ولذلك كنا نصنع نوعين من الطعمية (الفلافل) نوع يضاف إليه البيض ، ونوع لا يتضمن البيض وهو مخصص للصائمين المسيحيين ، وقد أطلق عليه فيما بعد اسم 'طعمية نادية' ! وسمعت أحد الأمريكيين يتساءل عن ذلك اللون الفريد من الطعام بعد أن ذاقه فراق له وتساءل دهشا 'Is it meat ?' (أى هل هذا لحم ؟) وغمزت لأصدقائى حتى لا يفصحوا عن سر الوجبة الشهية ، وشرحت له أنها تأتى على صورة مسحوق من مصنع سان جورج بالاسكندرية ، ثم نضيف إليها الماء ونعيدها سيرتها الأولى ، وسرعان ما انتشر الخبر فى بيت الطلاب ، وقالت لى السكرتيرة :

- Must you have a party everyday ?

وشرحت لها أن تلك 'حفلات' إفطار رمضانية ، تنتهى بحلول العيد ، وكان من العسير عليها أن تدرك معنى 'الصحبة' ، وهو المعنى الأصلى لكلمة 'party' وإن كانت قد اقترنت فى الأذهان بالرقص والموسيقى والشراب ! وعندما حل عيد الفطر شهد بيت الطلاب ما يشبه العرس ، فاجتمع جميع العرب ، ورقص السوريون 'الدبكة' وغنى السودانيون أغانى ذات سلم موسيقى خماسى ، واجتمع الطلاب من شتى الجنسيات لتأمل هؤلاء العرب الذين اختلفت ألوانهم وجمعهم تراث واحد ، ولغة واحدة ، بل إن نادية أعدت الفتّة الشهيرة ليلة السّادس من يناير (ليلة إفطارها) وحملت طبقًا منها إلى السكرتيرة ، مزانًا بقطع اللحم (الهُبر) فهالها حجم الطبق وأصرت على أن تحمله إلى المنزل حتى يفرح به زوجها وأطفالها !

وقبل أن يحل العيد ، جاءنى صوت مألوف عبر التليفون ، يطلب منى الحضور . كان ذلك صوت فادية سراج الدين ، الطالبة فى قسم اللغة الانجليزية ، وابنة المرحوم أنيس سراج الدين الذى كان رئيسًا لبنك القاهرة ، وكانت تعالج فى أحد مستشفيات لندن من شلل الأطفال، فخرجت من الكلية وزرتها ثم انصرفت مسرعًا لكى أدرك الإفطار مع الأصدقاء ، وبعد ذلك اتصل بى والدها وطلب منى أن أعينها على متابعة الدروس حتى لا يضيع عليها العام الدراسى ، فزرتها وكانت قد انتقلت إلى فندق فاخر قريب من بيت الطلاب ، وترددت

عليها حتى اطمأن قلبى إلى أنها قرأت ما هو مطلوب ، فودّعتها ، وعادت إلى مصر وانقطعت عنى أخبارها عشرين عامًا ، حتى رأيت النسخة المكتوبة بخط يدها من كتاب يطبع فى الهيئة المصرية العامة للكتاب فى أواخر الثمانينيات وعليها توقيع من سمير سرحان يقول فيه 'حافظوا على هذه النسخة فهى الوحيدة بخط المؤلفة رحمها الله' .



كنت أعيش فى عالمين مختلفين ، فأنا بالنهار فى المكتبة ، أقرأ الانجليزية من الصباح إلى المساء، وأحادث الانجليز بالانجليزية طبعًا ، وأتناول العشاء مع الأساتذة على مائدة خاصة ، نتحادث فيها أكثر مما نأكل ، وقد بدأت ألتقط التعبيرات الجديدة على مسمعى وأكررها ، وأحاكى لهجة الأساتذة ، فإذا كتبتُ تعثرتُ لأننى لم أكن أعرف كيف أفرّق بين العبارات العامية والعبارات الفصحى ، وأحيانًا ما كنت أمزج هذه بتلك فيدلنى الأستاذ المشرف على الصواب ، وكنت باختصار أعيش عالمًا غريبًا بكل معنى الكلمة .

أما العالم الذى كنت أعود إليه فى المساء فقد جعلته الغربه وطنًا ، فالطلاب فى البيت الذى أقيم فيه أغراب ، لكن رباط الغربة يشد بعضهم إلى بعض ، وكنت أحيانًا أخرج مع أحدهم ، خصوصًا جلال الإدْلبى (السورى) فنذهب إلى السينما أو نتنزه فى شوارع منطقة بادنجتون Paddington التى تتميز بأحيائها الفقيرة ، وكان بعضها قد دمرته الحرب ولم تمتد إليه يد التعمير بعد ، أو فى منطقة « لانكاستر جيت » Lancaster Gate المجاورة لنا ذات المنازل التقليدية التى صورها جورج أورويل فى رواياته ، والتى بدأت بعض المنازل الجديدة تظهر فيها ، وبعض ملامح العمارة الحديثة فيما بعد .

وبدأت أشعر بالصراع بين العربية الكامنة فى أعماقى والتى كتب عليها أن تظل حبيسة الزمان ، وبين الانجليزية التى أنهل منها فلا أشبع ! لم يكن همّى الانتهاء بسرعة من الرسالة، بل كنت أعيش فى العالمين معًا ، خصوصًا بعد أن عرفت طريق الإذاعة ، وكتبت سلسلة مقالات عن 'المغنيات العربيات' ، جئت بالمعلومات عنهن من كتاب **الأغانى** للأصفهانى الموجود


د. مسعد حجازى فى بيت الطلاب عام ١٩٦٦

فى كليـة الدراسـات الشـرقـيـة بلندن ، وخصوصًا بعد أن التقيت ببعض الزملاء من المصريين الذين رحبوا بوجودى بينهم ويَسَّروا لى سبل الكتابة والترجمة . وكان أهمـهم المرحـوم إدجـار فـرج الذى كـان شريكا للمترجم دنيس جونسون دافيز فى مكتب للترجمة ، يتردد عليه المصريون جميعًا ، فـهو قريب من المكتب الثقافى ، وكانت لهما قصة ستأتى فى حينها .

كان إدجار صعيديًا قُحًا ، يتحلى بالشهامة والمروءة ، وكان يعرف من يعانى من ضائقة مالية فيرسل إليه نصوصًا يترجمها ولا يبخل عليه بالمال ، بل كان يعطيه أجرًا أكبر من القدر المرصود للترجمة ، متظاهرًا بأنه يحاسبه 'بالمليم' حتى لا يشعر المصرى بأنه يتلقى مساعدة من أى نوع . وكان من أهم المتعاملين مع المكتب عبد اللطيف الجمال ، الذى كان قد حصل على درجة الماجستير من جامعة القاهرة ، وانتهى من دبلوم الدراسات العليا بجامعة ليدز Leeds وسجل موضوع الدكتوراه عن النظرية النقدية عند أ.أ. ريتشاردز I. A. Richards وكان قارئًا نهمًا، ولم يتخلص من عاداته الريفية (فهو من إحدى قرى المنوفية) فهو يميل إلى الصراحة والصدق وهما من الفضائل التى يحتفل بها الانجليز كما سبق أن قلت ، ولم يكن فى تلك الأيام يفكر إلا فى تعلم الألمانية ، وبعد أن قضينا يومًا من أيام السبت مع عبد الرشيد الصادق المحمودى الذى كان يدرس الفلسفة ، عرفنى بإدجار فرج ثم لم يلبث الجمال أن رحل إلى ألمانيا .

كان شتاء ذلك العام غير قارس البرد ، وكنا نقضى معظم أوقاتنا فى المكتبة التى تتميز بدفئها المعقول ، وكانت حياتى فى الكلية منتظمة إلى حد لا يمكن تكراره فى أى مكان آخر ، وكانت حاجاتى محدودة فكل ما أريده من كتب موجود ، وكنت قد أقلعت عن التدخين واشتريت لنفسى غليونًا ألهو به فى أوقات الفراغ فى المنزل ، ولكن الحاجة إلى المال كانت ما فتئت تعاودنى ، وكانت عيناى تتطلعان إلى الكتب الجديدة فلا أستطيع شراءها ، وإلى الملابس

الفاخرة دون أن أشعر بالحاجة إليها ، ولكننى كنت قد بدأت عادة لم أتخل عنها طول عمرى وهى الذهاب إلى المسرح ، ولما كانت تذاكر المسرح غالية نسبيًا فإننى كنت ألجأ إلى الحجز مقدمًا لشهور طويلة . وقد ساعدنى المخرج أحمد زكى الذى كان يدرس الإخراج المسرحى فى لندن فى الالتحاق بجمعية المسرح الانجليزى مقابل اشتراك سنوى زهيد ، مما أتاح لى حضور بروفات (تجارب) المسرحيات الجديدة فى مسرح رويال كورت Royal Court ، فى منطقة تشلسى Chelsea الفاخرة ، ومشاهدة العروض أيضًا مجانًا ، كما أرشدتنى هدى حبيشة ، أستاذتى القديمة فى جامعة القاهرة ، والتى كانت تعد الدكتوراه فى الشعر الميتافيزيقى الانجليزى، إلى طريقة أستطيع بها أن أحجز تذاكر لموسم مسرحى كامل فى مسرح أولديتش Aldwych حيث تقدم فرقة شيكسبير الملكية عروضها ، إذ كنت أذهب فى الصباح الباكر غداة الإعلان عن فتح باب الحجز فأشترى تذاكر للحفلات النهارية (من ٢,٣٠ ظهرًا إلى الخامسة يومى الأربعاء والسبت) لجميع المسرحيات التى سوف تقدمها الفرقة على مدى الموسم كله (ثلاثة أشهر) فى أماكن جانبية فى المسرح حيث أستطيع أن أسمع الحوار بوضوح وإن كانت زاوية الرؤية مرهقة ، كما كنت أشترى تذاكر لمشاهدة عروض المسرح القومى واقفًا (بأربعة شلنات وبدون حجز) فكنت أذهب قبل العرض بساعة أو بعض ساعة فأقف فى الطابور وأشترى التذكرة وأشاهد العرض واقفًا ثم أجلس فى الاستراحة ، مما أتاح لى مشاهدة لورانس أوليفييه العظيم فى مسرحية عطيل لشيكسبير وغيرها ، وكان من نتيجة هذا التدبير والميل إلى التقشف أن أصبحت شديد الوعى بقيمة النقود والتمييز بين الضروريات والكماليات، وتعلمت من الطلاب حيلة قراءة الصحف والمجلات دون أن أشتريها إما فى غرفة الأساتذة بالكلية أو فى أماكن بيع الصحف بالمكتبات ، فكان كينيث جوردون ، صديقى الانجليزى ، يشير علىّ بالمكتبات التى لا يكترث أصحابها بمن يغافلهم ويقرأ الصحف ، كما أرشدنى إلى الأماكن التى يترك الإنجليز الصحف اليومية فيها بعد قراءتها ، وكان كثيرًا ما يتجول وحده ليكتشف المطاعم الرخيصة والمكتبات التى تبيع الكتب القديمة ، فكان خير عون للفقراء ، وسرعان ما قال المصريون إن كِنْ (Ken وهو اسمه المختصر) 'واد جن' ! (أو "كِنْ مصوّر" !) .

كان دخلى من الإذاعة محدودًا ، وكتابة الأحاديث مرهقة ، وعملى فى الرسالة يستغرق معظم وقتى ولا يترك لى الوقت الكافى لزيادة الدخل ، وكانت معظم مسراتى فى الحقيقة ذات

تكاليف محدودة ، فالسير فى الطريق الذى يتوسط متنزه هايد بارك لا يكلّف شيئًا وكانت الحديقة قريبة من منزل الطلاب ، ومشاهدة الطيور فى البحيرة الساكنة ومحاولة معرفة أنواعها، ومشاهدة الأزهار الغريبة أو الاستماع إلى المذياع – كل هذا من المتع التى اكتسبتها، وكان على رأسها جميعًا **فن المحادثة** !

وقد اكتشفت جمال هذا الفن على مائدة الغداء فى الكلية بعد أن عرّفنى عادل مشرفة بزملائه الذين أصبحوا زملاء لى ، ومن بينهم أمريكية كانت تدرس علم الاجتماع اسمها سوزان وتشكو دائمًا من عدم توافر الأفكار اللازمة للرسالة ، وشاب يونانى اسمه بابادوبولوس ، وكان يدرس الرياضيات ، وأخرى تدرس الفيزياء واسمها كريستين ، وكانت انجليزية محضة ، وكان يرتاد المائدة غيرهم من طلاب الدراسات العليا . فإذا دار الحديث الذى عادة ما يبدؤه الانجليز بذكر أحوال الطقس ، برزت اتجاهات تعلمت رصدها فى تفكير كل منهم ، وكنت أذكر فى هذا الصدد قول الطيب صالح إن الذكاء يختلف عن سرعة التفكير (mental agility) أو ما يوحى بسرعة التفكير واللماحية (أو الألمعية) فى تراثنا الشرقى (wit) . فالشرقى يرحب بسرعة التفكير والردود الحاضرة وإن اقتصرت على ردود الأفعال السانجة ، أما الغربى فلا يكترث لها بل يهمه أن يكون المتحدث على صواب بغض النظر عن إطالة التفكير أو الإبطاء فى الرد ، ولذلك فلدى الانجليز ما يسمى بالحديث العابر أو الاجتماعى (small talk) الذى يدرجه الدكتور بيرن Berne فى باب 'الطقوس الاجتماعية' (rituals) مثل الحديث عن الجو أو عن الصحة والمواصلات وكل ما لا يتوقع معه المتحدث ردًا حقيقيًا من صاحبه ، وقد يُدرج فيه ما يسميه بيرن بحديث تزجية الوقت (pastime) أو حتى الأحاديث ذات الطابع الآلى التى لا تنم عن تفكير من أى نوع (mechanical) وهم يفرقون بين ذلك كله وبين المناقشة الحقيقية ، وهى عادة ما تتسم بالحذر والتردد بسبب ضرورة تقليب الأمر على وجوهه ، وكان بعض علماء اللغة آنذاك قد أصدروا كتبًا يحللون فيها مسالك الحديث ومساربه، لا من منطلق علم النفس كما فعل بيرن فى كتابه 'الألعاب التى يلعبها الناس' Games People Play الذى قرأته آنذاك (نوفمبر ١٩٦٥) بل من منطلق بناء اللغة فى كل موقف ، مما أدى إلى استحداث مفاهيم جديدة تتعلق بما يسمى بفعل الكلام Speech acts وما تلا ذلك من توسع فى علم الدلالة ، فدلالة الألفاظ لا تكمن فيها وحدها ، كما هو معروف، بل تكمن فى دلالتها فى العبارة **والموقف** – أى فى دلالة تداولها ، مما أدى آخر الأمر

إلى نشوء فرع من علوم اللغة يبحث التداول فى المواقف المختلفة واصطلح على تسميته 'التداولية' pragmatics . وبدا لى الأمر شائقًا عندما بدأت تحليل مناقشاتنا حول مائدة الغداء، ثم حول مائدة العشاء .

اكتشفت أن نمط المتحدث الانجليزى التقليدى the typical English speaker يميل دائمًا إلى الحذر حين ينتقل من الحديث العابر إلى موضوع جاد ، وقد يعود ذلك إلى أسلوب التنشئة أو التربية فى المنزل والمدرسة ، فالأهل والمدرسون يشجعون التلميذ على التفكير أولاً قبل الإجابة على أى سؤال ، وهم لا يتوقعون من الطفل أن يكون حاضر البديهة بل ولا يعتبرون ذلك من سمات الذكاء ، ووراء ذلك كله قرون طويلة من عصر العلم ، وتقاليد الإصرار على أن يكون للطالب وجهة نظر مستقلة ، وأن يمارس حرية التفكير ثم يحاسب على هذه الحرية وما فعل بها . ولذلك فما أسرع ما يعترف المخطئ بخطئه ويعرب عن أسفه ، وهذا مما يعتبره المربون مزية كبرى ، والأهل والمعلمون لا يحاسبون المخطئ على الخطأ بل على مكابرته إذا كابر ، فالجهل ليس عيبًا ، بل العيب كل العيب أن يدعى الدارس أنه يعرف ما لا يعرف أى أن 'يتعالم' . ويتجلى ذلك كله فى استعمال اللغة الانجليزية فى الحديث والكتابة ، وعندما أدركت هذه الحقائق فهمت غضب الأستاذ المشرف علىّ حين وجدنى أستخدم ألفاظًا قاطعة ، وأطلعنى على عرضٍ كان يكتبه لكتابٍ قرأه ، وكيف كان يتحاشى فيه القطع بأى شىء ، فالعلوم الإنسانية ، كما يقول ، تتناول تفسير الحقائق أكثر مما تتناول الحقائق باعتبارها حقائق ، ومن ثم شرعت فى محاكاة هذا الأسلوب ، فلم تلبث اللغة التى أتكلمها وأكتبها أن اكتسبت طابعًا أقرب إلى طابع أهلها – أى أهل الانجليزية !


د. عادل مشرفة ود. نعيم اليافى فى كلية بدفورد عام ١٩٦٦

كان فن الحديث يرتبط بدراستى ، والحيل اللغوية تتردد فى حوار الناس والممثلين على المسرح ، فإذا أراد شخص أن يعرب عن اعتراضه لم يقل « إنى أعترض » بل قال «I don't know ...» بدايةً ، ومعناها « لست واثقًا

من صحة ما تقول » ثم يردفها برأيه الذى قد يمثل نقيض ما قيل ، وإذا أراد التعبير حتى عما نعتبره من الأحكام غير الخلافية ، أدرج فى العبارة ألفاظًا تسمح بقدر ما من الاختلاف ، وذلك كما أقول حتى لو كان الأمر لا خلاف عليه ! وانظر الحوار التالى الذى يعتبر غريبًا عن العربية :

- It feels warm enough here !
- The central heating must be working well !
- It's the new librarian, you know ! she says she's a greenhouse plant and seems to relish the sweltering heat !
- Would those foreigners, coming from the tropics ?

وانظر إلى ترجمته الحرفية :

- أشعر بأن الدفء هنا يكفى !
- لابد أن جهاز التدفئة المركزية يعمل بكفاءة !
- والسبب هو أمينة المكتبة ! فهى تقول إنها مثل النباتات التى تنمو فى الصوبة الزراعية ، ويبدو أنها تستمتع بهذه الحرارة البالغة !
- وهل يستمتع بها هؤلاء الأجانب القادمون من المناطق الحارة ؟

الحديث – كما ترى – من نوع « تزجية الوقت » فى الظاهر ، ولكنه يتضمن الاعتراض على زيادة التدفئة إلى حد أكبر مما ينبغى ، ولكن الصياغة تحيل الأفكار إلى ملاحظات تقبل النقض ، خصوصًا العبارات التى تتضمن المقارنة أو ما يسمى بالتعبير النسبى ، [Comparative] ، مثل كلمة enough – فماذا تعنى الكناية هنا ؟ يكفى ماذا أو لماذا ؟ إنها تعبير تنفرد به اللغة الانجليزية ويبدو فى الترجمة غريبًا ، وانظر إلى تعبير must be (لابد أنه) الذى لا يفيد اليقين ، وكذلك seems (يبدو) والسؤال الختامى ! بل إن العبارة التى تنسب لأمينة المكتبة 'التسبب' فى رفع درجة الحرارة غير واضحة ! فما معنى السطر الثالث حقا ؟ هل يعنى ما جاء فى الترجمة من أن أمينة المكتبة هى السبب ؟ لا شك أن ذلك هو

المعنى الموحى به ، ولكن التعبير نفسه لا يقطع بذلك ، فقد يكون المعنى إنها توافق على رفع درجة الحرارة ، أو لا تعمل على خفضها ، أو أنها ذات صلة ما بالحرارة الشديدة وحسب ! وانظر إلى الحذر فى الإشارة إلى ما تبديه أمينة المكتبة من استمتاع بالحرارة ، إذ يبدأ التعبير بعبارة «إنها تقول ...» أى « والعهدة على الراوى ! » مما يبرئ المتحدث من تهمة التجنى عليها !ترى لو قدر لاثنين من العرب أن يعبرا عن الأفكار نفسها - أى عن الحقائق facts الواردة هنا - فهل يقولان ذلك ؟ أفلا يقولان « ما أشد الحرارة هنا ! إلخ » ؟

كنت أتعلم الانجليزية لا باعتبارها ألفاظًا بل باعتبارها أنماط تفكير ، وسرعان ما وجدت أن عالم الجامعة والكتب ومناقشات المائدة table talk أصبحت تتناقض مع عالم العربية التى أتحدثها أحيانًا فى المساء مع الأصدقاء ، وكانت الهوة تزداد حتى أصبحت أشعر أننى غير قادر على كتابة الأحاديث الإذاعية ، وبازدياد ابتعادى عن الإذاعة ازداد ناب الفقر حدة ، وغدوت أستعيض عن متعة الإنفاق بمتعة الحديث ، خصوصًا حول مائدة العشاء مع الأساتذة الانجليز ، وقل معدل الخطابات التى أرسلها بالعربية إلى مصر وإلى سمير سرحان فى أمريكا ! وبدأت أكتب رسائلى بالانجليزية إلى نهاد خطيبتى وحدها !



وكان من المتع الأخرى متعة الاستماع إلى مغامرات المصريين مع الانجليزيات ، واصطدام ميل المصرى إلى الكذب مع ميل الانجليزية إلى الصراحة ، وكنت أحاول فى متابعة أخبار الأصدقاء ، وبعضهم ممن تربطنى به علاقة مستمرة ، أن أعرف دوافعهم الحقيقية للكذب ، واكتشفت على مر السنين أن الدافع الرئيسى هو « الافتقار إلى الأمان » وهى ترجمة شائعة ورديئة لكلمة insecurity التى تعنى فى الواقع ما نعنيه فى حياتنا المعاصرة بالقلق وعدم الاطمئنان ، وتتضمن بعض عناصر الخوف وعدم الثقة بالنفس . كان بعض أصدقائى قد ارتبطوا بفتيات انجليزيات أو أمريكيات واتفقوا معهن إما على البقاء فى انجلترا أو على الهجرة إلى أمريكا أو كندا ، ولم يكن هؤلاء بحاجة إلى الكذب ، بل كانوا يختفون فلا يظهرون

فى دوائر الطلاب العرب ، وتقتصر صلتهم بالمكتب الثقافى على الخطابات الرسمية المتبادلة ، ولكن البعض الآخر لم يكن واثقًا مما سيفعله فى المستقبل ، وكان لذلك « يحمى » نفسه بستار كثيف من الأكاذيب ، وكان بعضهم قد اعتاد الكذب على الفتيات فى مصر ، وتمكنت منه العادة التى كان يراها لازمة ثم لم يستطع أن يُقلع عنها حتى بعد زوال ذلك اللزوم ، وكانت فئة ثالثة تكذب لا لسبب ، فهو كذب يكاد يكون مفروضًا على الفرد من باطنه ، وهو ما يُطلق على صاحبه تعبير compulsive liar ، وأخيرًا كانت هناك فئة تجد فى الكذب متعة إبداعية ، فألوان الكذب هنا منوعة تتفاوت بتفاوت المواقف ، ويُعمل الكاذب فيها خياله فيبحر فى المحيطات ويجوب الفيافى ، ويؤلف القصص وينسج الحكايات ، وإن كانت الحادثة التالية تقبل التصنيف فى جميع الفئات المذكورة !

قال لى صديقى ، وسوف أخفى اسمه الحقيقى وأسميه « عبده » ، إنه تعرف بإحدى زميلاته فى الكلية وكان يعمل معها كل يوم فى المختبر ، إذ كانا متخصصين فى الكيمياء العضوية organic chemistry وبعد عام تقريبًا من الزمالة قال لها أثناء ساعة الغداء إنه يحبها! وفوجئ بأنها تنكر هذا القول وتقول له ببسمة صافية « لا أعتقد ذلك ! لقد اعتدت مصاحبتى فى العمل فقط ! » ولم يجد ما يرد به عليها فلغته الانجليزية محدودة ، وهو لا يملك إلا بعض العبارات التى يحفظها منذ الصبا ، أو مما سمعه يتردد حوله فى محيط الجامعة ، ولذلك لم يجد بُدًا من تكرار ما قاله ، مؤكدًا أنه يحبها من زمن بعيد ! وهاله أن تنصرف الفتاة فى عجلة دون تعقيب ، بل وأن تغيب عن الكلية عدة أيام ، مما جعله يلجأ إلىّ طالبًا النصح !

ولم تكن لدىّ نصائح حاضرة فأنا لا أعرف الفتاة بل ولا أعرف شيئًا عن الفتيات ، أو الانجليزيات بصفة خاصة ، ولم أكن أمضيت فى انجلترا إلا شهورًا معدودة ، ولكننى حاولت أن أعرف منه بعض التفاصيل ، فهوّنت عليه الأمر وطلبت منه أن يتصل بها تليفونيًا ليرى إن كانت غابت بسبب المرض . وعندما قابلنى بعد نحو أسبوع سمعت منه ما كان يمكن أن أتوقعه لو أننى أوليت الأمر عنايتى الصادقة ولو أننى أحطت بالمعلومات الكافية ، إذ جاءت الفتاة إليه بعد المحادثة التليفونية ، وقد ارتدت أجمل أثوابها ، وبدت مشرقة وضاءة ، ووجهها - كما يقول - ينطق بالسعادة الغامرة ، واستأنفت العمل فى المختبر دون أن تشير إلى ما قاله أو ما قالته ، وعندما حان موعد فسحة القهوة عرض عليها الذهاب إلى الكافيتريا

(ويسمونها فى جامعة لندن buttery) لكنها رفضت وقالت إنها ستستمر فى العمل ، ولم يجد بُدًا من الاستمرار هو الآخر ، حتى حان موعد الغداء فبادأته هى بالدعوة ، وعندما جلسا لتناول الطعام قال لها « كنت قلقًا عليك » وكان ردها مقتضبًا (شكرًا) ومن ثم انطلق يبثها لواعج غرامه مؤكدًا أن حبه قديم . وهنا قالت له عبارة لم يفهمها وإن حفظها وهى :

" But you didn't do much about it, did you ? "

أى ولكنك لم تفصح عنه طيلة هذه المدة ، واعتذر بأنه كان يخاف رفضها ، فقالت 'هل تظنون أن الإنجليز يتسمون بالبرود ؟' وفوجئ وانعقد لسانه ، بينما انطلقت هى تتحدث ، فأخبرته أنه ظل يشغل فكرها شهورًا ، وكانت تحلم باللحظة التى يميل فيها قلبه إليها ! وكاد يطير من الفرح فعرض عليها الخروج فورًا ولكنها قالت إن العمل فى المختبر متأخر ، وإن صدمة اعترافه بحبها قد أربكتها عدة أيام ، وهى تحاول الانتهاء من العمل فى موعده رغم التأخر ، ولكنها ضربت له موعدًا فى عطلة نهاية الأسبوع .

كان 'عبده' منفعلاً وهو يحكى لى ما حدث ، وكان ينظر إلى الورقة التى دوّن فيها كلامها خشية أن ينسى شيئًا منه ، وقلت له إن ذلك أمر طبيعى وهى قصة حب عادية بل عادية جدًا ، وقد تنجح وتكلل بالزواج . وبدا الهمُّ على وجهه . الزواج ؟ 'نحن لم نذكر شيئًا عن الزواج !' وضحكت وقلت له : إذن تراجع وأنت على البر ! فرد قائلاً « ولكننى أحبها ! » وشرحتُ له إن ذلك هو ما كانت تعنيه عندما أنكرت أول الأمر حبه لها ، فالحب Love عند الانجليزيعنى الزواج ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى استخدام تلك الكلمة ما دام لا يريد الزواج . ودُهش «عبده » من كلامى وقال لى إننى ملم بأحواله وإنه لن يتسنى له الزواج قبل الانتهاء من الدكتوراه ، وربما يكون أهله قد رتبوا له زواجًا فى مصر عند العودة ، وزواجه من هذه الفتاة معناه اصطحابها إلى مصر « حيث عليها أن تجد عملاً أو أن تقنع بمرتب الجامعة الذى سأتقاضاه (نحو أربعين جنيهًا فى الشهر) أو أن أعيش أنا هنا إلى الأبد بعيدًا عن أهلى!».

لم يكن « عبده » سعيدًا سعادة صافية بالحب الوليد ، بل كان يرى فيه مصدر هم أو عبئًا لم يعتد حمله ولا يعرف كيف يحمله ، وتخفيفا عنه حاولت الدخول من باب آخر فقلت له « ربما لم تكن تحبها حقًا » أو « ربما تكون قد تَسَرَّعْتَ أنت فأسأت فهم عاطفتك » — وألا يمكن

أن تكون هى أيضًا قد تَسرَّعَتْ بإعلان « استجابتها » لك ؟ فبدت عليه الحيرة وانصرف على أن نلتقى بعد مقابلته لها فى عطلة نهاية الأسبوع .

لم تشغلنى كثيرًا قصة 'عبده' أثناء الأسبوع التالى ، إذ أعاد المشرف لى الفصل الذى كنت كتبته من الرسالة وذيَّله بعدة ملاحظات كان أهمها رضاه عن المنهج ، ولكنه أبدى بعض التحفظات على بعض الألفاظ التى وصفها بأنها أمريكية واقترح إبدالها ، فعكفت على ذلك، وأعدت طباعة الفصل على الآلة الكاتبة التى اشتريتها (مستعملة) ثم شرعت فى كتابة الفصل التالى ، وكان الشتاء ما يزال يقبض على الطبيعة بيد من حديد ، فإذا ظهرت الشمس أسرعتُ إلى الحديقة أتأمل الطيور وهى تسير على ماء البحيرة المتجمد ، وبعض الأشجار التى لم تنفض أوراقها وقد كسا الثلج أطرافها ، وكنت سعيدًا لأن مرض الحساسية الذى كان يصيبنى بالتهاب فى الجيوب الأنفية قد رحل ، وأصبحت قادرًا على التنفس من جديد !

وفوجئت يوم الاثنين بشيك يصلنى من الإذاعة ، مكافأة إضافية عن بيع سلسلة أحاديث المغنيات العربيات إلى محطة عربية فى الخليج ، وكان المبلغ كبيرًا (٤٥ جنيها) فوضعته فى البنك وقررت تحقيق حلمى القديم بشراء جهاز تسجيل حتى أسمع ما أريد من الموسيقى ، وكان من بين نزلاء بيت الطلاب طالب سورى لا أذكر إلا أن اسمه كان محمدًا ، قرر الهجرة إلى أقاربه فى البرازيل ، وعندما حصل على تأشيرة الزيارة عرض ما لديه من 'كراكيب' (ويسميها الأغراض) للبيع ، وكان من بينها جهاز تسجيل متوسط الحجم ، باعه لى بخمسة وثلاثين جنيها (بدلاً من ٤٥) ففرحت به وشُغلت بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية ، ثم أخبرنى صديقى محمد مصطفى رضوان أن طالبًا سعوديًا لديه اسطوانات عبد الوهاب القديمة، ولا يملك جراموفونًا ، وأن على النشار (طالب الهندسة الذى هاجر إلى أمريكا ونجح نجاحًا باهرًا إذ اكتشف طريقة تحلية المياه بأسلوب الضغط الاسموزى) لديه مثل هذا الجهاز لكنه لا يكن له (أى للجهاز) احترامًا كبيرًا ، فقررنا عقد أمسية عربية فى غرفتى ، نسمع فيها عبد الوهاب ونسجل أغانيه على شريط !

ولم نكد نبدأ الأمسية ، ونبدأ فى تحضير الأطعمة الشرقية ، حتى وصل « عبده » وطلب الانفراد بى على الفور . وطلبت الإذن بالخروج تاركًا الغرفة للأنغام ورائحة الفلافل ، وخرجت مع عبده إلى قاعة الاستقبال ، وانتحينا ركنا قصيًا حتى لا يسمعنا أحد ، وبدأ حديثه بعبارة

لن أنساها أبداً « شورتك مهيبة يا عناني ! » — تعجبت من ذلك ، فأنا لم أشر عليه بشيء ، وإن كنت اقترحت التراجع ، فهدأت روعه وطلبت منه أن يحكى لى ما حدث .

قال عبده « ذهبنا مساء السبت إلى السينما ، وشاهدنا فيلم My Fair Lady وكانت تستمتع هى به بينما أحاول أنا متابعة الحوار دون ترجمة على الفيلم ، وبعد السينما خرجنا فى البرد ، فاقترحت أن نذهب إلى غرفتى [وكانت بجوار الجامعة] لكنها قالت إنها تفضل قضاء الليلة فى فندق . تخيل ! وقلت لها إن أهلها سوف يقلقون عليها ولكنها أصرت ، وكلما أبديت اعتراضاً قالت لى بلهجة قاطعة « ألست تحبنى ؟ » وأنت تعرف أن لغتى الانجليزية ليست ممتازة ، ولا أستطيع أن أتحدث بطلاقتك ، وحاولت أن أثنيها بذكر الإيجار المرتفع للفنادق ، ولكنها قالت إننا سنتقاسم جميع التكاليف ، ودون أن أدرى ، كأنما كنت مخدراً ، وجدتنى أوقع فى كشف نزلاء أحد الفنادق ، ودفعت جنيهين كاملين ، وصعدنا إلى غرفة بالطابق الثالث، وقضينا الليله فيها ، وكان ما كان ، ولم أنم إلا من فرط الإرهاق ، وفى السابعة هبطنا إلى مطعم الفندق حيث تناولنا الافطار ، وانصرفنا » .

وبدأتُ فى التساؤل عن الأشياء المعتادة فى هذه الظروف ، وفهمت من إجاباته أنها قالت إنه ليس أول رجل « تحبه » فقد سبق لها « معرفة » شاب نيجيرى ، وكانا على وشك الزواج لولا أن والدها رفض لأن الحبيب كان كاثوليكيًا ، ووالدها متزمت فى مسألة الدين ، وهو لا يقبل إلا البروتستانت ويفضل أتباع كنيسة انجلترا (الأنجليكانية) وقالت له إن والدها أعد لها منزلاً خاصًا لأنه ثرى ، وهو صاحب مصنع كبير فى جنوب انجلترا ، وأنها سوف تعمل فيه حالما تحصل على الدكتوراه ، لأنه ينتج الأدوية وبه قسم للبحوث ، وبإمكانها أن تسعى حتى يحصل « عبده » على عمل فيه معها ، وإنها لم تكن تريد أن تخبره بذلك كله حتى تتأكد من مدى اتفاقهما الزوجى conjugal compatibility ولذلك أصرت على مسألة البيات فى لندن بعيداً عن أهلها (الذين يقيمون فى الضواحى) ولم تفصح لهم بعد عن السبب وإن كانت سوف تفعل عندما « يوافق » عبده على ذلك !

وسألته عما فعل بعد ذلك ، وقد انقضى أكثر من أسبوع ، فقال إنه وجد أن السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو أن يلتزم الصمت فقد كانت الليلة رغم كل شىء « ليلة سعيدة » وقد وجد فى جيب الجاكته مبلغ جنيهين مساهمة منها فى التكاليف ، ثم تسرع فى

لحظة طيش وهما في غرفته (إذ أصبحت تتردد عليه أثناء النهار) وأخبرها أنه مسلم ! وكان فى الحقيقة قبطيًا (أرثوذوكسى) والواضح أنه أدى بذلك إلى غيابها يومين ، وجاء الآن يسألنى ما العمل ؟ وقلت له كان ينبغى أن تكون صريحًا معها منذ البداية ، وأن الأخطاء لا تصحح بارتكاب مزيد من الأخطاء ، وأن الأوان أن تعاود الصراحة وتثوب إلى رشدك وتتوب، فباب المغفرة مفتوح ، واحزم أمرك وفكر فى مستقبلك فى مصر وفى أهلك . وبدا عليه التردد ولكنه وعد بأن يحاول جاهداً وضع حد لتلك العلاقة . وانصرف ، وعدت إلى حقل عبد الوهاب وهو يوشك على الانتهاء .

٤

فاجأنا الربيع مثلما فاجأنا الشتاء ، كما يقول الشاعر ، وتحقق وعد السكرتيرة ، فانتقلت إلى غرفة مستقلة ، وأصبحت قادراً على أن أخلو بنفسى ساعات طويلة فى المساء ، أستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية التى أصبحت هواية مفضلة ، وأقرأ حتى الواحدة ، وأنهض مع شروق الشمس فأذهب إلى الكلية وأسير فى الحديقة فرحًا بالزهور والبراعم التى تتفتح كل يوم ، أو أتمتع فحسب بهواء الصباح المنعش الذى يذكرنا بالنيل عند رشيد ، حتى تفتح المكتبة أبوابها فأقرأ أو أكتب حتى ينتهى اليوم ، ولم أعد ألتقى بأصدقائى العرب إلا فيما ندر، إما عند العشاء فى الفندق ، أو فى قاعة الاستقبال حين ألقاهم مصادفة ، وكان شهر مارس برمته شهر التجوال وتأمل الطبيعة ، وكان يصحبنى أحيانًا بعض الأصدقاء ذاهبين إلى كلياتهم سيراً على الأقدام ، وكان الحديث يتطرق أحيانًا إلى أحلام المستقبل ، فكان بعضهم يحلم بڤيلا وسيارة ، والبعض الآخر يحلم بالهجرة ، وفئة ثالثة لا تعرف الأحلام ، وكنت بالنسبة للجميع المرجع الذى يسألونه فى اللغة الانجليزية ، ورغم تقاربنا فى العمر كانوا يعتبروننى أخا أكبر ، وكانوا لسبب ما يستودعوننى أسرارهم ، ويرون فى قراءتى للأدب وهوايتى للفلسفة وعلم النفس مصدر حكمة يمكن أن تعين من يطلب العون ، وهكذا وجدت أننى قد كتب علىّ وأنا بعد فى السابعة والعشرين أن "ألعب دور" الشيخ الحكيم أو الأخ الكبير العاقل !

وأفضى إليّ بعضهم بمغامراته مع بعض العاملات فى الفندق (اللائى احتفظن بوظائفهن بعد تحوله إلى بيت طلاب) وكان معنا طالب نابه من جنوب السودان ، لا يعتبره الشماليون عربيًا مع أنه يتحدث العربية ، ولكن ملامحه كانت زنجية خالصة ، ولونه فاحم لامع، وكان طويلاً فارعًا لطيف المعشر ، عقد صداقة مع فتاة برتغالية تعمل فى الفندق ، وكان كل منهما يقصّ على أخباره مع صاحبه ، وكانت هى أيضًا فارعة الطول نحيلة ، ملامحها شرقية، وغير جذابة ، ولكنها كانت عاملة مجتهدة ، تحاول أن تجد لنفسها ركنًا تعيش فيه فى أى مكان فى العالم (niche)، بعد أن ضاقت بها سبل العيش فى بلدها ، وكانت تتصور أن السودانى سوف يعود بها إلى جنوب السودان . أما هو فكان واضحًا فى موقفه وصريحًا إلى أقصى درجة ، فلا مكان للبرتغاليات فى جنوب السودان – هذا إذا عاد هو إلى الجنوب – وعليها أن تظل فى بريطانيا .

وعلى كثرة الجنسيات فى ذلك الفندق القديم ، وكثرة جنسيات من التحق بالعمل به بعد تحوله إلى بيت للطلاب ، لم تكن بين الخادمات أو العاملات زنجية واحدة ! كان الجميع تقريبًا من أوربا ، ومعظمهن إما من أيرلندا أو إسبانيا ودول أوربا الشرقية ، وكان أصحاب الوظائف الإدارية من الانجليزيات ، ترأسهن مس ساتون Miss Sutton ذات الصوت المجلجل ، والتى يرهبها الجميع فهى المديرة التنفيذية للبيت ، وهى مسئولة عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، وأما السكرتيرة الهادئة مسز تريسى Mrs. Tracy فهى العقل المدبر والمدير المالى معًا ، تعرف جميع النزلاء وتحادثهم تليفونيا فى غرفهم ، ولها فى غرفتها بالطابق الأرضى نافذة تطل منها على مدخل الفندق القديم فتعرف القادمين والخارجين وتكاد تتابع أخبارهم – ويبدو أنها أدركت من علاقتى بالعرب أننى أقوم بدور المترجم لمن لا تسعفه اللغة الانجليزية ، إذ كان بعضهم يأتى من بلدان عربية لا تشترط إجادة الانجليزية قبل الشروع فى الدراسة ، فكانت تسألنى فى رفق أن أبلغهم الرسائل التى تريدها ، وتتصل بى تليفونيا لمعرفة الجواب .

وذات يوم عدت إلى غرفتى بُعيد مغرب الشمس ، ولم أكد أتخفف من ملابسى حتى جاءنى صوت فى التليفون يطلب الغوث ! كان صوت انجليزية صميمة ، أبلغتنى الرسالة بسرعة ووضعت السماعة فأسرعت إلى تريسى لأبلغها بنفسى حتى تطلب الطبيب ، فتليفونها مشغول دائمًا . كان أحد نزلاء بيت الطلاب مصريًا يدرس بعض الوقت فى كلية الفنون

التطبيقية (البوليتكنيك) ويعمل طول الوقت فى مطعم فى وسط لندن ، فهو طباخ محترف ، وكان يعانى من مرض غريب فى أذنه ، وسمعت أنه قريب لأحد الوزراء فى مصر ، وأنه حصل على البعثة بالواسطة (الوساطة ؟) للعلاج أساسًا ، وإن كان السبب المعلن هو الدراسة، ولولا الوزير ما غادر مصر أصلاً . وكان يقيم وحده فى غرفة مستقلة وتتردد عليه إحدى موظفات بيت الطلاب ، وهى ربعة القوام غليظة مربعة ، كنت أراها تحادث الدكتور سمير المنقبادى ، وهو مصرى يعد دراسات « ما بعد الدكتوراه » فى القانون ، ويقيم فى النرويج ويُدرِّس القانون فى جامعة أوسلو بعد أن تزوج ابنة عميد كلية الحقوق هناك. كنت أراها تحادثه محادثة من يعرفه حق المعرفة ، وقد تحقق ظنى فيما بعد ، وكانت هى التى حادثتنى ذلك المساء لأنها كانت تزور صاحبنا ذا الأذن المعطوبة فأصيب بما يشبه الإغماء أو النوبة القلبية مما جعلها تستغيث بى . أبقيت الأمر سرًا ، بطبيعة الحال ، ودفعنى حب الاستطلاع إلى معرفة القصة الكاملة وهى مما لا يُروى فى مثل هذا السياق .

وعندما جاءت أمطار إبريل ، تبدلت عاداتنا بعض الشىء ، لكن روتين الكلية والمكتبة (أو المختبر عند الآخرين) لم يتغير ، وعندما دفعت إيجار الغرفة المستقلة أحسست أننى لابد أن أحصل على مورد رزق آخر وإلا لم يعد لدى ما أنفقه على ما أعتبره من ضرورات حياتى (كالمسرح) . وسعيت يومًا إلى نادى هيئة الإذاعة البريطانية حيث يجتمع العاملون فى القسم العربى، وقضيت بعض الوقت أحادث الذين كانوا هناك للراحة والسمر ، فعلمت أن عبد الرحيم الرفاعى انتقل إلى الإذاعة السويسرية ، وتابعت أخبار بعض



د. حنين ربيع مع المؤلف فى ميدان راسل لندن عام ١٩٦٦

المسيطرين على الأقسام من العراقيين (ممدوح زكى ونعيم البصرى وزوجته وأولغا جويدة إلخ) أو من الفلسطينيين أو المصريين على قلتهم ، وتبين لى أن مجال العمل قد ضاق فأمعن فى الضيق . كان صلاح عز الدين مخرجًا فى قسم الدراما لكنه كان يتكلم بطريقة لم أفهمها، وكان قسم الدراما يسيطر عليه بعض الأصدقاء والأحباء الذين لم يسمحوا لأحد أن يدخل

بينهم ، وانصرفت مهموماً فالحياة فى غرفة مستقلة ترف لا يمكن الاستمرار فيه دون مورد آخر .

وذات ليلة من ليالى مايو ، وبينما أنا مهموم بأفكارى – أتأمل العام الطويل الذى انقضى فى غربة غريبة ، وضيق ذات اليد الذى أصبح لا علاج له ، ومهارتى فى الترجمة التى لا أستطيع الانتفاع بها – إذ بالتليفون يرن ، وإذا بصوت الصديق العزيز عبد المنعم سليم ، الكاتب المشهور ، يقول لى : هل تقبل أن تترجم خطابات من العربية إلى الانجليزية يوماً أو يومين فى الأسبوع ؟ أقبل ؟ كدت أطير فرحًا .. وقال اذهب غداً إلى منير عبد النور فى مبنى اسمه Queen's House أمام مبنى كوداك بالقرب من Bush House حيث الإذاعة فهو فى حاجة إلى مترجم فى قسم بحوث المستمعين لمدة أربعة أو ستة أسابيع لأن الوظيفة الخالية لم يعلن عنها بعد ، وهم يستخدمون بعض الأشخاص بعض الوقت للعمل بالساعة . وذهبت فى اليوم التالى فقابلت منير عبد النور – المصرى – الذى طلب منى أن أذهب إلى الإدارة حيث أقابل مارى بيرتون (Mary Burton) رئيسة المستخدمين ، وفعلت ذلك فقالت لى : لك أن تعمل إما يومًا كاملاً أو نصف يوم ، يومين أو ثلاثة أيام فى الأسبوع ، تبعًا لحاجة العمل ، واليوم الكامل بخمسة جنيهات ، ونصف اليوم بثلاثة جنيهات ونصف ! وكان معنى هذا أننى أستطيع لو أردت أن أكسب نحو عشرة جنيهات فى الأسبوع تكفى لدفع الإيجار بل تزيد ! ووقعت العقد المؤقت وطرت إلى منير عبد النورحيث عرّفنى بمصرى آخر اسمه ريمون مكلِّف (Me-callef) ، وهو اسم شائع فى مالطة ، وبالسكرتيرات (سالى وماريون وكارول Sally, Marion and Carol) وقال إن لدينا أستاذاً مصريًا فى الجغرافيا اسمه عزت أبو هندية يعمل بكلية هولبورن Holborn للّغات والاقتصاد ، وهو يعمل بعض الوقت أيضًا ، وسيدة مصرية اسمها إفادات كيبرون (Capron) متزوجة من رجل انجليزى ، وهى مؤقتة أيضًا ، وسيدة مصرية من أصل لبنانى اسمها مارى روك (متزوجة من انجليزى Rook) تتولى النسخ على الآلة الكاتبة . أما العمل فهو ترجمة خطابات المستمعين التى ترد إلى القسم العربى بالإذاعة وتتضمن تعليقات على البرامج الإذاعية ، وتصنيفها ، فبعض المستمعين يطلبون الاشتراك فى مجلة **هنا لندن** العربية ، وبعضهم يرسل مساهمات فى برنامج ندوة المستمعين ، وهذه خطابات لا تترجم بل تُحوّل إلى الأقسام المختصة ، ولكن بعض الخطابات تتضمن نقداً

(مدحاً أو قدحاً) وهذه هى التى يهتم المسئولون بترجمتها لمعرفة ما يدور فى القسم العربى وإصدار التعليمات اللازمة بشأنها !

وبدأت العمل فوراً ، وكنت أجهز الخطابات التى تفتحها السكرتيرات ، ثم أمر عليها بعينى سريعًا لأرى نوع الخطاب وأصنفه ثم ألخص محتواه بالانجليزية . واستغرقت فى اليوم الأول فترة طويلة فى ذلك العمل إذ كنت أكتب النص المترجم بخط يدى ، وأضع رموزاً على الخطابات الواردة إلى الأقسام المختلفة ، ثم أبعث بالنصوص المترجمة إلى غرفة السكرتارية . ثم شاهدت الدكتور عزت وهو يعمل ، كان يملى على السكرتيرة مضمون الخطاب بالانجليزية وهى تكتبه بالاختزال short-hand ثم تأخذ دفترها وتنسخ ما فيه على الآلة الكاتبة . وكانت إفادات تكتب بخط يدها ، وهى دائمة السؤال ، مترددة ، تخشى أن تخطئ فتفقد عملها ، وكان البحث قد بدأ عن موظف دائم يُغنى الإذاعة عن المؤقتين .

ولم يمض الأسبوع الأول إلاّ وقد أحكمت الصنعة ، فأصبحت أملى السكرتيرة مضمون الخطابات بلغة تعمدت أن تكون عامية أو أقرب إلى العامية حتى أتدرب على استخدام ذلك المستوى من اللغة الذى حرمت منه فى الجامعة ، واخترت الحضور ثلاث مرات أسبوعيا (نصف يوم) فكنت آتى فى التاسعة والنصف وأمكث إلى الثانية عشرة موعد الغداء حيث ينطلق الجميع إلى مطعم الإذاعة فى مبنى Bush House القريب ، أما أنا فأنطلق إلى الكلية لأستمتع بالطبيعة ثم أعكف على الدراسة فى المكتبة حتى السابعة .

وكانت الإذاعة ترسل لى النقود فى ظرف مختوم على عنوان مسكنى ، وكانت نقداً cash، فكانت تسرنى خيراً من الشيكات ، ولم يكن يخصم منها بنس واحد ، بخلاف النظام المصرى المعروف ، وكنت أسارع بوضعها فى البنك ، مع حشد التجار الذين كانوا يأتون بحصيلة الأسبوع إلى البنك يوم الجمعة . وكنت أحتفل بقدوم المال كل أسبوع فأشترى ما لذ وطاب من الأطعمة ، وأحيانا ما كنت أذهب إلى المطبخ المشترك فى بيت الطلاب فأقوم بالطهى أو إعداد الطعام بنفسى . وكان متوسط ما يصلنى أسبوعيا يتراوح بين عشرة جنيهات ونصف وبين اثنى عشر جنيها إذا اقتضى العمل قضاء يوم كامل ، وكنت فى ذلك اليوم أتناول الغداء فى مطعم الإذاعة وأحادث الإخوان العرب ، وكثيراً ما كنا نجتمع حول موائد يشارك فيها الانجليز ، فتعرفت على زاهر بشاى المصرى الذى كان يعد رسالة للدكتوراه ، طال عمله فيها فأمعن فى الطول (ولم يحصل عليها إلا حين أبلغته الإذاعة بإلغاء عقده ، فحصل عليها لكنه لم

يُفصل !) ، والدكتور محمود حسين الذى كان متزوجًا من أجنبية ، أظن أنها كانت سويدية وله منها ثلاثة أولاد ، وكان ضخم الجثة رقيق الصوت ، عرف عنه انشغاله بالنساء ومطاردته لهن ، وتعرفت على أكرم صالح – الفلسطينى المتخصص فى البرامج الرياضية – وكان إذا حاول مصادقة فتاة فَصَدَّتْهُ وصفها بأنها صهيونية ، وكنت أرى الكثيرين من الطلاب الذين يترددون على المطعم لتناول الغذاء والصحبة فحسب .

كان مجتمعًا غريبًا ، فكل منهم له قصة ، وكل منهم يعيش حياة تختلط فيها صور الماضى بالحاضر دون أن يرى له مستقبلاً ، كان العرب يندفعون مع الانجليز كل صباح إلى العمل ، ثم يُطِلُّون فى أحاديثهم على الذكريات التى يبتعد بها قطار الزمن فتختلف ألوانها وتشحب ، وتتداخل خطوطها وتشتبك ، وكان معظم المصريين هناك ممن جاءوا إلى بريطانيا أصلاً للدراسة ثم انقطعت رواتبهم فالتحقوا بالعمل وهم يرون شمعة الدراسة تذوى ويخفت ضوؤها ، وتزوج بعضهم من انجليزيات واشترى له بيتًا ذا حديقة ، وأنجب أطفالاً يحملون الجنسية الانجليزية ولا يتكلمون العربية ، وظلت صورة الوطن كما هى – أى كما تركوه – وكانوا يتأثرون قطعًا بما يسمعونه فى أجهزة الإعلام ، وكان بعضهم يحاول أن يبرر حكمة خروجه من مصر وعدم العودة لها ، وبعضهم يبدى الندم فى لحظات نادرة عابرة ، وكان من بين هؤلاء عزت أبو هندية (رحمه الله) الذى ينتمى إلى دمياط ، وقد اشتهر عنه إمساك اليد ، ولو أن هذا يرجع إلى فقر أيام الدراسة ، وهو يقول إنه على استعداد للعودة إذا وافقت إدارة البعثات على دفع تكاليف تعليمه طيلة فترة عمله وإنفاقه على نفسه . وكان يعيش خارج لندن فى منزل اشتراه ، وكان لا يريد الزواج حتى لا تستولى زوجته على أمواله ، وكان يحاكى الانجليز فى « تعقلهم » فى الإنفاق والحرص على المال ، وكذلك – رغم تقدمه فى السن (إذ كان قد جاوز الخمسين) ورغم مرض القلب الذى يعانى منه – فى مصادقة الفتيات . حتى وقعت الحادثة التالية .

اقترحت إفادات كيبرون أن تُعرِّفه بفتاة ثرية اسمها شيلا جرين تعمل فى العلاقات العامة، وأفهمت كُلاً منهما أن صاحبه ممتاز (وكانت شيلا ولا شك ممتازة) وعملت إفادات على « توفيق رأسين فى الحلال » حتى يجد الدكتور عزت من يرعاه إذا مرض ، ومن يعتنى به فى حياته اليومية حتى يظهر بالمظهر اللائق بجميع المصريين . وكنت حاضراً أثناء المقابلة ، ومال كل منهما – كما يبدو – إلى صاحبه ، وأصبحنا نتوقع إعلان الزفاف بين لحظة وأخرى ،

ولكن عزت تراجع فى آخر لحظة ، ويبدو أنه سمع منها ما يفيد أنها تعرف أنه مريض بالقلب ، فتخيل أنها تريد أن ترث ماله حين يوافيه الأجل ، ولم يمض أسبوعان حتى نعى الناعى شيلا جرين ، وقال قائل إنها تُوفيت دون أن تعانى من أى مرض ، ولكن الأجل المحتوم لا يحتاج إلى مرض ، كما تحدث المتحدثون عما خلَّفته من ثروة طائلة ، آلت إلى الحكومة لأنها لم يكن لها وريث ، وأصبحنا نرى الدكتور عزت وهو شارد اللب ، يفيض صوته بالحزن ، ثم فوجئنا به فى المكتب ذات يوم يقول « أنا أعرف حظى .. لو تزوجتها لعاشت مائة عام ! » .

أما ريمون مكِّف فكان اسكندرانيًا ظريفًا (ابن بلد وابن نكته) يحمل جواز سفر بريطانى لأن أصله من مالطه وأبوه مالطى يحمل الجنسية البريطانية واستقر أخيرًا فى الاسكندرية . وحين طُرد الانجليز (ومن يحملون جوازات سفر انجليزية) من مصر إبان العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، كان ريمون قد ارتبط بغرام مشبوب بفتاة من حى بحرى بالاسكندرية (وتقيم فى شارع رأس التين) اسمها جانيت ، وكانت ما تزال تلميذة فى المدرسة الثانوية ، وكان يتمنى أن يخطبها فور حصولها على التوجيهية (الثانوية العامة) ثم فوجئ بقرار الطرد ، فجاء إلى لندن حيث عمل فى بحوث المستمعين ، لكن خطاباته لم تنقطع إلى جانيت ، وما أن تحسنت الأحوال السياسية حتى هبط مصر بالطائرة وتزوجها فى اليوم التالى ، وبعد يومين كانا فى لندن ، فاشترى بيتًا فى جنوب لندن - فى منطقة Streatham وأنجب منها ثلاثة ذكور ، أحدهم مريض بالهيموفيليا (مرض سيولة الدم) وعندما زرته صباح يوم من أيام السبت شممت رائحة مصرية محببة كنت افتقدتها من زمن ، وعندما سألته قال « أصل جانيت لازم تدمّس الفول بنفسها ! » . ولا شك أنها كانت مدبرة منزل رائعة، ولا أظن أننى أكلت فولاً أشهى مذاقًا من فول جانيت .



كان من نتائج عملى الجديد ، الذى تطلب إذنًا خاصًا من وزارة الداخلية (بالعمل خلال الصيف للطلاب) أن اختلف نظام حياتى فتعلمت السهر ، خصوصًا بعد أن طال النهار

أحمد عثمان المؤلف المسرحي والمؤرخ ونجلاء عاصم زوجته وهي ابنة مدحت عاصم عام ١٩٦٦



واعتدل الجو ، واشتريت جهازًا للراديو ماركة بوش Bush (ما يزال يعمل حتى الآن) أغناني عن الراديو المشترك للفندق القديم ، واشتريت قلنسوة من الفراء ، كندية الصنع ، بخمسة جنيهات ، ما زلت أرتديها حتى اليوم في شتاء أوربا ، وبدأت أتردد على بعض المطاعم الهندية التي تقدم وجبات كثيرة التوابل ، ومتنوعة الطعوم يطلق عليها الأجانب مجتمعة لفظ كَرِي بتفخيم الكاف curry (وتنطق في مصر كاري بترقيقها ومد الفتحة) كما اكتشفت كُشكًا يبيع الكتب القديمة بنصف الثمن ، وأحيانًا ما كانت كتبًا جديدة أصابها تلف طفيف ، فبدأت أقرأ بنهم في شتى الموضوعات ، خصوصًا في الفلسفة وعلم النفس ، إذ كان الأستاذ هاردنج Harding ، أستاذ علم النفس بكلية بدفورد مولعًا بالشاعر الذي أدرسه ، وكان يوجهني إلى قراءة كتب معينة في علم النفس يرى أنها لازمة لدراسة هذا الشاعر ، كما بدأ في ذلك الوقت غرامي الشديد بالفيلسوف الألماني كانط Kant ، بعد أن قرأت مدى تأثر كولريدج Coleridge (صديق وردزورث) به ، وكنت أقرأ عنه قبل أن أقرأ الترجمات الانجليزية المشروحة لكتاباته ، وبدأت مكتبتي الخاصة تزدهر ، فكل كتاب أقرؤه أحتفظ به وأعود إليه ، وكان ذلك كله سببًا في تعطيل الكتابة (في الرسالة) ولكن المشرف لم يعترض .

وذات مساء دافئ من أمسيات مايو الجميلة ، كنت أتريض في الحديقة حين رأيت على البعد شخصًا يشبه 'عبده' المصري . وتوقفت من المفاجأة . ما الذي أتى به إلى الحديقة ؟ وسرعان ما جاءني وفي يده حزمة أوراق ، وقال لي : ذهبت إليك في الفندق فقالت السكرتيرة إنك ذهبت إلى الحديقة ! (قلت في نفسي هذه سكرتيرة 'مخابرات' !) وقال إن لديه خطابات من صديقته كاثلين ريلتون Kathleen Railton دأبت على إرسالها إليه بعد ما انقطع عنها في الأسابيع الثلاثة الماضية ، وألقيت على الخطابات نظرة سريعة فإذا هي أقرب إلى الفن الجميل أو الأدب الرفيع منها إلى الخطابات العادية فقررت قراءتها فيما بعد على مهل وكانت

تواريخها المتقاربة وكثرتها تدل على أن صاحبتها لم تتوقف عن التفكير فى «الموضوع» بل كان يشغلها تمامًا ، وطلبت منه أولاً أن يقص علىّ التطورات ، فقال إنه كان مطمئنًا بعد أن قال لها إنه مسلم ، فلا يوجد فى ظنه دين يمكن أن يعترض عليه والدها مثل الإسلام ، وعندما غابت عن الكلية عدة أيام استبشر خيرًا ، ولكنه فوجئ بها تفعل ما فعلته فى المرة السابقة ، إذ عادت هاشة باشة ، وقالت له إنها لن تخبر والدها بخبر دينه، وإنها على استعداد لاعتناق الاسلام وقد سألت بعض أصدقائها من « الراسخين فى العلم » فقالوا لها إن الإسلام لا يمنع زواج المسلم من المسيحية ، ومع ذلك فهى لا تريد لأطفالهما أن يعانوا ، وتعتزم أن تعتنق الإسلام فتصبح مثل « ممتاز » الفتاة الباكستانية المسلمة فى قسم الفيزياء ، بل إنها سألتها عن الخطوات الواجب اتباعها حتى تصبح مسلمة .

قال عبده : وعندها قررت أن أصارحها بالحقيقة ، ولكنها رفضت الاستماع إلىّ مثلما يحدث فى الأفلام ، وقالت لى إننى لن أفهم تفكيرها إلا إذا خرجت معها إلى الغابة يوم الاثنين ٢ مايو ، فهو يوم عطلة (Bank Holiday) ، ولم أعرف ما تعنى بالغابة ونحن فى انجلترا فاتضح أنها تعنى حديقة وندسور الكبرى Great Windsor Park التى يطلقون عليها اسم غابة وندسور Windsor Forest (والاسم ينطق وِنْزَرْ لا كما نكتبه بالعربية) وفعلاً قضينا اليوم هناك ، وسوف تجد وصفًا لتلك الرحلة فى خطاب لها ، وقالت كلامًا كثيرًا لم أفهم معظمه ، ويدور حول الحرية والانطلاق والتحرر من قيود التقاليد وما إلى ذلك ، وتحدثت فأسهبت عن عدم حاجتها إلى والدها أو إلى أمواله ، قائلة إنها على استعداد لأن تتبعنى إلى أقصى أقاصى الأرض ، حتى الصعيد الجوانى ، تحقيقًا لحبها العظيم . وعندها أحسست بالخطر خصوصًا عندما وصلتنى خطابات من أهلى تفيد أنهم « شمّوا » الخبر ، وأنهم لن يقبلوا زواجى من انجليزية . وعلى الفور انتقلت إلى مسكن آخر لا يعرف أحد عنوانه ، وكلفت أحد أصدقائى بترك الخطابات التى تصلنى إلى الكلية لدى إبراهيم الدوينى ، وكنت أمر عليه ليلاً لكى آخذها ثم أنصرف سرًا . واليوم ذهبتُ إلى المكتب الثقافى لأطلب تحويل تسجيلى إلى جامعة خارج لندن فوجدت مستر فيولنج يعاتبنى على عدم إخطاره بتغيير العنوان وأردف ذلك قائلا « لقد سألت عنك خطيبتك ولم أجد لدىّ العنوان الجديد ! » .

كانت التطورات جادة وتتطلب تفكيرًا عميقًا فجلسنا على أحد المقاعد الخشبية فى الحديقة للنظر فى جميع الاحتمالات ، وكانت اقتراحاتى كلها مرفوضة ، لا لأن عبده يرفض

الارتباط بكاثين ولكن لأنه يريدها ولا يريدها في الوقت نفسه ، وهو لا يريد أن يقول الحقيقة حتى ولو كانت فيها نجاته ، وعندما غربت الشمس بدأنا نحس نسمات البرد الخفيفة ، فاقترحت عليه أن يأتى معى إلى غرفتى ، ولكنه كان يخاف أن تكون فى انتظاره ، ومن ثم أعطانى عنوانه السرى الجديد ورقم تليفونه ورحل .

وعندما عدت إلى الغرفة نحّيتُ أوراق الرسالة والكتب جانبًا وجلست إلى المكتب أقرأ رسائلها إليه ، بعد أن وضعتُها فى تسلسلها الزمنى الصحيح ، وفقًا لتواريخ إرسالها ، وبدأتُ بالرسالة التى تحكى فيها قصة غابة وندسور ، ولاحظت أن فيها فقرات تكاد تكون منقولة بالحرف من رواية عشيق الليدى تشاترلى للكاتب د. هـ. لورانس D. H. Lawrence's **Lady Chatterly's Lover** ، التى أخرج لها الدكتور أمين العيوطى ترجمة عربية ممتازة فى الثمانينيات ، كما كانت بها فقرات تقطع بأن كاتبتها موهوبة ، وأنها تمثل نمطًا فريداً من التفكير الرومانسى كان الدكتور شفيق مجلّى قد حدثنى عنه فى مصر فى الستينيات، فلم أكد أصدقه . وسوف أقتطف من هذه الرسالة التى ما زلت أحتفظ بها فقرة قصيرة :

« إنك تخاف يا حبيبى من القيود والمحاذير التى وضعها الناس لأنفسهم ، وهى قيود ينسبونها إلى الدين أو إلى الأديان ، ولكنك إذا رجعت إلى اليهودية أقدم الأديان لوجدت أصل هذا الخلط : الإنسان لا يستطيع التفكير المجرد ، ولا يستطيع الاتصال بروح الكون ، وهو لا يستطيع إدراك المعنى إلا إذا رآه مجسداً فى رمز ، ونحن لا نعرف معنى الروح البيولوجية إلا عند تأمل الخلية الحية . تعرف هذا مثلما أعرفه . ولذلك كان اليهود يرون أن الله لا يُعبد إلا فى معبد ، فألبسوا المعبد ثوب القداسة وجعلوه مكانًا إلهيًا . مثلما فعلنا نحن بالكنيسة ومثلما فعلتم أنتم بالمسجد (حسبما تقول ممتاز) ولذلك أيضًا صَبَّ كل رجال الدين همهم على الجسد لأنهم رأوا فيه رمزًا للروح أى أنهم تصوروا أن الروح تسكن فيه فحرمّوا هذا وحلّلوا ذاك، ولكن الجسد والروح شىء واحد ، والخلية إذا لم تكن حية لم تعد خلية ، أى إن الحياة صفتها الأساسية ، ونحن لا نتعامل مع مادة مضافًا إليها (plus) روح ، بل مع حياة إذا قتلتها لم تعد موجودة ، وهذا هو ما قلته لك حين غبنا عن الوعى تحت الشجرة أول مرة ، لقد امتزجنا فأصبحنا حياةً واحدة ، ولاحظ أننى لا أقول جسداً

واحداً ، وكانت تلك الحياة الواحدة هى التى تكررت بعد ذلك ثلاث مرات ، ولا أستطيع أن أتصور بعد ذلك كيف تتكلم عن الإسلام أو المسيحية ! » .

وقلت فى نفسى « ما أشد جرأتك يا عبده أفندى ! » وظللت أقرأ خطابات تتكرر فيها هذه المعانى حتى وصلت إلى الخطاب الأخير ، وكان الخط رديئًا فالواضح أنه كتب على عجلة، ولكننى ثابرت حتى قرأت العبارة المذهلة التالية :

« أخبرت والدى بأنك مسلم ، فلم يعترض ، وتساءلت والدتى : هل هذا معناه أنه ليس كاثوليكيا ؟ فرد عليها قائلاً – «طبعًا يا جاهلة .. المسلمون مهذبون» (de-cent) وقالت أمى : لا بأس ما دمت متأكداً أنه ليس كاثوليكيًا ! أبشر يا حبيبى – لسوف نحقق أحلامنا . وأرجوك أن ترد على خطاباتى » .

وأسرعت إلى التليفون ، لكنه لم يكن قد وصل بعد ، ثم فكرت فى الذهاب إليه بنفسى ، لكنى تساءلت ماذا عساى أفعل لو كنت مكانه ؟ ولما لم أجد إجابة شافية ، ضممت الخطابات بعضها إلى بعض ، باستثناء خطاب الغابة ، ووضعتها فى الدرج ، وقررت الانتظار إلى الصباح .

الخـريف الجميــل



كانت الخطابات المتبادلة بينى وبين نهاد خطيبتى شريان حياة ، وحبلاً يصلنى بالواقع الذى كنت أعرف أننى سأعود إليه ، ورباطًا متينًا يشدنى إلى مصر ، حبى الأول والأخير ، ولم تكن نهاد تبخل علىّ بالأخبار ، وإن كانت فى تلك الأيام تعمل بجد للانتهاء من دراستها الجامعية والمحافظة على الامتياز والتفوق ودرجة الشرف ، ولم يكن لدىّ من الأنباء ما أنقله إليها، فحياتى على طرافتها رتيبة ، وما أن انتهت الامتحانات حتى اتفقنا على عقد القران التوكيل فأرسلت توكيلاً إلى أخى مصطفى (موثقًا من القنصلية المصرية) حتى يوقع العقد نيابة عنى ، (وتم ذلك فعلاً يوم ١٧ يوليو ١٩٦٦) وبدأت نهاد فى القيام بإجراءات السفر ، وكانت شاقة مضنية ، وأعلمتُ الجميع بالخبر ، وطلبتُ من مديرة بيت الطلاب غرفة كبيرة استعدادًا لقدوم نهاد ، وكانت اللوائح هنا لا تسمح بمكوث الضيف (الطالب) أكثر من عامين ، فعلمت أننا لابد أن ننتقل إلى شقة خاصة بنا مهما بلغ إيجارها .

كنت كثيراً ما أتأمل ترددى بين العالمين اللذين أعيش فيهما ، وأعجب للمفارقات التى كُتب علىّ أن أحيا فيها ليل نهار ، فعملى فى مكتب بحوث المستمعين يتيح لى معرفة ثمينة بأفكار مرسلى الخطابات ، ومعظمهم من شمال إفريقيا ، وهى أفكار أمة عربية ما تزال تتلمس طريق النهضة الذى أتلمسه ، وتتأرجح مثلما أتأرجح بين الماضى العربى السحيق الذى يعيش فى الوجدان حاضراً ومستقبلاً ، وبين الحاضر الغربى الذى نحاول التكيّف معه دون مساس بذلك الماضى ، وكانت تلك الخطابات من النوافذ النادرة على ذلك الفكر ، وكنت أقرأ هذه الخطابات وأختزن فى ذاكرتى ما أراه ذا دلالة خاصة ، أو أنقل فى كراسة لدىّ بعض ما يرد فيها من طرائف ، حتى ولو لم تكن من الخطابات التى تُترجم أو تُلخص .

واستطعت أن أصنع خطوطاً عامة للفوارق التى بدأت تتضح بين الدارسين العرب فى لندن ، وبين البيئة الانجليزية التى تعتبر غريبة عن تقاليدهم إلى حد التناقض الصارخ ، وقد اصطدمت بهذه التقاليد مرتين فى الشهور الأولى من عملى فى الكلية ، إذ كان من بين الذين يتناولون طعام العشاء كل يوم دارس اسمه بيتر ، له لحية منمقة ، وأسلوب خاص فى تناول الطعام ، وكثيراً ما كنا نتجاذب أطراف الحديث أثناء العشاء ، على مدى أربعة أشهر كاملة، حتى أصبحت أتصور أننا غدونا أصدقاء أو معارف على الأقل . وذات يوم شاهدته فى فناء الكلية مقبلاً نحوى فابتسمت له وحييته ولكنه لم يرد الابتسام ولم يرد التحية ومضى فى طريقه كأننى غير موجود . وفى المرة الثانية قابلت مسز تيلوتسون رئيسة القسم فابتسمت لها وحييتها وكان رد الفعل مثل رد فعل بيتر ! ترى ما عسى أن يقول العربىّ إذا فعل ذلك عربى مثله ؟ إننا لا نقول إن لهم أعذارهم فهم مشغولون ، ولا نقول إن لكل شىء وقتًا مخصصاً لا يتعداه ، فالعمل لدينا يسير أو يتوقف دون أن نحاول وضع نُظُمٍ زمنية تحكمه ، وزملائى قد يطرقون بابى فى أى لحظة بل ويدخلون (فالباب مفتوح دائماً) سواء كنت مشغولاً أو غير مشغول ! وقد تعلمت من الانجليز فى تلك الأيام أن أحتفظ بمذكرة (مفكرة يومية diary) أدون فيها المواعيد مثل أوقات الذهاب للمسرح ومقابلة المشرف ومواعيد العمل فى ترجمة الخطابات ، وأسجل فيها بعض ملاحظاتى ، فكانت خير عون لى على التكيّف مع حياة العمل الدائب فى لندن .



حديقة هايد بارك فى الشتاء وقد كساها الثلج شتاء ١٩٦٦

وكان من بين رواد غرفة الأساتذة فى الكلية شاب يبدو فى أواخر الثلاثينيات اسمه كونراد رَسِلْ ، كان من أسرة رَسِلْ الأرستوقراطية ، وكان من حولى يقولون إنه ابن برتراند رسل ، ولكننى لم أكن ألتفت إلى حسبه ونسبه ، بل شدّنى إليه أسلوبه فى الحديث وطريقته المنطقية فى صوغ الحجج وبسطها ، وكان يتكلم بلهجة المثقفين الخاصة ، ولا غرو فقد كان يعمل أستاذًا للتاريخ الحديث ، وكانت له زوجة شابة تأتى مع طفلها الصغير (الذى لم يتجاوز عامه الثانى) لتناول الغداء معه فى الكلية ، وقد وجدت نفسى ذات يوم طرفًا فى مناقشة سياسية لم أكن أتوقعها ولم أكن أريدها ، وذلك عندما دخلْتُ إلى غرفتنا بعد الغداء فوجدت كونراد يحادث طالبًا هنديًا من طائفة السيخ اسمه سوخديڤ (أو سوخديب) حول مشكلات عهد الاستقلال فى الدول التى تنتمى إلى ما أطلق عليه ديجول تعبير العالم الثالث ، وكان ديجول قد فاز برئاسة الجمهورية الفرنسية من جديد فى ديسمبر ١٩٦٥ وفاجأنا بعبارة le monde tertieme التى لم تكن ذات معنى محدد آنذاك ، فنحن فى مصر نتحدث عن دول عدم الانحيَاز ، باعتبارها تمثل كتلة لا تنتمى للشرق ولا للغرب ، ولكننا لا نعرف ما يقصده

ديجول بالعالم الثالث ، وعندما دخلت الغرفة كان النقاش قد تركز فى مشكلة كشمير ، وهى الإقليم المتنازع عليه بين الهند وباكستان خصوصاً بعد الحرب التى اندلعت بينهما فى سبتمبر ١٩٦٥ ، وكانت الصين تؤيد باكستان ، وأمريكا تؤيدها أيضاً ! وكان سوخديف مهموماً بعد زيارة هيوبرت همفرى نائب الرئيس الأمريكى فى فبراير ١٩٦٦ إلى باكستان لإعلان استئناف مساعدتها ، والآن أصبحت إنديرا غاندى رئيسة للوزراء فى الهند ولم تعد تتحدث فى رأى سوخديف إلا عن السلام !

ولا أدرى السبب الذى جعل سوخديف يتصور أننى سوف أؤيد موقف الهند من قضية كشمير ، والأرجح أنه كان مؤمناً بعبد الناصر وكان يرى فى حركة عدم الانحياز الوليدة حلفاً شرقياً بين الهند ومصر واندونيسيا وبعض الدول الإفريقية ، ولم يكن هذا الموضوع يشغلنى البتة ، فالمعانى المطلقة التى كنا نؤمن بها فى شبابنا سرعان ما تصبح نسبيّة ، ومعنى 'الوحدة' مثلا باعتبارها مثلاً أعلى قد يتغير بتغير الظروف ، وكنت أسمع عن سقوط زعماء وصعود زعماء (سقوط بن بيلاّ فى الجزائر ونكروما فى غانا وصعود كازافوبو فى الكونغو إلخ) فأمُرُّ على هذه الأنباء مر الكرام ، لأن انشغالى بالأدب واللغة أدى إلى انشغالى بالناس – بالبشر الذين يعملون ويتعلمون هنا ثم يفصلون تماماً بين حياتهم وحياة الآخرين ، وكان كونراد رَسِلْ أصدق نموذج لهؤلاء .

وعندما دعانى سوخديف للمشاركة فى النقاش اعتذرت بأننى لا أعرف شيئاً عن المشكلة، وأن لنا فى الشرق الأوسط (أو فى الوطن العربى) هموماً من لون آخر ، وهنا قال كونراد بلهجة الواثق مما يقول « ولكن إسرائيل مشكلة مماثلة وهى مشكلة لا تزول بتجاهلها » وأكدت له أننى لا أتجاهلها ولكننى أومن بأن العرب يسعون لاحتوائها [أى لمنعها من التوسع] وأن النهضة العربية كفيلة بأن تذيب الكيان العنصرى حتى تصبح فلسطين مكاناً يجمع بين العرب واليهود ، مع غلبة الثقافة العربية آخر الأمر ، فبذا يقضى مسار التاريخ ، وقلت إننى أتصور عودة الشعب الفلسطينى إلى دياره حين يختفى التعصب العرقى اليهودى، ويتحول المثل الأعلى من الغلبة العسكرية إلى الارتقاء بمستوى معيشة الناس الذين ما يزالون يعانون من الفقر والجهل والمرض .

وقال كونراد : « أنت شاعر ! فهذه أحلام الشعراء ، والواقع يقول إن القوى المادية هى التى تُسيِّر التاريخ لا الآمال والأحلام » . وانطلق يضرب الأمثلة لا من الشرق أو العالم العربى بل مما يسمى بالديموقراطية الغربية ، وأسهب فى تبيان سيطرة بعض الطبقات (وصحتها 'الفئات') على مسار السياسة البريطانية عبر القرون ، وكيف أن 'العقد الاجتماعى' الجديد وكان هارولد ويلسون يسميه social compact (لا contract) يعنى الاحتفاظ لأصحاب الامتيازات بامتيازاتهم بشرط السماح للآخرين إذا استطاعوا أن يلحقوا بهم ، وقال لى فى هدوء شديد : « هل تعتبر أن حزب العمال يمثل العمال حقا ؟ وهل تعتبر أن تأميم صناعة الصلب خطوة فى صالح الطبقة العاملة ؟ » وأجاب على التساؤلين قائلاً : « انظر إلى عدد النواب اليهود فى مجلس العموم – ٧٢ نائبًا يمثلون من ؟ إنهم قطعًا لا يمثلون نصف مليون يهودى ، وهم أقل الأقليات العرقية عددًا فى بريطانيا ، بل هم يمثلون مصالح كبار التجار اليهود ، أرباب تجارة الخِرَق مثلا (the rag trade ومعناها تجارة البلو جينز blue jeans وأمثال تلك الأقمشة مما أصبح الشباب يرتديه باعتباره الموضة الجديدة) ومن وراء هذه التجارة ثقافة كاملة تغتنم غضب الشباب على ويلات الحرب والدمار الذى خلفته فى الدعوة إلى التمرد الذى لا هدف له ، وهى ثقافة يغذيها كبار الكتاب من يهود أمريكا وانجلترا ، (أرنولد ويسكر ، وبيتر شافر ، وهارولد بنتر لدينا وعشرات لديهم برئاسة آرثر ميلر ، ونورمان ميلار ، وهنرى ميلر ، وصول بيلو ، وجورج سيجال وغيرهم) وعندما أقول 'لا هدف له' أقصد أن الشباب لا يعرف له هدفًا ، فالتمرد من سمات الشباب فى كل عصر ، وقد يكون التمرد هو فى ذاته الهدف ! أما الغاية فهى خدمة مصالح كبار الرأسماليين الجدد ! » .

ولم أفهم غضب كونراد على الرأسماليين ، فهو ارستوقراطى ومن الطبيعى ألا يؤيد حزب العمال ، ولكن هجومه على الرأسماليين بدا محيِّرًا ، فعدت أسأل عن صناعة الصلب وكيف لا يرضى عن تأميمها بعد أن دافع هارولد ويلسون دفاعًا مجيدًا عن ذلك أقنع الجميع ؟ وهنا قال كونراد وقد بدأ ينظر فى ساعته ، إذ كانت تقترب من الثانية : « إن لعبة الانتخابات التى أتت بهارولد ويلسون إلى الحكم تتضمن مكافأة من أنفقوا عليها ! لقد تعثرت صناعة الصلب لأن الآلات التى كنا نستخدمها بالية، أو قل إنها لم تعد قادرة على المنافسة مع غيرنا من المنتجين، وتحديث هذه الصناعة يتطلب استخدام آلات جديدة لا قبل لأرباب أو أباطرة صناعة الصلب

(the steel tycoons) بتكاليفها ، ولذلك رحبوا بتدخل الدولة لإقالتهم من عثرتهم بأموال دافعي الضرائب » وقلت بصوت حاولت أن يجارى صوت كونراد فى انخفاضه وبُعده عن الحماس : « ولكن تحديث الصناعة سيعود بالخير على العمال وعلى الدولة » فأومأ موافقًا وأضاف « ويضمن نجاح مرشحى حزب العمال فى منطقة سالفورد Salford ، ولو فى المستقبل القريب » . ونهض من مجلسه وهو يقول « ولكن هارولد ويلسون لن ينجح فى أى انتخابات قادمة ، بل ستأتى حركة البندول (the swing of the pendulum) بحزب المحافظين الذى سيعيد الصناعة إلى أصحابها بعد أن تصبح عملاً مربحًا (a going con-cern) فتذكر ما أقول عندما يحدث ذلك ! » وخرج باسمًا .

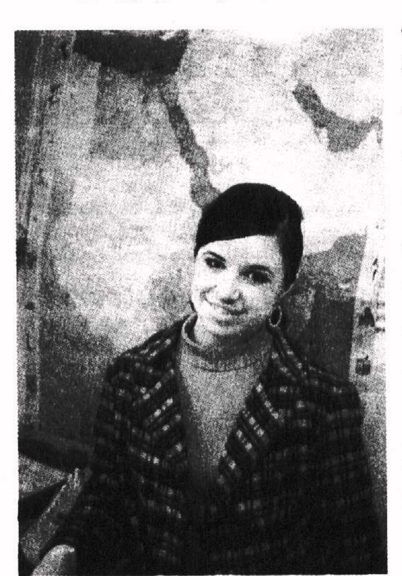
وكانت تلك المناقشة بداية وعى جديد بالحياة العامة ، خصوصًا بعد أن تحققت نبوءة كونراد رسل فيما بعد وأتى حزب المحافظين إلى الحكم عام ١٩٧١ وبدأ عهد التوسع الاقتصادى expansion وتخفيض سعر الفائدة على القروض من البنوك فيما يسمى بعهد الأموال الرخيصة (cheap money) وكان هدفه المعلن هو إتاحة النقود لمن يطلبها فى عهد أطلق عليه عهد تحريك النقود والأسعار (reflation) وإن كان قد أتى بالتضخم (inflation) الذى كان حزب العمال يحاربه ، والغريب أن تكون من أسباب نكسة حزب العمال ما أقدم عليه وزير المالية العمالى جيمس كالاهان James Callaghan عام ١٩٦٩ من تخفيض لسعر صرف الجنيه الاسترلينى مقابل العملات الأوربية ، مما دفعه إلى الاستقالة من منصبه ، وذلك بعد ضغط الرأى العام ، إذ قال بعض الصحفيين إنه نكث بعهده ، وأقول إن ذلك غريب لأن انخفاض سعر الصرف استمر سنوات وسنوات فى عهد المحافظين .



٢

كان من أهم ما خرجت به من المناقشات الجامعية على مدى عام كامل هو الوعى بأن الأستاذ يتمتع بحرية تكاد تكون مطلقة فى تفكيره وبحوثه ، وإذا كان ذلك مما لا يدعو للدهشة فى العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء ، فهو يدعو للدهشة حقًا فى العلوم الإنسانية ، وكان

كارول زميلتنا فى العمل فى كوينز هاوس



مما يسّر لى الوصول إلى هذه النتيجة اختلاطى بنماذج متعددة من أفراد الطبقات الأخرى فى المجتمع الانجليزى ، فكانت 'كارول' السكرتيرة ذات الملامح الشرقية تحدثنى عن صديقها وكيف حاولت معه التشبه بالطبقات العليا فذهبت للرقص فى فندق هيلتون وكيف مثلت دور إلايزا دوليتل Eliza Doolittle فى فيلم سيدتى الجميلة عندما حاولت التحدث بلهجة أبناء الذوات ، وكيف انكشف أمرهما حين لعبت الخمر بالرؤوس فانطلقا يتحدثان بلهجة أولاد البلد فى لندن ، وعلمت من 'سالى' أن صديقها ديڤيد يريد أن يذهب معها إلى إيطاليا فى أغسطس، وكانت مترددة بسبب تحذير ريمون مِكلّف لها ، إذ قال لها إن عليها أن تشترط عليه الزواج أولاً ، وهى لا تدرى ما تفعل ، فهى تخاف أن يتهمها بعدم الثقة فيه ، وتخاف أن يهجرها ، ولم تكن أسرتها تعترض ، لكن خوفها من ريمون كان سبب ترددها .

وجاء ديڤيد ذات يوم إلى المكتب فوجدته شابًا نحيلاً قصيرًا ، غير وسيم لا تبدو له ملامح محددة (nondescript) وكانت 'سالى' فى رشاقة نجوم السينما ، مرحة ضحوكًا ، وعندما وجدانى أجلس وحدى فى ساعة الغداء ، عازفًا عن الخروج ، أسجل بعض الملاحظات فى مفكرتى التى تضخمت ، طرقا الباب ودخلا ، فعرفتنى سالى به ، وعرفته بى قائلة إنه مستر عنانى الذى أطبع له الرسالة (وكانت تتولى نسخ الفصول بعد تعديلها على آلة كاتبة كهربائية لديها فى المنزل) . وقال ديڤيد ضاحكا 'The one who's swallowed the dictionary?' (أى أهو الذى ابتلع القاموس) وأنكرت أننى ابتلعت شيئًا ، فأردف قائلاً إنه لم يفهم حرفًا واحدًا مما كتبت ، وضحكنا ثم سألنى : 'هل ستذهب مع نهاد إلى إيطاليا ؟' وعجبت من سؤاله ورددت عليه بسؤال : 'ألابد من ذلك ؟' فرد قائلا « كنت أتصور أن الناس يتزوجون فى



إيطاليا ! » وسألته بسرعة « وهل ستتزوج سالى فى إيطاليا ؟ » فقال « ولم لا ؟ ربما فعلت » (why not ? I might, you know) وتطرق الحديث إلى شراء المنزل ، فالقاعدة أن يشترك العروسان فى شراء منزل الزوجية أولاً ، فهما يدفعان مقداراً من المال أولاً (ألف جنيه على الأقل) ويدفعان الباقى على أقساط شهرية للبنك ، فالبنك هو الذى يقدم القرض لهما (الثمن الكامل الذى تتقاضاه الشركة العقارية) وكان فى هذه الحالة ٣٥٠٠ جنيه، ويعتبر المنزل مرهوناً للبنك حتى إتمام سداد القرض ، ولذلك تعتبر الدفعات الشهرية (الأقساط) قيمة فك الرهن ويشار إليها عادة باسم الرهن فقط ، فيقال (to pay the mortgage) ويشار إلى الفائدة المفروضة على القرض باسم سعر فائدة الرهن (mortgage rate) واتضح من الحوار أن ديفيد لا يملك إلا ثلاثمائة جنيه ، فقالت سالى « أستطيع أن أدبر المبلغ الباقى (I can manage the rest) واعترض ديفيد أولاً ثم قال « سأرد لك المائتين عندما أفتح محل البقالة الخاص بى ! » وغنى عن البيان أن سالى كانت تشعر بسعادة غامرة ، وعندما نهضا التفت إلىّ ديفيد وقال : هل الأستاذ المشرف هو الذى سيمتحنك فى الرسالة ؟ فأجبت بالإيجاب ، فقال ألا يعتبر هذا من قبيل الغش ؟ (cheating) وعندما رأى الدهشة على وجهى قال : « أعنى أنه هو الذى تولى تصحيح الرسالة .. فما الذى سيمتحنك فيه ؟ » وضحكت ولم أعلق فغادرا المكتب .

كانت أحلام سالى وديفيد أحلام الطبقة الفقيرة ، ولم تكن أفكارهما تتجاوز شراء المنزل وتدبير نفقات المعيشة ، وكانت قد مضت على صداقتهما سنوات طويلة ، يخرجان للنزهة أو يذهبان إلى السينما ، على مرأى ومسمع من الجميع ، ولم يكن ديفيد قد حصل على أى شهادة، فهو school leaver وحسب أى إنه قضى فترة التعليم الإلزامى فى المدرسة حتى

سن الخامسة عشرة (رفعها حزب العمال إلى ١٦ بحجة رفع المستوى التعليمى وقال حزب المحافظين إن الهدف من ذلك تخفيض عدد تاركى المدرسة المسجلين فى قوائم العاطلين) ثم عمل 'صبيًا' فى محل بقالة ، وكان دخله قليلاً وطموحاته أقل ، أما سالى فكانت ماهرة فى أعمال السكرتارية مثل الاختزال والآلة الكاتبة والأرشفة وما إلى ذلك ، وتطمح فى أن تصبح سكرتيرة خاصة لمدير إحدى الشركات ، وهذه فئة يطلق عليها 'مساعدة شخصية' (.P. A Personal Assistant) وتوازى منصب 'مدير المكتب' لدينا . وقد كُتب لى أن أزورها فى المنزل وأرى والديها ، وكانا مثل ديفيد يفتقران إلى الطموح ، وقال والدها لى : I don't encourage moonlighting أى لا أحبذ القيام بعمل جانبى إلى جانب العمل الأصلى ، فالإنسان فى رأيه لابد أن يعيش ويتمتع بحياته ، لا أن يكافح فى طلب المال ، وأكد لى أن 'سالى' لم تكتب لى الرسالة إلا بسبب دماثة خلقى ، وأنها لا تسعى إلى أى لون من الكسب المادى .



كان الإحساس الذى بدأ يتملكنى هو أن الأوربيين يؤمنون بالنظم التى تعفى الفرد من مكابدة ما يكابده الفرد فى بلادنا ، فنحن لم نرث نظمًا ثابتة بل نحاول وضع نظم جديدة لا نعرف إلى أى حد يمكن أن تنجح ، أما الانجليز وهم من غلاة المؤمنين بالنظم ، ولا يكاد يتفوق عليهم إلا السويسريون فيما أعلم ، فهم منذ البداية يقبلون ما تسير الدولة عليه ، والثورة لديهم ضرب من الجنون بالمعنى العلمى (أى الذى يقتضى علاجًا فى مصحة) ولذلك فإن أى تغيير فى المجتمع يستغرق دهورًا ، وقد سبق ابن خلدون علماء الاجتماع المحدثين فى تبيان أحد أسباب ذلك وهو طبيعة الجو ، فالإنسان الذى ينشأ فى بيئة أو فى مناخ يصعب التنبؤ به يميل إلى الاحتماء من تقلباته ، ويسعى فى سبيل ذلك إلى وضع نظم يدخل عليها تحسينات قليلة أو كثيرة عامًا بعد عام ، حتى تصبح مأمونة ، وحتى يجد ما يركن إليه ويثق به . وقد يدهش من يعلم أن أرقام خطوط الأوتوبيس فى لندن لم تتغير على مدى الخمسين عامًا الماضية ، وعندما أشاهد بعض الأفلام القديمة ألاحظ تعليقات الانجليز عليها كأنما لم يمض علينا زمن ! ومثلما

يؤمن الإنجليزى بالثبات ، يعرف أن التغيير محتوم وهو يقبله على مضض ، وكثيراً ما يتحسر على الأيام الخوالى ، ويكاد يتمنى لو وقف الزمن وظلت حديقته غناء إلى الأبد ! وكان صدق هذا الحدس يتأكد لى كلما التقيت بالطاعنين فى السن ، وأذكر أننى دخلت صيدلية وكانوا يسمونها على أيامنا [Chemist's] أى دُكّان كيميائى [ثم تغيرت بعد الوحدة الأوربية إلى Pharmacy] وطلبت قطعة من الشَبّة لأضعها على جروح ما بعد الحلاقة وكنت أعرف أن اسمها alum وأن الاسم العلمى لها هو styptic فطلبتها بالاسم العلمى ، فنظر إلىّ الصيدلى الشاب دَهِشًا ، فقلت له ألا نكتبها بحرف الواى (Y) وننطقها كالكسرة ؟ فسمعت من أقصى الصيدلية شيخًا يصيح « هل تغير هجاء هذه الكلمة أيضًا ؟ ما الذى يحدث للعالم؟ » .

[Have they changed that too ? What's the world coming to ?]

وطمأنت العجوز قائلاً إن الهجاء لم يتغير ولكننى أجنبى غير واثق من الهجاء الصحيح ، فنهض وجاء إلىّ متكئًا على عصًا غليظة ووقف يقص علىّ أحزان المهنة ، وما صنعته الكيماويات بصحة الشعب الانجليزى ، واسترسل فى الحديث (وأنا به سعيد) عن مغبة الانسياق وراء المواد الصخرية التى تدخل فى صناعة الأدوية ، ثم همس لى قائلاً : سوف أتلقى خطابًا من الملكة بعد اثنى عشر عامًا أى عندما أبلغ المائة ! وضحكت وقلت له : ربما لن أكون هنا لأرى الخطاب ! وانصرفت . ويجمل بى أن أضيف أننى كنت أمر على الصيدلية كلما زرت لندن (وكنت أقيم خارجها منذ ١٩٦٩) حتى عام ١٩٧٣ حين لم أجد لها أثرًا ، وسألت صاحب الدكان المجاور فقال إن صاحبها توفى وإن الورثة باعوها .

راعنى ذلك التمسك بالقديم والاستمساك بالتقاليد وأصبحت أرى فيه تفسيراً للكثير مما ينسبه البعض إلى التعصب أو ضيق الأفق (والمعنى واحد فى التعبير الانجليزى أى إن nar-row - mindedness توازى تمامًا intolerance وما يجرى مجراها مثل bigotry إلخ) فالانجليز لا يكرهون الأجانب بالمعنى المفهوم للكراهية بل هم يستريبون بهم ، ويخشون أن يأتوهم بما يُدخل ولو تعديلاً طفيفًا على أسلوب حياتهم (أى على ثقافتهم) والتعديل قد يعنى التغيير – مصدر الخوف من المجهول ! وعندما انسحب الانجليز من مستعمراتهم القديمة ، كانوا مضطرين لأسباب اقتصادية محضة إلى الإبقاء على الوشائج التى كانت تربطهم

بأهلها، وهكذا أنشأوا الكومنولث commonwealth وهى كلمة أخرى للفظة republic أى الجمهورية (فلفظة res اللاتينية تقابل wealth وكلمة publica توازى common) ومن ثم فالمصطلح يعنى أن دول الكومنولث تشكل فيما بينها اتحاداً جمهورياً ! فهكذا أطلق أوليفر كرومويل تلك الصفة على حكومته فى القرن السابع عشر ، عندما تحولت انجلترا إلى جمهورية للمرة الأولى والأخيرة ! ولكن الواقع ينفى ذلك ، إذ كان الانجليز فى أعماقهم يخشون هذا الامتزاج بأقوام قد تؤدى معاشرتهم إلى التغيير ! إن تقلب الجو ، وتقلب البحر الذى لابد لسكان الجزيرة أن يركبوه ، والخوف من التقلب بصفة عامة ، من العوامل التى أورثت الانجليزى ولعًا بالثبات يصل إلى حد الوله !

وقد وجدت نفسى فى تلك الأيام أعيش فى مجتمع يتغير بسرعة لم يشهدها عبر تاريخه الطويل ، ويحاول التوافق مع حقائق الدنيا الجديدة ، فلقد أدرك ذلك المجتمع أنه ينبغى ألا يُصدِّق دعوى التفوق العنصرى ، ويجب أن يقتنع بأن الامبراطورية القديمة قد زالت وانقضت، فكان التمزق بين الوجدان العميق وبين حقائق الدنيا التى يقول بها العقل ، والانجليزى يفخر بأنه « متعقل » وكلمة reason ومشتقاتها تشغل مكانًا لا تشغله كلمة أخرى فى اللغة الانجليزية ، وما تزال الصفة reasonable تمثل لى مشكلة فى الترجمة القانونية ، وأعترف أننى لا أعرف تحديداً ما يعنى تعبير « معقول » فى عبارة « قدر معقول من ... » فأنت تقرأ مثل هذا التعبير فى حكم المحكمة beyond a reasonable doubt « دون قدر معقول من الشك » وفى الحديث العابر "do be reasonable" 'أرجوك تعقل !' وشتان بين هذه الصفة وبين العقلانية rationality ! أقول إننى كنت أشهد التغيير ، وما زلت أحتفظ بصحيفة اشتريتها أيام إقامتى فى بيت الزنوج (أو بقصاصة منها) تحكى عن اعتزام إيان سميث (Ian Smith) إعلان استقلال روديسيا (الجنوبية) من جانب واحد - فيما كان يسمى [Unilateral Declaration of Independence] UDI لقد كان عصيان إيان سميث لحكومة الملكة بمثابة تغيير لا يمكن قبوله ، فبريطانيا 'تمنح' الاستقلال ، سواء أكان ذلك لأقلية بيضاء أم لأغلبية سوداء ، أما أن تعلن دولة استقلالها من طرف واحد عن بريطانيا ولو كانت الحكومة تتكون من الانجليز البيض فهذا ما لا يمكن قبوله ! ويكفى أن أذكر فى آخر هذا القسم التعبير الذى دخل مصطلح الانجليزية من أوسع أبوابها وهو 'رياح التغيير' (winds of change) الذى ورد فى خطبة هارولد ماكميلان فى جنوب إفريقيا !

كان المجتمع الانجليزى يتغير فى المدينة ، وكنت أعيش فى المدينة ، وكنت أذكر قول أستاذى مجدى وهبة : إذ أردت أن تعرف انجلترا فاذهب إلى الريف ! ولكننى كنت مرتبطًا بالمسرح وبالحياة الحافلة فى المدينة ، وأما الريف فكان يكفينى ما أراه فى حديقة الكلية والحديقة المجاورة لبيت الطلاب .

٤

كانت أقوال أساتذتى مجدى وهبة ورشاد رشدى ولويس عوض تشغل مكانًا ثابتًا فى ذهنى عن انجلترا فى فترات مختلفة وأماكن مختلفة – فمجدى وهبة خريج جامعة أوكسفورد ، ورشدى من جامعة ليدز ، ولويس عوض من كيمبريدج ، أما أنا فكنت أنتمى إلى الكلية التى تخرج فيها محمد مصطفى بدوى وشفيق مجلى ، وكانت رئيسة القسم تقول لى إنهم كانوا أفضل سفراء لمصر فى انجلترا ، وكنت أعيش فى لندن ، المدينة التى كان الدكتور صمويل جونسون يعتز بالحياة فيها ، وما يزال المنزل الذى كان يقيم فيه قائمًا فى عطفة من شارع ستراند (وهم يسمونه The Strand فقط) وعليه لافتة تحمل اسم الناقد الكبير ومؤلف أول معجم انجليزى نسجت حوله الأقاصيص فى القرن الثامن عشر ، وكان مجدى وهبة قد ملأ نفسى بحب هذا العملاق ، ولم يكن من الممكن أن أنساه وأنا أقرأ أسلوبه البديع ولغته الانجليزية الصافية ، مما أكسبنى دون قصد نزعة كلاسيكية ما لبثت أن رسخت وتعمقت ، وفى جوهرها يكمن ما ذكرته عن العقل والتعقل وهو ما يجب علىّ أن أوضحه بعض الشىء .

كانت روح القرن الثامن عشر التى نصفها بالكلاسيكية الجديدة ترتكز على الإيمان بأن الإنسان كائن لا يختلف تكوينًا ونفسًا من مكان إلى مكان ، ولا من زمان إلى زمان ، فنوازعه معروفة ومرصودة ، وقد أقام أصحاب الفلسفة الانجليزية الواقعية أى التى تستند إلى معطيات الواقع أسسًا لدراسة الإنسان انطلاقًا من الحقائق المادية ، واستخدموا المنهج التجريبى الذى نشأ فى القرن السابع عشر أساسًا لإرساء قواعد العلم الطبيعى ، فأقاموا بنيانًا من الأفكار المنطقية المستندة إلى الوقائع والتجارب ، فيما أصبح يسمى بالبراجماطية ، وقد استلزمت هذه المدرسة الفلسفية مبدأ 'الوسطية' فى كل شىء ، أى الابتعاد عن الشطط

واتباع الهوى الذى قد يضر بالآخرين ، وبرزت فى اللغة الانجليزية صفات أصبحت تعتبر محمودة مثل البديهة السليمة commonsense و level - headedness وعلى رأسها جميعًا كلمة الانصاف fairness أو even - handedness وكلها تحمد العدل والاعتدال moderation باعتبارهما من سمات « التعقل » . وكان الأجنبى الذى يستطيع استيعاب تلك الروح التقليدية يكتسب رضاء المجتمع الانجليزى ، ويفتح الانجليز له الأبواب مثلما يفعل الفرنسيون الذين يقبلون من يجيد لغتهم بل يعتبرونه واحدًا منهم (citoyen passé) ويكفى أن أختتم هذه الفقرة بالإشارة إلى إطلاق لفظ 'الطبيعة' على من يتجنس بالجنسية الانجليزية إذ يسمونه naturalized !

وقد ذكرت فى الفصل الأول أن الصفات الخلقية التى ينسبها بعض النقاد إلى تراث النزعة البيوريتانية تُعزى فى الحقيقة إلى الممارسات التجارية التى لا تنجح إلا بالصدق والأمانة ، وقد أضيف هنا أن صفات الوسطية والاعتدال والاتزان (balance) والإنصاف ربما ترجع أيضًا إلى الخبرات التجارية التى اكتسبها الانجليز على مر القرون ، فهذه جميعًا من صفات التاجر الانجليزى الناجح ، وقلَّ أن تجد بين الإنجليز من يُكتب له النجاح إذا لم يتصف (أو لم يحاول الالتزام) بهذه الصفات . أما الاستثناءات فهى نوع من الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها .

وقد اضطررت إلى هذا الاستطراد القصير لأننى أجد فيه تفسيرًا لاتجاه العقل الانجليزى إلى الوضوح فى التفكير والتعبير ، وتفسيرًا لميل الانجليز إلى الإقلال من الكلمات ، واعتبار الاقتصاد فى التعبير أسمى الفضائل وأعلى قمم البلاغة ، فما نظنه من قبيل "البرود" الانجليزى هو فى الحقيقة ضبط للنفس وضبط للّسان خشية أن ينحرف أو يشتط ، وأحيانًا مخافة أن يقول ما يجب كتمانه ، أو ما لا يجوز البوح به ، فإذا تكلم آخر الأمر وجدت أنه واضح الفكرة والعبارة ، لا يخرج عن « المسموح به» اجتماعيًا، أو يجنح إلى 'ما لا يقال' (أى العيب)!

وأنا أذكر ذلك كله أيضًا لأنه أوضح لى فى سنوات التكوين البعيدة مدى تأثير التراث الانجليزى فى جيل كامل من أساتذتنا ، وأنا أعتز بأننى تتلمذت على أيديهم ، وإن كانت مبادئ هذا المنهج العلمى الصادق تضرب بجذورها - كما تعلمت فى الكبر - فى تراثنا العربى، ولكننا ننساها أو نتناساها فى هذه الأيام ، ونطلق ألفاظًا عامة ظالمة على تراثنا كله ،

بل لا نفرق (أو لا نكاد نفرق) بين عصور ازدهار العلم العربى وعصور التخلف التى اتسمت بالنقل والمحاكاة دون تمحيص . ولكم كانت فرحتى حين اكتشفت أن الشاعر الذى أدرسه (وليم وردزورث) انجليزى الطابع بالمعنى الذى ذكرته ، وإن كنت هنا أستبق الأحداث لأن ذلك لم يحدث إلاّ فى مرحلة الدكتوراه فى مطلع السبعينيات . فلأعد الآن إلى ما دعانى لهذه التأملات العابرة – ألا وهو عودة « عبده » من العطلة ومعه كاثلين !

كانت المفاجأة مذهلة : كنا فى شهر أغسطس ١٩٦٦ ، وكان صيفًا حارًا بالمقاييس الانجليزية ، وكان سمير سرحان قد زارنى مرتين فى صيف ذلك العام، مرة وهو فى طريقه إلى مصر لحضور مؤتمر المبعوثين الذى تحدث فيه جمال عبد الناصر شخصيًا إلى ممثلى الطلبة ، وكان من أبرز أحداث ذلك الصيف ، ومرة أخرى وهو عائد إلى أمريكا ، ومكث معى فى الغرفة وتحادثنا عن أحوالنا باستفاضة ، وتنزهنا وقص علىّ ما يفعل ولكنه اعترض على التحاقى بالعمل المؤقت وطالبنى بالانتهاء من الرسالة بأسرع ما يمكن حتى نعود لتحقيق أحلامنا فى مصر ، وبعد رحيله كنت أشعر بحزن دفين لم يخفف منه سوى توقع فرحتى بوصول زوجتى، وكنت كل يوم أفعل شيئًا جديدًا استعدادًا لهذه الفرحة ، بل كان لا يكاد يشغلنى بعد رحيل سمير سرحان سوى إرسال الخطابات والبرقيات تلهفًا على وصول نهاد .

وذات صباح دافئ ، لا سحاب ولا مطر فيه ، خرجت قاصدًا النزهة ، ولكننى لم أكد أخرج من باب المصعد حتى وجدت « عبده » أمامى ومعه فتاة انجليزية سمينة ، ناصعة البياض، قصيرة الشعر ، عيناها زرقاوان ، باسمة الوجه ، فوقفت جامدًا لا أستطيع الكلام . وإذا بها تقول ضاحكة « لابد أنك محمد ! » وقلت نعم . تفضلا . وقالت بسرعة : « كنا .. أقصد .. » وأكملت لها العبارة التى يستخدمها الانجليز فكهين فى مثل هذه الظروف : 'كنتما فى المنطقة فقلتما ..'. "...you were in the neighbourhood and thought" فضحكت وقالت إنها « فكرة عبده ! » وقلت لها « لا بأس .. فلنخرج معًا إلى الحديقة [هايد بارك] فالجو رائع ! » وخرجنا .

كان عبده قد انقطع عن الاتصال بى فترة طويلة ، ولم أكن أتابع أخباره بعد أن ترجمت له ما جاء فى خطاب كاثلين الأخير ، وكانت حياتى حافلة بمشاغل الدراسة والعمل ، فلم أشغل نفسى كثيرًا بهذه المسألة ، ولذلك فضلت الصمت . وبعد أن توغلنا فى الحديقة ونحن

نعلق تعليقات مقتضبة أو مسهبة على الزهور ، جلسنا جميعًا على مقعد خشبى ، وبدأت كاثلين حديثًا طويلاً سجلت أهم نقاطه فيما بعد فى مفكرتى ، وسوف أوجزه هنا . قالت كاثلين :

« صارحنى عبده بأنه كانت له خطيبة فى مصر وأنها سوف تحضر هنا بعد أن تزوجها بالتوكيل ، وشرح لى موقف أهله من الموضوع ، وتفهمت الموقف تمامًا، وقررت أن الإنصاف يقتضى أن أتركه ، وإن كان ذلك يحز فى نفسى ، وقطعت على نفسى عهدًا بالاّ أراه بعد اليوم ، وبأن نزورك معًا قبل الافتراق ، فهو يعتبرك أخلص أصدقائه ، وسوف أرحل إلى الجنوب حيث أعمل مع والدى ، ولكننى لن أعطيكما العنوان أو التليفون ، حتى نغلق الكتاب تمامًا » .

وأدركت أن هناك أشياء لا أعرفها ، وكان حدسى يقول لى إن عبده قد كذب من جديد حين زعم أن له خطيبة وأنه تزوجها بالتوكيل ، ولكننى قلت فى نفسى « لعل أهله قد زوجوه فى غيبته فعلاً » ولذلك لم أعلق ، وسألتها إن كانت حصلت على الدكتوراه أم لا ، فقالت فى غير اكتراث « الدكتوراه ليست عاجلة وأستطيع إكمالها فيما بعد » واعترضتُ على ذلك فقالت بلهجة جادة « ربما لم أُخلق للبحث العلمى . الأفضل لى أن أعمل ! » وذكرت المشهد الأخير من مسرحية **الخال فانيا** لتشيكوف ، حيث يُعزّى فانيا نفسه بالعمل ، وتحلم سونيا بالسعادة فى العالم الآخر ، وتألمت . وكان أشد ما آلمنى هو نبرة الهدوء والثقة التى كانت تتحدث بها كاثلين عما تنتوى فعله ، ولم أكد أصدق أن هذه هى الفتاة التى كتبت تلك الخطابات الملتهبة . تُرى هل نقلت بعض الفقرات من روايات أخرى لم أقرأها ؟ وكنت أسترق النظر إلى وجه عبده أثناء حوارى مع الفتاة فأجده جامدًا لا يفصح عن أى انفعال ، ولم أشأ أن أحادثه خشية أن يقول ما لا يريد ، وبعد نحو ساعتين نهضنا وعدنا أدراجنا فاقترحت عليهما أن يتناولا الغداء معى ولكن كاثلين قالت إنها لابد أن تدرك القطار (وأنها تركت حقيبتها فى المخزن الخاص بالمحطة) مما زادنى دهشة ، فعرضت الذهاب معهما ، ولكنها قالت إنها تفضل أن تذهب وحدها ، تاركة « عبده » فى صحبتى ! وبدون دموع أو انفعال صافحتنا ودارت ومضت . وتسمرت فى مكانى ذاهلاً كأننى أشهد مشهدًا فى رواية خيالية !

٥

رحلت كاثلين ، وسرنا بخطوات ثقيلة نحو المطعم ، وبعد أن طلبنا الطعام وجدت أن تطلعى إلى معرفة ما حدث يكاد يذهب بشهيتى ، فقلت له بطريقتنا المصرية المباشرة : « ماذا حدث ؟ » وأجاب وهو يتطلع إلى النادلة وهى تحضر الأطباق : « سأحكى لك كل شىء فيما بعد ! » ولكننى ألححت ، وتصورت أن مشاعره الجياشة سوف تغلبه فيبكى أو أن اللحظة غير مناسبة ، فهو يصر على الصمت وقد خلا وجهه من أى تعبير . كان وجهًا مصريًا أسمر ، به قدر لا بأس به من الوسامة ، وقد زاده النحول جاذبية ، وكان بيده منديل ما يفتأ يمسح به عينيه قبل إحكام وضع النظارة الطبية . ورسم لى خيالى أنه يمسح الدموع لا حبات العرق ، فقررت إرجاء الحديث إلى وقت لاحق .

وعندما صعدنا إلى الغرفة قمت بإعداد الشاى ، وفضلت أن أتيح له مزية المبادأة ، لكن صمته طال فلجأت إلى الحيلة وقلت له « لماذا لا تستأجر غرفة كبيرة هنا تقيم فيها مع العروس ؟» وضحك فتفاءلت . ومن ثم بدأ يحكى فى إسهاب تفاصيل محاولة هروبه منها (أى كاثلين) وكيف عَثَرَتْ على مسكنه الجديد بعد يوم أو يومين ، وكيف قبلت فى الظاهر جميع الذرائع الواهية التى قدمها تبريرًا لمسلكه ، ثم أصبحت تقضى سحابة نهارها معه حتى أنسته العمل ولم يعد يذهب إلى الكلية ، وكانت - كما يقول - « لا تشبع من حبه » وترسل إليه خطابات تقول له إنه « شمس الفراعنة وسر الحياة » ، بل أتته من القسم المصرى بالمتحف البريطانى بمطبوعات عن اللغة المصرية القديمة وفك رموزها ، وبصورة كبيرة لحجر رشيد ، ثم قالت له إنها تريد أن تتعلم العربية حتى تستطيع التفاهم مع أهله ، وبعد نحو ثلاثة أسابيع قالت له إننا علماء وعشاق ، وإذا كان العلم لا وطن له ، فالعشق لا وطن له أيضًا ، وفى تلك الليلة « المشهودة » قالت له « أعرف أن لديك سرًا يمنعك من مبادلتى عاطفتى القوية » وأكدت له أنه مهما يكن من أمر هذا السر فهى على استعداد لمواجهته - « حتى لو كنت متزوجًا ! » . وقال عبده :

« داهمنى الخوف منها ، مثلما داهمنى الخوف على مستقبلى، ولمحت طوق النجاة ، وكنت كالغريق الذى يتعلق بقشة ، فكررتُ ما قالته « حتى لو كنتُ متزوجًا ؟ » فضحكت وقالت « أنت

متزوج ولا شك » ثم عانقتني وقبلّتني والدموع في عينيها قائلة : « هذا هو العذر الوحيد الذي يمنعك من الانطلاق ، ولطالما أحسست به في نظراتك الزائغة وترددك ، فلا تَخْشَ شيئًا وصارحني » . وقدمت لعبده كوبًا آخر من الشاي فرشفه على مهل ، وبدا عليه الانفعال لأول مرة ثم أردف يقول إنها أخبرته أنها كانت دائمًا تحس أنه لم يكن « خالصًا » لها ، وأنها كانت تغافل نفسها وتخدع عقلها أملاً في الاستيلاء عليه ، وكانت تتصور أن الأيام التي قضتها معه أخيرًا سوف تحقق غايتها ، ولكن ذلك كان وهمًا ، ومن ثم رحلت واتفقت معه على اللقاء بعد أسبوع .

وعاد 'عبده' بعد ذلك إلى الكلية ، وقابل الأستاذ المشرف ، واتفق معه على بعض الخطوات الخاصة بالبحث ، وقال إن المشرف أحس باضطرابه فطلب منه أن يمنح نفسه عطلة رسمية ، فالفصل الدراسي كان قد انتهى يوم الجمعة ٢٢ يوليو ومن حق كل طالب أن 'يعيش' ، وسأله 'عبده' ماذا عساه يفعل فقال له « اذهب إلى حي البحيرات في الشمال ، وتعلم الاستمتاع بالطبيعة » وطمأنه على الدكتوراه قائلاً إنه سوف يسمح له بكتابة الرسالة في أكتوبر ، فالنتائج التي حققها في المختبر تكفي ، وضحك قائلاً « نحن لا نتوقع منك بحثًا يأتيك بجائزة نوبل » !

وقال عبده إن كاثلين لم تبتعد عنه أسبوعًا كما قالت ، بل زارته في اليوم التالي وقالت له إنها عرفت أن المسلم من حقه الزواج بأكثر من زوجة ، وأنه ربما كان يفكر في اتخاذها زوجة ثانية ، ولكنها لن تقبل ذلك ، ولن تقبل أن تكون في المرتبة الثانية (وقد كتب عبده التعبير الذي استعملته حتى يريني إياه وهو second fiddle قائلاً إنه يظن أنها استخدمت فعل to play أيضًا) ومن ثم فقد قررت أن تتركه لزوجته ، وطلبت منه تفاصيل الزواج ، فقال لها إنه تزوجها بالتوكيل وإنها سوف تحضر إليه يوم السبت ٢٧ أغسطس ، وقال إنه لا يدري ما الذي جعله يحدد هذا الموعد ، إذ كان حائرًا مضطربًا لأنه يخشى أن تكتشف الحقيقة ولذلك فكر في أن يسافر إلى مصر وأن يتزوج فعلاً ولكن الأحداث لم تمهله ، إذ قالت له برنة صدق لم يعهدها في فتاة من قبل « فلنسافر معًا إلى حي البحيرة أسبوعًا أو أسبوعين ، ثم أتركك قبل موعد وصول زوجتك بفترة 'معقولة' - على الأقل حتى تعتاد أن تنسى اسمي ولا تخاطبها بما كنت تناديني به (وهو كاثي) » ووافق عبده لأنه كان كما يقول يشعر بأنه قد وقع في فخ لا

فكاك منه ، وكان الحل الذى اقترحته 'معقولا' ! وفعلاً سافرا أسبوعًا وقضيا ساعات جميلة كانت فيها مثال العاشقة المخلصة ، تسهر على راحته وتفعل كل ما يتمناه حتى دون أن يطلبه، حتى تساءل ذات يوم بينه وبين نفسه لماذا لا يتزوجها ؟ وكان يعجب منها حين تصحو مبكرًا وتكتب ما يشبه الخطابات الموجهة إليه ، وكان كثيرًا ما يلمح الدموع فى عينيها خلسة ، وإذا سألها قالت له 'لا .. لا شىء' .



ماريون - زميلتنا فى العمل فى كوينز هاوس

ومـا إن عـادا من الرحلة ، وكـان ذلك يوم الجمعة ١٢ أغسطس حتى اتفقا على زيارتى فى اليوم التالى ، وكانت قد سمعت كثيرًا عن محمد الذى يعتبره 'عبده' أخًا أكبر يشتهر 'بتعقله واتزانه' ، واتخذت جميع إجراءات رحيلها إلى منزل والدها ، وجاءا إلىّ وكان ما قصصته عند مقابلتهما . وقلت لعبده إنها كانت تبذل محاولة أخـيـرة لإقناعـه ، ولكنه قـال إنهـا ذات إرادة حديدية ، « وكان يمكن أن أتزوجها لولا شخصيتها المسيطرة » وانطلق يرسم فى خياله ما كان يمكن أن يحدث له لو تزوجها وعاد بها إلى القاهرة ، وقلت برنة الملاحظة العابرة إنها كانت ستكتشف كذبه عليها ، فقال دون مبالاة : « لقد حدثتنى كاثلين عن رواية قرأتها للكاتبة ميوريل سبارك Muriel Spark اسمها **بوابة مندلبوم** تصور فيها اليهود والعرب فى القدس ، وتصور فيها إحدى الشخصيات [واسمه على] على أنه كذاب بالطبع والسجية، وقالت لى أكثر من مرة إنها تعرف أن العرب كذابون ! » .

وفجعنى ما أسمع ! « هل وطّنت نفسها إذن على أنك كذاب بطبعك وسجيتك لأنك عربى ؟ ولماذا لم تناقشها فى ذلك ؟ » وهز كتفيه غير مكترث بحماسى ثم غمغم : « كثيرًا ما كنت أكذب عليها فى أشياء صغيرة فتضحك ، وكانت دائمًا تقول « لا يهمنى ما تكذب علىّ فيه ما دام حبك صادقًا ، ودلائل صدقه واضحة ساطعة ! » إنها فتاة عجيبة يا عم عنانى ! ولو كان الانجليز جميعًا مثلها لخرب العالم ! » ونظر فى الساعة ثم نهض ، فنهضت وأنا أدرك أنه يريد الخروج 'لشم الهواء' ، وخرجنا وقال لى ونحن فى الطريق إلى محطة القطار « مرت بى

لحظات قلق حين كنا نزور الكنائس فأصلى بالعربية ، فأنا أصلّى كثيراً ، وكنت أخشى أن تسألنى إذا كان يجوز للمسلم أن يصلى فى الكنيسة ، ولكنها لم تسأل هذا السؤال أبداً ! » .

وعندما وصلنا إلى المحطة قلت له : « هل ستحاول الاتصال بها من جديد ؟ » فرد ضاحكًا « وأخون زوجتى معها ؟ » فقلت بنفس النبرة الضاحكة « لابد أن أراها حين تصل يوم ٢٧ منه ! » فقال « ضرورى .. أمال ! » وهمست وأنا أصافحه حين وصل القطار « ولا تنس أن تختار لها اسما طريفًا ! » ويبدو أن ضجيج القطار طمس صوتى ، فقال وهو يجرى للّحاق به « ماذا ؟ » فصحتُ « ولا يهمك .. مع السلامة ! » ومضى القطار بعبده ، وعدت إلى الغرفة ، وكانت الساعة قد جاوزت الخامسة ، فوجدت أنه قد ترك خطابات كاثلين وبعض أوراقها ، ولا أدرى إن كانت قد تركتها هى معه عامدة أم سهواً ، فوضعتها على رف عال بجوار الكتب، وهبطت إلى غرفة التليفزيون لأتابع أنباء الثورة الثقافية فى الصين .



يوم الخميس ٨ سبتمبر ١٩٦٦ « موعد وصول حبيبتى » كان ذلك ما كتبته فى المفكرة ، وذهبت مبكرًا إلى المطار، كان الجو صحواً ، وكان فى السماء سحابات لا تقوى على حجب ضوء الشمس ، وذهبت إلى مكان انتظار القادمين ، وظللت واقفًا لا أجرؤ على تحويل عينىّ عن الباب الذى يخرجون منه ، وفى نحو الواحدة ظهراً رأيت نهادتهبط السلم وهى ترتدى نظارة شمس وتحمل العود فى يدها ، وكنت قد أوصيتها بإحضاره ، وكان حمله مُرْبكًا ولم تكن قد اعتادته ، فتَعَثَّرَتْ وكُسر كعب الحذاء ، وقلت للحارس 'هذه زوجتى !' فابتسم وقال 'تفضل' فأهرعت إليها لحمل العود ، ولم نلبث أن أخذنا الحقيبة وخرجنا إلى الأتوبيس .

وبعد الدردشة العابرة قالت لى : 'أين العمل ؟ ألم تعدنى بأننى سأعمل ؟' وضحكت وقلت لها 'ضرورى إن شاء الله' وكان حوارنا يتحول إلى الانجليزية بسهولة ويسر ، وما لبثنا أن وصلنا إلى الغرفة التى كنت قد اهتممت اهتماماً بالغًا بتنميقها وكانت نهاد رغم سهر الليلة السابقة متعطشة لرؤية المنطقة والحديقة وكل ما سمعت عنه فى خطاباتى ، فخرجنا للغداء ثم

للنزهة ، وصحبتها إلى مكان سوق السبت الذى يبيع المزارعون فيه منتجاتهم بأسعار زهيدة ، (قفص الطماطم بخمسة شلنات وكيلو الموز بشلن إلخ) ثم سرنا فى شارع Bayswater المجاور للهايد بارك ، ومررنا بدار سينما ABC (وهى شركة لدور العرض السينمائية) فعرضت عليها مشاهدة فيلم فكاهى رأيته من قبل وضحكت فيه « حتى قضقضت ضلوع صدرى » كما يقول صلاح عبد الصبور ، فوافقت وقطعنا التذاكر ودخلنا ، وكانت الساعة قد قاربت السابعة ، ولم يكد الفيلم يبدأ والظلام يسود ، حتى خلدت نهاد إلى النوم العميق ! وبعد انتهاء الفيلم عُدنا لتستأنف النوم الذى لم تكن ذاقته فى الليلة السابقة !

وخرجنا فى الصباح إلى وسط لندن ، وقضينا اليوم كله ننهل من مباهج الطبيعة فى الحديقة المجاورة ، ثم سألتنى جادةً : « أين الأحياء الفقيرة (slums) التى حدثتنى عنها فى خطاباتك ؟ » فذهبت بها إلى منطقة المساكن القديمة فى حى بادنجتون ، وهى المساكن التى تجاور محطة القطار ومخازن السكة الحديدية ، وتصل فى نهايتها إلى طريق إدجوير Edgware Road ، ويطلقون عليها اسم المنطقة الغاربة twilight area (حرفيا المنطقة الغسقية) ولكنها لم تجد فيها 'الفقر' كما نعرفه فى مصر ، وقالت لى إنها مساكن لا بأس بها ، وقرأنا إعلانًا معلقًا على أحدها يعرض المنزل للبيع ويصف فيه صاحب المنزل منزله بأنه قد تم تحديثه أى أصبح modernized ولم أكن أعرف حينذاك أن التحديث يعنى إلحاق المرحاض بالمبنى نفسه ، فالمنازل القديمة لا مرحاض بها ، بل يوجد المرحاض خارج المنزل فى الحديقة الخلفية ، ومررنا على بائع السمك المقلى والبطاطس المقلية وهى الوجبة الشعبية التى تقابل الفول والطعمية عندنا ، وقررنا محاكاة الانجليز فى تناول هذه الوجبة فطلبنا طبقين صغيرين two small portions سعر الواحد شلنان فلفّهما البائع فى أوراق خاصة مثل ورق الصحف (لكن دون حبر الطباعة) وعدنا لتناول الغداء فى الغرفة .

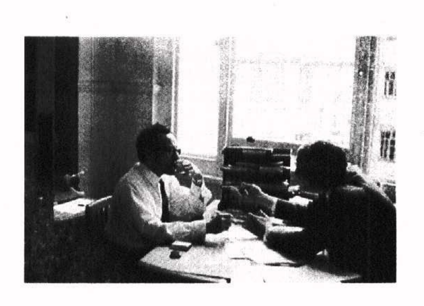
وذهبنا يوم السبت إلى السوق الشعبية فاشترينا الفاكهة والخضر وحملناها إلى الغرفة ، وعشنا أيامًا طويلة جميلة على ثمار الصيف الانجليزى ، ورحبت نهاد بمسرات المشى مسافات طويلة فى الحديقة المجاورة (الهايد بارك) أو فى الشوارع الفسيحة ، ونحن نتبادل الأخبار ونخطط للمستقبل ، وكنت أحس صادقًا أن غربتى قد انتهت ، وأن الله قد منّ علىّ بحبيبة ورفيقة رائعة فى نهاد ، وكان سيرنا معًا مضرب الأمثال فى بيت الطلاب ، وعندما حل الخريف قررنا أن نفكر جديًا فى مسألة التحاقها بدراسة الماجستير ، وكانت المصاريف

الدراسية خمسين جنيهًا فى العام ، ولكن موعد التقديم كان قد فات ، فقررت نهاد أن تلتحق بمعهد لدراسة الآداب واسمه London Literary Institute مصاريفه ثلاثة جنيهات فى الفصل الدراسى وأنشأه مجلس حىّ هولبورن فى شارع جانبى هو (Stukely Street) بالقرب من مسرح كڤنت جاردن ، وقريبًا من مكان عملى ، وهو معهد أهلى لا يمنح شهادات رسمية ، ولكنه يمنح الثقافة لمن يطلبها ويتولى التدريس فيه أساتذة جامعيون ، ولا يضع أى قيود من أى نوع على التسجيل للدراسة ، وعندما ينتهى الطالب (مهما يكن عمره) من دراسة المادة التى يدرسها يُمنح شهادة بأنه انتهى من دراستها وتفاصيل تلك الدراسة إذا كان يريد ذلك .

وأنا أذكر الآن تلك الأيام بشوق وحنين ، ولربما أضفى خيالى عليها جمالاً زاد من جمالها الفعلى ، فقد كان كل شىء جديدًا ، وأصبحت رحلة المسرح رحلة ذات مذاق فريد ، فكثيرًا ما كنا نقرأ المسرحية قبل مشاهدتها ثم نناقشها بعد المشاهدة ، واكتسبنا فى رحلات المسرح عادة الدقة المتناهية فى احترام المواعيد ، فمن يتأخر عن موعد رفع الستار مهما كانت منزلته ، ولو كان ذلك دقائق معدودة ، لا يُسمح له بالدخول ، وما تزال نهاد تستمسك بهذه العادة فى مصر رغم ما تعرفه عن عدم احترام المواعيد لدينا ، وقاعة المسرح مثل قاعة المعبد مقدسة ، لا يأكل فيها أحد ولا يدخن (طبعًا) ولا يتكلم ، ولا يوجد ما يسمى بالمقاعد الخالية ، فالمسرح 'كامل العدد' دائمًا ، وعند الدخول نشترى البرنامج المطبوع بشلنين ، ونرجع إليه فى صمت إن توافر الضوء الكافى ، وفى الاستراحة يخرج من يريد إما إلى الكافتيريا لشرب المرطبات (الشاى أساسًا) أو للتدخين ، أو للحديث فى صالة الاستقبال الرحيبة .

وازداد الخريف جمالاً عندما بدأت الرياح تعصف بالأوراق الذابلة ، وكنا قد اعتدنا أن نلتقى أنا ونهاد فى فترة الغداء إما لديها فى كافتيريا المعهد أو فى مطعم من سلسلة مطاعم الليونز Lyon's Tea Shops (وأعتقد أنها اختفت الآن) وكان يقدم السلاطة بأربعة شلنات ونصف ، وللطاعم أن يختار بنفسه ما يريد من الأطباق ، فكان أول 'بوفيه مفتوح' أراه فى حياتى ! لكن ألذ مذاق سأظل أذكره ما عشت هو مذاق ساندويتش الجبن الأبيض بالطماطم الذى أتت لى به نهاد ظهر ذات يوم من أكتوبر ، وكان صحوًا مشرقًا ، وكان من نوع الخبز الفينو الطويل ، الذى يصفونه فى انجلترا بأنه 'خبز فرنسى' ، إذ أضافت إليه نهاد قطعًا من

الزيتون الأسود ، فكنت أقضمه قضمًا بشهية لم أعهدها من قبل ، ولا أظن أننى سأعرفها ما حييت .



إلى اليمين: الأصلع ريمون مكلف ود. سامى أبو طالب
أصدقاء العمل فى كوينز هاوس

وسرعان ما تعرفت نهاد على الطلاب العرب من نزلاء بيت الطلاب المذكور ، وصرنا نتسامر معهم ومعهن أحيانًا فى المساء ، وفى نوفمبر حلَّتْ طالبة سودانية ظريفة اسمها فهيمة ، فكانت تحدثنا عن السودان حديثًا يختلف عما كنت أسمعه من أصدقائى السودانيين الآخرين ، مثل بشير إبراهيم بشير (أستاذ التاريخ الآن) وفاروق اليمانى (المتخصص فى المكتبات) والدكتور حسن شريف (الطبيب النابه) وكنا نستمع إليها فى شغف ، وذات يوم انضم إلى الحلقة ثلاثة من أبناء المغرب ، هم فتحية وابنة أختها غيتة ، وكان لغيتة أخ يدعى محمد ، وسرعان ما تحولت دفة الحديث إلى الأطعمة الشرقية ، فذكرت للمغاربة البامية المصرية (okra / lady's fingers) فأنكروا معرفتهم بها ، وشرحت لهم فهيمة أسلوب 'عمل الويكة'، والملوخية البُرَانى ، فقالوا إنهم يعرفون الملوخية لكنهم لا يعرفون البامية . وهنا تطوعت نهاد بأن تعد لهم وجبة بامية مصرية (مع الليمون طبعًا والفلفل الأخضر) واتفقنا على ذلك فى عطلة نهاية الأسبوع . وما إن فتحت نهاد غطاء حلة البامية المطبوخة باللحم الضانى حتى صاح الجميع « الله ؟! ملوخية !! » واتضح أن ذلك هو اسمها فى المغرب . ولن أنسى الحرج الذى أصاب فهيمة حين سألتها فتحية المغربية « لماذا لا تغيّرين اللباس السودانى ؟ » وكان المقصود هو 'التوب' ، ولكن الكلمة العربية الصحيحة أصبحت تعنى للمصرين والسودانيين شيئًا آخر .

وقررت إدارة البعثات زيادة مرتبى سبعة جنيهات (علاوة زواج) ولكن ذلك لم يكن كافيًا فكان علىّ أن أقضى المزيد من الوقت فى العمل ، حتى كاد العمل فى الرسالة أن يتوقف ،

ولكننى كنت أواصل قراءاتى المتنوعة مع نهاد ، وكان لديها من الجلد والصبر ما أعجب له ، وذكرت ذلك ذات يوم للمشرف فقال لى « لا تقلق .. النساء بطبيعتهن صبورات ! ألا ترى الدجاجة وهى ترقد على البيض ؟ » وكنا نتبادل الكتب فتنتهى هى من الكتاب فى يوم أو يومين، ثم لا أنتهى أنا منه فى أسبوع كامل ! وبدأنا رصد التعبيرات الاصطلاحية التى نسمعها فى حياتنا اليومية أو فى الراديو أو نقرؤها فى الصحف ، وخصصنا لذلك كشكولاً ضخمًا امتلأ حتى ضاق بما فيه ، ولم يكن برد الخريف الخفيف يمنعنا من التريض ، وكانت اهتماماتنا المشتركة تزداد عمقًا واتساعًا كل يوم ، وأعتقد أن العالم الجديد الذى كنا نعيش فيه بعيدًا عن الأهل والأصدقاء القدامى ساعد على هذا التعميق ، وتدريجيًا بدأت نهاد تتعرف على زملائى فى العمل ، وكنا نتغلب على أى خلافات بالتفاهم الباسم ، إذ حاولت أنا أن أحاكى الانجليز فى نبذ الانفعال ، كما كانت تلجأ هى إلى استخدام اللغة الانجليزية فى أى خلاف مما كان يكسر من حدة الانفعال لديها ، ويضفى منطقًا هادئًا على كل شىء .

وما إن علم الإخوان العرب فى الإذاعة بأن لدىّ آلة العود الشرقية ، حتى قرروا قضاء سهرة موسيقية فى منزل أحدهم ، فزارنى أكرم صالح الفلسطينى واصطحبنى بسيارته إلى ذلك المنزل ، وبمجرد أن بدأت العزف ، وكان اللحن الذى طلبوه هو « ودّع هواك وانساه وانسانى / عمر اللى فات ما حيرجع تانى » لمحمد عبد المطلب (تلحين محمود الشريف) حتى وجدت الدموع تسيل من عيونهم ، فكان معظمهم يغالب النهنهات ، خصوصا 'زغلول' وهو مصرى فُرضت عليه حياةُ الغربة فرضًا ، فكان مقام الراست الشرقى يهز أعماقه ، والإحساس باستحالة 'عودة الزمن' يثير مكامنه ، وكان الموجودون خليطًا من جميع البلدان العربية ، وكلهم يبكى جرحه حتى حل الهزيع الثانى فانفض السامر ، وأدركت أن العربى يحمل الوطن فى قلبه إلى الأبد ، وعندما عدت إلى الغرفة كانت نهاد قد أوت إلى الرقاد ، فجلست وحدى أفكر فى شتات اللغة العربية التى كانت تتناثر حولى ، وكل كلمة ذات جذور تضرب فى أعماق الوجدان وأعماق التاريخ .

٧

وفى ديسمبر فوجئت بصوت لا أعرفه يحادثنى فى التليفون . قال إنه مصرى انتهى من دراسة الطب وكان يقضى سنة الامتياز ، لكنه كان طموحًا ويريد أن يصبح جراحًا شهيرًا ، ومن ثم استخرج لنفسه 'جواز سفر طالب' لأنه إذا أكمل عام الامتياز وتخرج فلابد أن يُعين فى الأقاليم (أو فى القرى والدساكر كما يسميها) واشترى لنفسه تذكرة طائرة ، وأتى بتأشيرة خروج سياحية ذاق الأمرين فى استخراجها ، إلى لندن . وأشار عليه أحد معارفه القدامى ممن سبقوه إلى لندن بأن يتصل 'بعم عنانى' حتى يترجم له ما يريد . وعندما قابلته وجدت شابًا أسمر لوحته الشمس ، يتميز بخفة الظل والألمعية ، ولا يتحدث إلا فى الطب ، وأطلعنى على أوراقه الرسمية ، وقال لى إنه يريد أن يتقدم للعمل فى مستشفى مارلبون St. Mary Marylebone القريبة من منزل الطلاب ، لكنه لا يريد أن يبدأ من الصفر ، فمن كان طموحًا مثله لابد أن يبدأ من القمة ، وأفهمته أن ذلك لا يصلح مع الانجليز ، أو مع الأوربيين ، وقصصت عليه قصة ناجى الحبشى عازف الڤيولنسللو (الشيلّلو) المشهور ، فعندما حصل على بعثة وذهب إلى إيطاليا للدراسة مع أشهر عازف كونشرتو (concertist) فى أواخر الخمسينيات قدم نفسه على أنه عازف كونشرتو مصرى ، وكان رد الأستاذ الإيطالى هو أنه ما دام كذلك فعليه أن يعود إلى مصر ، وقال له : « العازفون يأتون إلىّ حتى يصبحوا عازفى كونشرتو ! وما دمت قد أصبحت كذلك فعليك أن تعود إلى بلادك » وبعد تدخل رجال البعثات فى روما قَبِله الأستاذ ولكنه لقنه درسًا فى التواضع إذ فرض عليه ألا يعزف شيئًا سوى السلالم الموسيقية وتمارين المبتدئين ثمانية أشهر كاملة ! ولكن سمير سيدهم (وكان ذلك اسم الشاب المصرى) كان مُصرًا على المحاولة ، فاقترحت حلاً وسطًا يتمثل فى أن يقدم 'مشروع بحث' فى عملية الغضروف التى يحتاجها الرياضيون فى مصر على وجه الخصوص دون أن يلجأ إلى الكذب فى شىء ، فإذا وافق مجلس أمناء المستشفى Board of Governors على المشروع عينوه باحثًا ، فإذا نجح استطاع دخول عالم الجراحة من الباب الصحيح . ووافق سمير وكتبنا المشروع وقدمه واختفى أسبوعين أو ثلاثة ، ثم جاءنى صوته على التليفون مبتهجًا جذلاً ، إذ وافق مجلس الأمناء ، وعين له اثنين من الأطباء الانجليز



(physicians) يعملان تحت توجيهاته ، بحيث يبدأ الفريق عمله على الفور اعتباراً من أول يناير ١٩٦٧ !

ولن يدهش القارئ الذى يؤمن بذكاء المصريين إذا علم أنه لم ينقض عامان حتى نجح البحث الذى قام به فريق المستر سيدهم (وكانوا ينطقون اسمه سيدَمْ) وتم تعيينه أستاذاً مساعداً بالمستشفى Senior Registrar وفتحت أمامه أبواب الترقى إلى درجة الاستشارى consultant ومن بعدها الأستاذ professor ! وظللت أتابع أخبار المستر سيدَمْ شخصيًا وفى الصحف طوال إقامتى فى انجلترا ، والجرّاح فى انجلترا لا يقولون له دكتور بل مستر ، وكان يستشيرنى فى عروض الوظائف التى تنهال عليه ، وفهمت منه أن الجراحة فن وموهبة ، وهى لا تحتاج إلى العلم الكثير بل إلى مهارة الأصابع والبديهة الحاضرة ، وأن الجراح لابد أن يستعين بطبيب يساعده فى التشخيص ولا يضن عليه بالمشورة . وقصة نجاح سمير سيدهم مثل قصة نجاح رماح البرعى وهو من أهم الجراحين فى مستشفى وست ميدلسيكس West) (Middlesex ولكن القصة ستأتى فى مكانها .

كاد الخريف ينتهى وحلت بوادر الشتاء ، وفى يوم ١٤يناير ١٩٦٧ وصل خالى الدكتور مصطفى كمال بدر الدين مع زوجته اعتدال ، وبلغتنا أنباء رفع المصاريف الدراسية فى الجامعات الانجليزية من ٥٠ إلى ٢٥٠ جنيهًا فى العام !

الفصـل الرابع

النكســـة



كانت أغانى أم كلثوم الجديدة بمثابة دقات الساعة التى نحصى عليها السنوات ، وفى يناير ١٩٦٧ ، ونحن ما نزال نرشف من جمال ألحان عبد الوهاب فى أغنيته الأخيرة لأم كلثوم ('أمل حياتى') طلع علينا بليغ حمدى بتحفة لا مثيل لها وهى 'فات الميعاد' . وشُغلنا فى الغربة بالطرب الحزين ، وبدأ العرب من حولى يرددون 'ياما كنت أتمنى أقابلك بابتسامة' و'عايزنا نرجع زى زمان / قل للزمان ارجع يا زمان !' وذات صباح بارد كنت فى طريقى إلى العمل حين لمحت حشداً من العرب أمام مبنى الإذاعة القريب ، فدفعنى الفضول إلى التساؤل عما حدث – فلم أجد من الواقفين إلا إجابات مقتضبة مفادها أن أحد الزملاء واسمه 'قيس' قد توفى ، وأنهم سيتجهون للمشاركة فى جنازته ، فليس له أهل ولا أصحاب سواهم .

ومن كان قيس ؟

كان قيس الفلسطينى مذيعًا نابهًا 'وقع' فى حب فتاة انجليزية وتزوجها ، وبدا للجميع أنه يعيش فى سعادة غامرة ، ولكن الفتاة لم تلبث أن قلبت له ظهر المجن ، ويبدو أنها كانت على علاقة مع شخص آخر فطلبت منه الطلاق فرفض ، ولم يكن القانون الانجليزى يسمح بالطلاق آنذاك إلا فى حالة من ثلاث حالات هى ثبوت الخيانة الزوجية (adultery) أو الهجر (desertion) (لمدة عامين) أو القسوة النفسية (mental cruelty) وكانت أيسر هذه الحالات عمليًا هى الحالة الأولى إذ يذهب أحد الزوجين إلى فندق مع شخص آخر (co-respondent) ويسجلان اسميهما فى دفتر النزلاء ، مما يعتبر دليلاً على وقوع الخيانة ، وجريمة الزنا فى ذاتها لا عقاب عليها ، ولكن توابعها المالية باهظة ، فالطلاق معناه اقتسام كل أملاك الزوج من عقارات ومنقولات وأموال سائلة بين المُطَلَّقَيْن ، إلى جانب تحمل مصاريف التقاضى وهى تبلغ آلافًا مؤلفة . وقد تغير ذلك القانون عام ١٩٦٩ فأصبح يسمح بالطلاق أو قانونا إلغاء الزواج (decree nisi) فى حالة انهياره دون أمل فى الإصلاح (irreparable breakdown of marriage) ولكن القانون القديم كان ما يزال ساريًا آنذاك ، وامرأة قيس تريد التحرر ، وهو يعارض ، وذات صباح دَهَمَتْهُ بسيارتها فَأَرْدَتْهُ قتيلاً .

وقع الحادث أمام منزلهما ، تحت سمع الجيران وبصرهم ، ولم يكن هناك أدنى شك فى أن القتل متعمد، وكانت جلسة التحقيق الأولى (the coroner's inquest) قد سجلت ذلك ، وأصبحت الزوجة « مشتبهًا فيها » وإن لم توجه إليها التهمة فأفرجت الشرطة عنها بكفالة (on bail) . ولم تمض أيام حتى سمعنا من يقول إنها أتت بشهود يقطعون بأن فرامل السيارة كانت قد تعطلت عن العمل ، وأن توصيف الجريمة تحول من القتل العمد (murder) إلى القتل الخطأ manslaughter ورغم توجيه التهمة رسميًا إلى الزوجة ، فإن بعض الجيران قد عدلوا عن أقوالهم ، وتناقضت الأدلة ، ولم تلبث أن ضاعت التفاصيل فى أروقة المحاكم ، ولم يكن لقيس من يرثه أو يطالب بحقوقه ولم يكن له من يستطيع توكيل محام للمطالبة بحقوقه أو إثبات الوقائع التى حدثت ، فأصدرت المحكمة بعد فترة حكمًا مع وقف التنفيذ ، وعادت الزوجة إلى الحياة حرةً طليقة !

كان الوجوم الذى علا الوجوه فى ذلك الصباح ذا جذور عميقة ، وكان العرب فى لندن يشعرون بأنهم لا حول لهم ولا طول ، وأن دم قيس المهدر رمز لما أهدروه حين اختاروا الحياة

فى الغربة ، وكانت المناقشات تميل أحياناً إلى العنف ، وذات يوم كنت فى مكتب ترجمة الخطابات ، وكنت أقنعت سامى أبو طالب بأن يتقدم للوظيفة الشاغرة فتقدم وحصل عليها وكان يجلس مكان إفادات كيبرون ، فسألته عن رأيه فى مقتل قيس فقال بهدوء هزّنى هزّاً : « على من يقبل الحضارة المادية أن يتحمل النتائج ! » فَسَكَتُّ وعدت إلى العمل ، وعندما جاء عزت أبو هندية (وكان من عادته التأخر) وسأل عن سبب وجومنا وقلت له السبب قال بلهجته الدمياطية : « الانجليزيات يدفعن إلى الجنون ! وهذا سبب إحجامى عن الزواج ! » ثم التفت إلىّ وقال لى : « لقد أحسنت بالزواج من مصرية ، فسوف تعود معها إلى مصر .. إنها صمام الأمان » . ولم أفهم جميع دلالات قول سامى وقول عزت إلا بعد سنوات طويلة فى الغربة .



كان خالى الدكتور كمال (وهذا اسم شهرته) يزورنا كثيراً فى منزل الطلاب مع زوجته وكنا نتردد عليه كثيراً إذ كان يقيم قريبًا منا ، وكان يتابع أخبارنا ويخرج معنا فى رحلات نادى الطلاب العرب ، فزرنا بعض المدن الساحلية والشمالية ، وقمنا بنزهات كثيرة، ولكن رفع المصاريف الدراسية فى الجامعات جعل نهاد تصمم على الحصول على عمل، فدون الدخل الإضافى لن تتمكن من الالتحاق بالجامعة للدراسة (الماجستير مثلاً أو الدكتوراه) وذات يوم قادتنى خطاى عبر الحديقة إلى الجانب الآخر منها ، حيث رأيت سفارة السودان ، وكنت أعلم أنهم يحتاجون إلى موظف فى قسم العلاقات الثقافية الذى كان يرأسه حسن عباس (وقد علمت أخيراً أنه توفى) فدخلت وسلّمت ، وطرقت باب قسم العلاقات الثقافية فوجدت اثنتين احداها فى مقتبل العمر وسمراء ،



د. مصطفى كمال بدر الدين وزوجته اعتدال
ود. نهاد صليحة

والأخرى فى منتصف العمر وبيضاء تسمى مسز مويلان (وهى أيرلندية) وحادثت الكبيرة عن الوظيفة ، وقلت لها إن زوجتى تريد أن تتقدم لها وإنها مصرية . فسألتنى سؤالاً واحداً : هل تعرف الانجليزية ؟ وقلت لها بل تعرفها خيراً منى . فقالت لى أرسلها لى غداً صباحاً . وفى الصباح ذهبت مع نهاد ، وبعد دقائق معدودة قضتها فى مناقشة سريعة خرجت نهاد لتقول لى : اذهب أنت .. سأبدأ العمل اليوم !

كان الشتاء قد بدأ يطوى صفحته ولاحت بشائر الربيع ، وكنا نخرج كل صباح فتتجه نهاد إلى الحديقة لتذهب إلى العمل سيراً على الأقدام ، وأركب أنا المترو إلى العمل ، ومنه إلى الكلية ، وكنت قد وضعت الجدول الزمنى للانتهاء من الرسالة فى مايو ، حتى أستطيع أن أنتهى من إجراءات المناقشة قبل نهاية العام الدراسى . ولكن مايو أتى بما لم يكن فى الحسبان ، إذ وردت الأنباء بأن العلاقات قد توترت بين إسرائيل وسوريا ، وأن إسرائيل تحشد قواتها على حدود سوريا تمهيداً لغزوها ، أو على الأقل لاحتلال هضبة الجولان التى كان الفلسطينيون يستخدمونها فى قصف المستوطنات الإسرائيلية . كنا حتى ذلك الحين نتابع أنباء الوطن دون حماس كبير ، فلكل منا مهمة عليه الانتهاء منها ، ولا يستطيع طالب البعثة أن يشغل نفسه بالسياسة كثيراً ، ولكننا لم نستطع أن نتجاهل أنباء التهديد بالغزو أو الحرب، وكانت الإذاعة والصحف المحلية مشغولة بنقل أنباء حرب ڤيتنام ، وتورط أمريكا فى تلك الحرب يزداد ، والفظائع تهز ضمائر الكُتّاب والمعلقين السياسيين ، خصوصاً استخدام النابالم (napalm) وقتل المدنيين والعُزّل ، وأحاديث الرئيس الأمريكى لندون جونسون مفزعة ، والأهوال مخيفة مرعبة ، والانجليز ما يزالون يذكرون أهوال الحرب العالمية الثانية ويعارضون فى أعماقهم ذلك التورط الأمريكى الذى أصبح يتخذ صورة البطش السافر .

ولذلك فعندما تجمعت سحب التوتر والحرب فى سماء الشرق الأوسط وجد فيها الصحفيون فرصة لتحويل الأنظار عن ڤيتنام ، ووجد فيها رجال الإعلام اليهود بصفة خاصة فرصة لشغل الرأى العام بقضية أخرى أقرب إلى اهتمامات الانجليز المباشرة ، خصوصاً لأن الكثيرين من كبار السن فى بريطانيا كانوا قد شاركوا فى الحروب الاستعمارية القديمة ، أو هم يذكرونها بوضوح ، وكانت منطقة الشرق الأوسط تمثل للكثيرين 'مسارح شباب' ، فالبعض حارب فى الحرب العالمية الأولى ، والبعض فى الثانية ، وكانت العراق وبيداء الشام

وفلسطين والصحراء الغربية المصرية مناطق ذات ذكريات حية فى نفوسهم ، وكنت ما أزال أذكر المستر بيڤن وهو شيخ فى أرذل العمر ، يعيش فى منزل ضخم ذى حديقة فسيحة ، وكان سامى أبو طالب قد أخذنى لزيارته ذات يوم لأنه كان يقيم فى المنزل قبل الانتقال إلى فنزبرى بارك ، وكان أطرف ما حدثنى به سامى عنه هو أنه كان يعتمد تمامًا على عجوز ترافقه ليل نهار حتى تصور سامى أنها زوجته ، وعندما ذكر سامى ذلك له هال المستر بيڤن ما يسمع ، وقال له ما معناه 'حاشا لله أن تكون زوجتى إنها ترعانى فحسب !' وكنت حين زرته مع سامى قد أيقظت حواسى كلها لالتهام ألفاظ ذلك الهرم ، وكان يتحدث مثل الشخصيات المسرحية التى يصورها الكتاب (وكان قد ذكرنى بشخصية سبونر فى مسرحية 'العزلة' لهارولد بنز) فهو يتكلم فى عبارات متوالية مثل طلقات المدفع ثم يردفها بسؤال إلى سامعه ، دون أن يتوقع فى الواقع إجابة أو تجاوبًا ، وانطلق فى ذلك اليوم يتحدث عن ذكرياته فى العراق إبان الحرب العالمية الأولى ، فأسهب وأطال ، وعندما أتت المرأة بالشاى ونحن نستمتع بدفء ذلك النهار ، لاحظت أن بيڤن قد شردت به الذكريات فقالت له مؤنِّبة « يكفى ذلك يا كريس ! تعلم أن ذلك مضر لك ! » ولم أفهم ما تعنى إلا بعد أن شرحت لنا العجوز أنه كان ينسى نفسه حين يسترسل فى ذكرياته ويتوقف عند حادثة أسره فى شمال العراق ، ثم يعانى من الكوابيس التى تأتيه ليلاً فيصدر أصواتًا مزعجة ويوقظها بصراخه وعويله !

تذكرت تلك الحادثة بوضوح ، ثم ذكرت أن مشرف النظافة فى بيت الطلاب نفسه كان دائمًا يقول لى إنه حارب فى مصر ، وكان يستوقفنى بعد عودتى أو إذا صادفنى واقفًا فى الردهة ليحدثنى عن قناة السويس ، وكذلك كان أحد البوابين ، وكان فارعًا ذهب شعر رأسه ويلبس نظارة طبية سميكة – وكان منظره يوحى بالأستاذية والاحترام ، وكان كثيرًا ما يسرّ إلى بأخبار الطلاب ، ويهوى الغمز واللمز ، ولم أكن فى البداية أفهم كل كلامه ، ثم علمت منه فيما بعد أنه كان يعمل فى سلاح التموين بالجيش البريطانى فى فلسطين ، وكان يمارس هواية تقديم الخدمات الغرامية للضباط (ويبدو أنه احترفها فيما بعد) إذ كان يتحدث بخبرة العارف المحيط ببواطن الأمور عن 'الفتيات اليهوديات' ومزاياهن . ويبدو أنه كان حزينًا عندما اضطر إلى الرحيل بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ونشوب الحرب بين العرب وإسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، وكنت أشعر من حديثه أنه يندم على تحويل الفندق إلى بيت للطلاب

إذ كان يستطيع فى الأيام الخوالى أن يواصل هوايته الخبيثة ، وكان أسلوبه فى الحديث يؤكد إتقانه لهذه الهواية (أو الحرفة) فقد كان يحب الهمس والحديث الملتوى ، ولكن دون حركات الأيدى ، وكان ذلك هو أهم ما يفرق بينه وبين الطائفة التى ينتمى إليها أمثاله فى مصر .

هؤلاء الانجليز الذين يقرأون الصحف يريدون أخباراً عما يعرفونه ، وهذا هو ما انتبه إليه رجال الإعلام فحوّلوا دفة التركيز من ڤيتنام إلى الشرق الأوسط خصوصًا وأنهم لم ينسوا هزيمة 'إيدن' فى عام ١٩٥٦ ، والانتصار المعنوى الكبير الذى حققه العرب على أطراف العدوان الثلاثى (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) كما استغل الإعلام عداء الحكومة البريطانية لجمال عبد الناصر باعتباره الزعيم الذى ساهم فى تقويض الامبراطورية البريطانية ، وكان مايزال يعمل على مناهضة النفوذ الغربى فى الشرق الأوسط بل ويحارب ذلك النفوذ عمليا فى الجزيرة العربية ، فكان اسمه رمزًا لما يحب الانجليز أن يحاربوه ، وكان اسمه هو الراية التى يجتمع العرب فى ظلها فى كل مكان ، فلقد كان 'المعنى' الجديد والهوية الجديدة للكيان العربى ، وكنا نرفع الرأس فى كل مكان فنحن من بلد ناصر ، وكان الكثيرون يحادثوننا بتعاطف المؤمن بالوجود العربى ، وبالتاريخ العربى ، وكانت أنباء التوتر فى الشرق العربى باختصار موضوعًا حيًا - يضمن لقراء الصحف مادة ساخنة .

وعندما تعالت أصوات بعض العرب تتهم عبد الناصر بأنه سمح لقوات الأمم المتحدة بالمرابطة فى خليج العقبة على أرض مصرية ، طلب عبد الناصر من أو ثانت (U Thant) و U (أو) تعنى السيد فحسب ، الأمين العام للأمم المتحدة سحب تلك القوات فى ١٧ مايو ، وانصاع « أو ثانت » للطلب ، وخرجت الصحف البريطانية يوم ١٨ مايو ١٩٦٧ تحمل أنباء انسحاب القوات الدولية ، ونشرت صحيفة الجارديان الصادرة صباح ذلك اليوم (وكان يوم خميس) صورة جمال عبد الناصر بطول الصفحة الأولى ، ومعها عنوان مثير هو 'عبد الناصر بطل العرب دون منازع' . وعلى امتداد أسبوعين كاملين سادت أنباء 'أزمة الشرق الأوسط' أجهزة الإعلام ، وأصبحت الحديث اليومى للعرب فى كل مكان ، وعندما قابلنى 'سوخديڤ' الهندى فى الكلية وفتح معى الموضوع قلت له « لقد حان وقت محاسبة اليهود على ما فعلوه بأبناء فلسطين » ولم يكن أحد يدرى بما يدور فى كواليس السياسة الدولية ، ولا

داعى للإفاضة فيما أفاض فيه المؤرخون ، وما كشف عنه محمد حسنين هيكل النقاب ، فأنا أروى فقط ما حدث لى فى الغربة ، وكيف عشنا تلك الأيام .

وتحول كل اهتمامى باللغة الانجليزية والأدب الانجليزى إلى تساؤلات عن مدى الكذب الذى يعمد إليه أصحاب الصحف – إنه كذب من نوع غريب ، فهو لا يقدم ما هو 'غير حقيقى' بل يعمد إلى اختيار عناصر بعينها من الصورة فيلقى الضوء عليها ، ويغفل عامداً غيرها من العناصر ، وبعض الكتاب قد يكون لهم العذر بسبب الجهل مثلاً ، وإن كان الجهل عذراً قبيحاً، ولكن الغالبية لا يعانون من الجهل بل يعملون لما أصبح يسمى 'مصلحة البلد' وهو تعبير خبيث لا يقصد به فى الحقيقة إلا المصالح المادية البحتة لفئة من المنتفعين بالنظام ، فقد تكون تلك المصالح مصالح حزبية محضة ومن ثم فهى مصالح الفئة الحاكمة ، وقد تكون مصالح اقتصادية أساساً ، ولكنها فى النهاية تنسب فى لغة السياسة إلى 'البلد' . لم أكن مهموماً بسبب ما تقوله الصحف ، فأنا واثق من عدالة قضيتنا ومما أعرف أنه يتفق مع المثل العليا للأخلاق حتى فى بريطانيا (بل وفى كل مكان) ، سواء أكان مردها إلى البيوريتانية أم إلى النزعة التجارية – كنت ما أزال أثق فى الإنصاف وفى الحق ، وأثق قبل ذلك كله فى نقاء نية زعيمنا ، والجميع يشاركنى فى ذلك ، ولا أستطيع أن أكتب عما لم أكن أعرفه من ملابسات وأسرار ، فأنا فى الغربة أسمع ما يقال وأقرأ ما يكتب فحسب ، وسموم الدعاية الانجليزية لا تقلق بالى بل تدفعنى إلى التفكير فحسب.

وعندما تصاعدت الأزمة لجأت إلى أحد زملائنا وهو الدكتور مسعد حجازى الذى عمل بعض الوقت ضابطاً وشارك فى حرب اليمن ، فبث فى نفسى قدراً كبيراً من الاطمئنان ، ولكننى كنت فى حاجة إلى أن أستمع إلى إذاعة القاهرة ، فأتى محمد مصطفى رضوان بجهاز الراديو الضخم الذى يملكه إلى غرفتنا وكان قادراً على التقاط بث إذاعة مصر ، واستمعنا فى يوم الأحد ٤ يونيو إلى المؤتمر الصحفى الذى تحدث فيه عبد الناصر ، وكان شامخاً مهيباً ، وجاءت أنباء الصلح مع الملك حسين ، واستعداد الدول العربية الأخرى للوقوف إلى جانب مصر إذا نشبت الحرب ، فازداد اطمئنان الجميع ، وأوينا إلى مخادعنا هانئين .

وفى صباح الاثنين ٥ يونيو كنت قد قررت عدم الذهاب إلى الجامعة لأن الملكة الأم كانت ستفتح جناحاً جديداً بالكلية ، والأفضل فى هذه الحالة هو العمل فى قاعة الدرس ببيت

الطلاب، وبعد فترة لا أدرى كم طالت ، وكانت عقارب ساعتى تشير إلى التاسعة ، جاءنى محمد مصطفى رضوان مهتاجًا ليقول لى « هل سمعت الإذاعة ؟ لقد بدأت الحرب ! » وحملت

د. محمد نوح، د. محمد مصطفى رضوان عام ١٩٦٧



كتبى فى عجلة وأعدتها إلى الرفوف ، وجلست فى غرفتى معه (وكانت نهاد قد خرجت إلى العمل) أستمع إلى صوت جلال معوض وهو يهدر ، ويعلن إسقاط الطائرات الأجنبية ، ثم وهو يعلن أن الأردن دخلت الحرب وتقدمت « واحتلت جبل المكبّر فى القدس ». وقلنا جميعًا الله أكبر ! وتوافد العرب علينا حتى امتلأت الغرفة ، ثم جاءنا من يقول إن الإذاعة البريطانية تزعم أن الطائرات الإسرائيلية قد دمرت الطائرات المصرية وهى فى مرابضها على الأرض ! كذب فاضح ! وصحنا جميعًا هذا ما لا يكون أبدًا ، فلقد فعلها الانجليز والفرنسيون من قبل ، ولكن إسرائيل لا تستطيع أن تفعلها أبدًا ! وخرجت إلى الطريق فاشتريت صحيفة المساء The Evening Star التى تصدر أولى طبعاتها فى العاشرة صباحًا ، فوجدت التفاصيل المفزعة عن ضرب الطيران المصرى ، وعن القتال الدائر فى سيناء وفى هضبة الجولان وفى الضفة

الغربية ! محال محال محال ! وعندما عادت نهاد فى الخامسة من العمل ، لم يكن لنا همٌّ إلا متابعة الأنباء ، فاجتمعنا فى القاعة المخصصة للتليفزيون ، حيث أذاعت الإذاعة جانبًا من الحديث الذى أدلى به عبد الناصر ، ثم تحقيقًا مصورًا عن ضرب الطائرات المصرية ، وقال المعلق العسكرى فى النهاية « لقد انتهت الحرب فعليًا على الجبهة المصرية فى الساعات الأولى من هذا الصباح ، فلن يستطيع الجيش المصرى أن يصمد للقتال فى سيناء دون غطاء جوى».

ويعلم الله كيف قضينا تلك الليلة ، وفى الصباح الباكر خرجت الصحف جميعًا وعلى صدر صفحاتها خرائط وصور فوتوغرافية ، وتصريحات لا نهاية لها ، وتعليقات ، وكنت أترجم ما أقرأ والعرب حولى يستمعون حتى حل المساء فانصرفوا ، وفى صبيحة اليوم الثالث (الأربعاء) سمعت جلال معوض يقول إن تحولاً قد وقع فى سير المعارك إذ تدخلت طائرات أجنبية فتأكدنا أنه يعنى الطائرات البريطانية والفرنسية ، ومن ثم أرسلت استقالتى إلى مارى بيرتون فمن المحال أن أعمل فى جهة معادية ، ولو كانت رسميًا مستقلة عن الحكومة ، وانتابنى مرض غريب لا أعرف وصفًا له حتى الآن ، إذ كنت فى شبه غيبوبة ، فاستدعت نهاد الطبيب، وعندما فحصنى بدت عليه علامات الحيرة ، وقال إنها انفلونزا مصحوبة بارتفاع



د. محمد نوح ١٩٦٧

مفاجئ في الضغط ووصف عدة أدوية خرجت نهاد فأحضرتها ، ومكثت في قبضة ذلك المرض أكثر من أربع وعشرين ساعة ، ونهاد يعتصرها القلق ولا تفارقني ، حتى تماثلت للشفاء واطمأنت ، وأعلن الراديو قبول قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار وقال إن عبد الناصر سوف يوجه حديثًا إلى الأمة في المساء .

واجتمع العرب في نحو الخامسة مساء في غرفة سيدة أردنية كانت حاملاً ولديها مذياع ممتاز يمكن الاستماع فيه إلى معظم المحطات العربية ، وفي نحو الخامسة والنصف بدأ عبد الناصر حديثه فروى الخدعة التي تعرض لها ويبدو أنني لم أكن منتبهًا لدلالة ما يرمي إليه، ولم أنتبه إلا إلى السيدة وهي تصرخ وتلطم وتقول « لا لا يا عبد الناصر ! لا تتركنا ! » وكان لم يعلن بعد عن القرار الذي قرر أن يتخذه ولكنها أحست بفطرتها بما يرمي إليه ، فبدأ بكاء وعويل غريب ، ومن ثم اصطحبتُ نهاد وخرجنا من المبنى وطفقنا نسير ونسير كأنما لنستوعب ما حدث . هل نصدق ما تقوله الصحف البريطانية ؟ هل وصل اليهود فعلاً إلى قناة السويس؟ وفي ثلاثة أيام ؟ ألم نحارب حقا ؟ هل دُمِّر سلاح الطيران المصري ؟ وأهم من ذلك كله – هل فقدنا عبد الناصر ؟

ولم نعد إلا في ساعة متأخرة ، ولم نستغرق في النوم إلا همًا وكمدًا ، وفي التاسعة صباحًا طرق أحدهم على الباب فقلت له تفضل فإذا به محمد مصطفى رضوان يقول لي إن الجماهير في القاهرة قد خرجت في مظاهرات تطالب عبد الناصر بالعدول عن قرار التنحي . ولم تغرب شمس يوم الجمعة حتى قبل عبد الناصر أن يعود وإن استمرت الجماهير في الإعراب عن حبها وتأييدها له في اليوم التالي ، وتنفسنا الصعداء ، وإن كنا ما نزال نتابع أخبار الحرب على الجبهة السورية ، وكانت أنباء ضياع القدس قاتلة ، وضياع الضفة الغربية، وما أن حل الأسبوع الجديد حتى توقف إطلاق النار على جميع الجبهات – ستة أيام عصفت بنا قبل أن تعصف بالجميع ، فنحن نعيش وسط الأعداء ، وكان موقف العرب الذين يعملون في الإذاعة لا يحسدون عليه ، وكان الهنود يسألونني لماذا لم تطلقوا الصواريخ ؟ وكان معظم الانجليز لا يدرون حقيقة ما جرى رغم كم الألفاظ الهائل المنهال عليهم ليلاً ونهاراً ، وكان خالي الدكتور كمال يعتصره القلق على أسرته في الاسكندرية ، فقرر الرحيل مع زوجته وقطع فترة عمله في لندن ، وظل يتردد على شركات الطيران حتى وجد مكانين على إحدى الطائرات بصعوبة بالغة ، وبتنا وحدنا نواجه صيف النكسة .

وحاولت استعادة توازني فذهبت إلى الكلية لمقابلة المشرف ، فحدد لي موعداً في يوم الاثنين التالي ، وعندما قابلني بدا عليه التعاطف وقال لي « ماذا كنت تفعل ؟ الأنباء من مصر لا تساعد على التركيز ؟ » وعجبت لتلك 'المخافضة' (understatement) في التعبير ، وناقشته في مستقبل العمل ، واتفقنا على أن نحاول وضع الرسالة في صورتها النهائية في سبتمبر ، وأن أتقدم للامتحان في أكتوبر . وعدت للعمل الدراسي بانتظام ولكنني لم أكن أستطيع التركيز فيما أقرأ ، وكانت ليالي صيف يوليو مشحونة بالكوابيس ، وكنت أحلم وأنا بعد يقظ أحاول الاستغراق في النوم ، كنت أحلم حلمًا لا يتغير ولا يتبدل وهو أننا أعددنا الصواريخ سرًا ، وفاجأنا العدو فدمرناه تدميرا ، وكنت أسرح في تفاصيل الأسلحة التي سنستعملها ، ثم أرسم لنفسي صور الأنباء التي ستنقلها أجهزة الإعلام ، وما إن يشرق الصباح حتى نعود إلى النقاش فيما حدث وكيف حدث - ولماذا حدث ؟

ووصل إلى لندن بعض الضباط الذين أصيبوا في الحرب للعلاج ، وكان من بينهم رائد يدعى حسيب أصيب بقنبلة نابا لم في سيناء ، وهذا النوع من القنابل المحرمة دوليا يشعل النار التي لا يطفئها شيء ، ولحسن حظه كان يرتدي بلوفر ذا أكمام طويلة وكان يرسل لحيته فخلع البلوفر المشتعل وأكلت النار لحيته ، وكنا قد خرجنا في رحلة من رحلات نادي الطلاب العرب، فانطلق يقص عليّ ما فعله الإسرائيليون ، وكيف حاربوا ، وقال لي تفصيلاً كيف كانوا يحاصرون إحدى الكتائب بست وعشرين بطارية مدفعية ولا يتوقفون إلا بعد تدمير الكتيبة ثم ينتقلون إلى غيرها ، ولا منجاة لكتيبة في الصحراء لا تملك من سلاح الجو ما يعوضها عن العراء المفزع . وتوالت لقاءاتنا مع القادمين من مصر ، وتوالت متابعتنا للصحف المصرية ، حتى جاءت سميرة قنديل التي كانت تعد رسالة للدكتوراة في الزراعة بعد أن جمعت المادة العلمية من مصر وقالت لنا في أسى ، إن أهلها لم يعلموا أن اليهود قد وصلوا إلى القناة إلا في سبتمبر! وفي سبتمبر بدا أن الجميع قد استعادوا توازنهم ، وكثرت اللقاءات التي كنا نعقدها في نادي الطلاب العرب ، ووصلني خطاب من إدارة البيت يقول إنّ عليّ أن أرحل بعد

أن انتهى العامان الدراسيان المسموح بهما ، وكنت شاهدت العمل وهو يجرى على قدم وساق فى بيت قديم قريب من بيت الطلاب فى شارع ساسكس جاردينز Sussex Gardens وقد علّقت عليه لافتة تقول إنه سوف يصبح بيتًا جديدًا للطلبة اسمه النادى الدولى للطلاب International Students Club فقدمت طلبا وتحدد أكتوبر موعدًا للانتقال .

فى سبتمبر رن جرس التليفون ، وسمعت صوتًا يتحدث بلهجة اسكندرانية بها مسحة لا تكاد تبين من اللهجة غير المصرية ، وقال إنه يحمل رسالة لى من خالى الدكتور كمال ، فهبطت إليه وقدمته إلى المديرة فحجزت له غرفة مستقلة ، وكان اسمه الدكتور محمد صديق نوح ، وكان طبيبًا يدرس للحصول على الزمالة ، وهو مولود فى الاسكندرية من أم سكندرية، وزوجته 'فتان' سكندرية ، ولكن أباه سعودى ولذلك كان يحمل الجنسية السعودية . وسرعان ما توثقت عرى الصداقة بينه وبيني وبين نهاد ، وعندما علم أننا نعتزم الانتقال إلى بيت طلاب جديد ، قرر الانتقال معنا ، وانتقل محمد مصطفى رضوان إلى غرفة فى منزل قريب من المنزل القديم ، وكان الأصدقاء السوريون قد رحلوا بعد أن حصلوا على الدبلوم ، وكذلك رحل الليبى عيسى موسى ، بعد أن أنجب طفلاً لم يسمه محمدًا ، وتفرق الشمل ، وكشّر عام النكسة عن أنيابه . ولم تنقطع صلتنا بالدكتور نوح حتى هذه اللحظة (١٩٩٩) ، فهو حتى بعد أن استقر فى الرياض يتابع أخبارنا تليفونيا ونتابع أخباره ونحضر أفراح أنجاله . أما محمد مصطفى رضوان فما يزال يتصل بنا تليفونيا من هولندا ، حيث هاجر واستقر ، وأصبح من كبار أساتذة الهندسة الجوية (المساحة الجوية) فى العالم ، وبعد أن تزوج وأنجب ثم انفصل وتزوج ، لكنه ما إن يشاهد أحدنا (أنا أو نهاد) فى التليفزيون مثلاً حتى يتصل تليفونيا وقد قال لى فى العام الماضى على التليفون أنه عندما يسترجع الماضى يجد لحظات نور لا تنطفئ أبدًا عرفها معى ومع نهاد .

كان الانتقال إلى المسكن الجديد يسيرًا ، إذ استعرنا عربة يد (wheel - barrow) من بيت الطلاب القديم ونقلنا متاعنا وكتبنا فى رحلات متوالية لا أذكر عددها ، ثم استقر بنا المقام فى غرفة فسيحة ذات مدفأة كهربائية تعمل بالعملات ، ولها عداد ، وكان للمنزل سلم حلزونى طريف ، وكنا نتلقى الخطابات من مصر ونرسل خطابات كثيرة ، ولكن صدمة النكسة كانت تطاردنى – فى يقظتى ومنامى – ففى الغربة يصبح المصرى مصر كلها ، وعرفنا أصدقاء جدد حول منضدة تنس الطاولة ، وكان من بينهما شابان سعوديان مصابان بالصمم

ويتعلمان النطق فى مدرسة خاصة ، وكانا يحادثاننا بالعربية ، وما زلنا نذكر أنا ونهاد عبارتهما المشهورة « مخ مفيش » عندما يشيران إلى غباء الانجليز ! وكان صاحب المنزل هو القس لانكاستر الذى قضى شطراً من حياته فى مصر مع زوجته وكان يحدثنا بشوق عن أيامه فيها ، ويتحدث عنها حديث المحب الوامق .

وفى سبتمبر ١٩٦٧ هبت نسمة منعشة من نسمات مصر فأتت إلىّ فى لندن بأستاذى شكرى عياد ، ولم أكن أتوقع مثل هذه المفاجأة الرائعة فاندفعت فى شوق للقائه ، وانطلقنا نسير فى شوارع لندن ونستأنف حديثنا فى الأدب الذى لم ينقطع من عشر سنوات مضت ! كان يسأل وأجيب وأسأل ويجيب ، وعلى كثرة ما سألنا وأجبنا لم نتطرق مطلقًا للسياسة ، مما أعاد إلىّ بعض الثقة التى كانت قد اهتزت ، كانت ثقة فى النفس وفى مصر ، وتنوعت نزهاتنا الثقافية فذهبنا إلى المسرح عدة مرات ، وإلى السينما حيث شاهدنا فيلم 'رجل لكل العصور' المأخوذ عن مسرحية روبرت بولت ، وفيلم 'ترويض السليطة' المبنى على مسرحية شيكسبير ، وشاهدنا مسرحيات لتشيخوف وبرنارد شو وأوسكار وايلد ، وكان دائمًا يتحمل تكاليف التذاكر ، ويبدأ حديثه التليفونى بعد السلام بقولة شهيرة هى 'أنا أدعوك' فإذا عارضت قال لى 'إنها دراهم معدودة !' وعندما حان موعد رحيله سألنى عن موعد انتهائى من الدكتوراه فقلت له إننى ما زلت أعمل فى الماجستير ، فقال لى إنه يبدو من مناقشاتنا أننى أسرف فى قراءة كتب خارج الرسالة ، وقال لى بلهجة الجد « كفاية صَرْمَحَة بين الكتب وخلّص رسالتك ! » وحاولت أن أعمل بنصيحته بعد رحيله لكننى لم أستطع ! كانت زيارته كالحلم ، وأفقت فى أكتوبر على واقع يصعب الفرار منه ، والكتب المنوعة المتاحة بقروش زهيدة لا يمكن مقاومة إغرائها .

كان أهم تأثير تركه شكرى عياد فى نفسى هو السؤال المحيِّر « وبعدين ؟ » أى وماذا بعد أن ندرس الأدب واللغة ؟ وماذا بعد أن نقرأ إبداعات الخيال وتصاوير الواقع ؟ كان شكرى عياد يطرح الأسئلة التى أثيرت بعد ذلك بعشرين عامًا فى مؤتمر كيمبريدج عام ١٩٨٧، حين انهمك فريق الأساتذة الانجليز فى تحليل معنى 'الأدب الانجليزى' أو ما يمكن تسميته 'بفكرة الأدب الانجليزى' إذ اكتشفت آنذاك صدق ما دعا إليه شكرى عياد من إعادة النظر فيما يسمى 'بأدبية الأدب' وهى التى كان أصحاب البنيوية يدعون إليها بل ويكادون

يفرضونها فرضًا فى فرنسا ، وكنت مؤمنا بها بحكم دراستى للنقد الجديد ، وهو ما أتت به المدرسة الأنجلو أمريكية ، وكان الانجليز يبدون تحفظاتهم على كل جديد ، ويستريبون بكل ما من شأنه التشكيك فيما درجوا على اعتباره 'صلب' المنهج الأدبى ، ولم أكتشف إلا بعد عشرين عامًا ما وراء ذلك كله ، ولكننى لن أستبق الأحداث فأعود إلى أكتوبر ١٩٦٧ .

كنت ولا شك أعيش فى دوامة يومية ، فأنا فى الكلية أقرأ كتبًا فى غير الأدب ، وفى المنزل أحاول الكتابة فلا أستطيع ، وكنت فى كل يوم أتخذ قرارًا بالتركيز على الرسالة ثم أعجز عن تنفيذه ، وبدأت أتساءل ولو تساؤلات عابرة عن دلالة ما يقال وما يكتب ، ثم بدأت أستمع إلى القس لانكاستر وهو يتحدث إلينا فى نبرات واثقة حديث رجل الدين الذى يدعو للسلم بالمعنى النفسى والاجتماعى معًا ، وتفتق ذهن إحدى الراهبات السابقات (بعد أن تحولت إلى موظفة مدنية فى المنزل) عن عقد ندوات يناقش الطلاب فيها أمور الحياة ، وكان الموعد فى عطلة نهاية الأسبوع - يوم الأحد ٢٢ أكتوبر - وعندما اجتمعنا كنت أشعر بفرح لم أعرفه من شهور إذ قام رجال البحرية المصرية فى اليوم السابق بإغراق المدمرة الإسرائيلية 'إيلات' ، وكان الجميع يقرأون صحف الأحد بحماس شديد ، وعندما بدأ النقاش وكان حول الحرب التى تدور فى نيجيريا منذ فترة لانهاء انفصال بيافرا (الإقليم الجنوبى المتمرد) قام أحد أبناء نيجيريا وهو مسلم من الشمال فتحدث بطلاقة لسان وفصاحة يحسده عليها أبناء اللغة ، وأسهب فى الحديث عن دور الغرب المشبوه فى الدول حديثة الاستقلال ، وتحدث عن فظائع زعيم الانفصال ، وفوجئت بأن الراهبة السابقة تكاد تعلم كل شىء عن ذلك ، وتتحدث حديث الخبير عن الثروة النفطية فى الجنوب ، وعن دور الشركات الأجنبية فى الإيعاز للعقيد أوجوكو بمحاولة الاستقلال بها ، وأن المطامع المادية هى التى كانت وراء محاولة الانفصال ، وكنت أسمع لأول مرة تعبير 'الشركات المتعددة الجنسية' أى transnational corporations إذ قالت إن شركة 'شل' مثلا هولندية وبريطانية معًا ، وإن مبيعاتها السنوية تزيد على عشرة آلاف مليون جنيه استرلينى ، وهالنى الرقم وكتبته فى مذكرتى ، وعندما انتهت سألتها إن كان الرقم صحيحًا فأشارت إلى صحيفة فى يدها تضع هذه الشركة بين أغنى عشر شركات فى العالم ، وجاء دورى للحديث عن الشرق الأوسط .

كنت أشعر أن السياسة قد فُرضت علىّ فرضًا ، وأن اهتماماتى اللغوية والأدبية لن تنفصل بعد اليوم عما يجرى فى العالم ، وأن قدرى فى الغربة أن أعيش - كما يقول التعبير

الانجليزى -- 'فوق قمة الأحداث' لا داخلها ، فالذى يعيش فى بلده يعرف أنه واحد من ملايين، وأنه لا طاقة له على تغيير مسارها ، أما فى الغربة فالمرء يتصور أنه يعرف أكثر من أهل البلد ، ويتحدث فى الشئون العامة حديث من يُعتد برأيه حتى ولو لم يملك القدرة على تغييرها، وكنت قد استمعت إلى خطاب ألقاه عبد الناصر قبل عشرة أيام تقريبًا يوجه فيه أصابع الاتهام إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، ويؤكد دورها فى الحرب ، ولا شك أن أحاديث الرئيس الأمريكى جونسون آنذاك كانت تشى بمعرفة ما لا يعرفه إلا أهل الاستخبارات ، وكانت الصحف الانجليزية تنقل عن الصحف الأمريكية بعض المعلومات التى تعد فى مصر من الأسرار العسكرية ، فعرضت على المجتمعين وجهة نظرى وهى أن الهجوم الإسرائيلى على مصر وسوريا والأردن يمثل محاولة من الغرب لإيقاف مسيرة النهضة ، وأن له أبعاده الثقافية التى لا تنفصل عن الأبعاد الاقتصادية والسياسية ودفعنى الحماس إلى أن أقول إن أمام العرب حرب بقاء ، وإن بذل الروح فى سبيلها يهون ، ويبدو أننى انفعلت وتهدج صوتى فأشرت إلى أحد الأنباء الصحفية التى تقول إن رونالد ريجان حاكم كاليفورنيا آنذاك نصح جونسون بالتلويح باستخدام القنبلة الذرية فى ڤيتنام ، وقلت للحاضرين كيف تقبلون الحديث عما تسمونه 'محرقة' اليهود فى ألمانيا النازية وتنسون محرقة الڤيتناميين ؟

ولم ينقص يومان حتى هاجم الإسرائيليون مصنع تكرير البترول بالسويس ، وبدأوا حملة لمهاجمة مدن القناة ، وبقية الأحداث معروفة ، ولكن كل نبأ يأتى من الوطن كان يعتصر النفس اعتصارًا ، وكنت أتطلع فى بطاقات 'الصور الشعرية' التى أعكف على تحليلها فى الرسالة فلا أجد فيها إلا الخواء ! ولم أعد أطيق المناقشات ، وكنت أسير فى الشارع فأجد الفتيات يعلقن صورة موشى ديان ذى العصابة حول إحدى العينين ، بل وجدت بعض الانجليزيات ممن كنت أعرف إخلاصهن المسيحى قد اشترين نجمة داود وصرن يتباهين بها ! ودخلت مكتبة ذات يوم بالقرب من المبنى الرئيسى للجامعة ، وجعلت أتصفح الكتب ، ثم لمحتنى إحدى البائعات فجاءت تسألنى إن كنت من مصر ، ولم أكد أومئ حتى قالت : « كيف تسمحون لليهود بذلك ؟ إنهم كلاب الأرض ! » ولم أجد ما أرد به عليها ، وسرعان ما جاءت فتاة أخرى وجعلت تحكى كيف يتآمر اليهود لإغلاق محل C & A الهولندى الأصل متهمين أصحابه بأنهم يعادون اليهود (معاداة السامية) بل وأسهبت فى عتابى كأنما كنت المسئول عن الهزيمة ! ولم

أشتر كتبًا بل خرجت مهمومًا ، وعلمت عند عودتى أننى أستطيع الابتعاد عن ذلك كله إذا انتقلت إلى شقة مستقلة ، وخصوصًا بعد أن قدمت نهاد طلبًا للدراسة (الماجستير) فى جامعة Sussex فى جنوب انجلترا ، ولم يعد عليها أن تعمل ، وخصوصًا بعد أن تعثر عملى فى الرسالة شهورًا طويلة ، وكانت الشقة فى منزل مجاور لمنزل أسقف سابق هو Bishop Creighton ولذلك أسموه منزل الأسقف كرايتون تيمنا به ، وكان إيجار الشقة المستقلة ثمانية وعشرين جنيهًا ، فقدمت طلبًا ، وفى نوفمبر جاءنى الرد ، وكان بالقبول.

وفى أكتوبر أيضًا تلقى الدكتور نوح برقية تقول 'وصلت اليوم - توقيع خالد' وحملتها إليه فطار فرحًا ، كان خالد هو ابنه الجديد ، وقد رزق به بعد رانده ورحاب ، فأرسل يستدعى أسرته إلى لندن ، ولم تمض شهور حتى حضرت الأسرة وأقامت فى شقة فى وسط لندن فى شارع اسمه إيفلين جاردنز ، وصرنا نتزاور وتوثقت العلاقة الأسرية ، كما انتقل محمد مصطفى رضوان إلى غرفة مستقلة مع زوجته هدى نصر ، ورزقا فى العام التالى بفتاة أسمياها داليا ، وما إن حل عام ١٩٦٨ حتى كانت كل أسرة قد استقلت واستقرت ، وانتقلنا نحن إلى الشقة فى المنزل الذى كان يشار إليه أيضًا باسم The Garden House فى شارع بوثويل Bothwell ، فى حى فولام Fulham .

٤

كان المشرف دائم السؤال عن الرسالة ، ولم يستطع أن يدرك أبدًا أن النكسة السياسية قد تسببت فى نكسة عامة أصابت المصريين جميعًا ، وكنا نتابع أخبار الوطن على البعد ، ونحاول أن نعزل أنفسنا فلا نستطيع ، لكننا بذلنا جهدًا كبيرًا فى سبيل ذلك ، إذ تركت نهاد العمل ، وعدت للرسالة أحاول تعويض ما فات ، لكن التغير فى موقفى من الحياة الانجليزية - خصوصًا على المستوى العام - كان قد بدأ يتضح فى سلوكى وفى قراءاتى ، فأصبحت لا أصدق كل ما أقرأ ، وتحديدًا فى أجهزة الإعلام ، وأصبحت أومن بضرورة إعادة النظر فى كل ما كنت قد بُهرت به فى عامى الأول ، وكانت تلك عملية مراجعة مستمرة لم تتوقف حتى الآن،

وقد مر بى حادث ترك أثره العميق فى نفسى ، وأكد على ضرورة التريث والتمهل قبل تصديق أى شىء ، ولو كان ذلك يتخذ صورة 'نتائج علمية' وبخاصة فى العلوم الإنسانية .

بدأ الحادث باعتراف أحد أساتذة علم النفس الاجتماعى بأنه زوّر المادة الإحصائية التى استند إليها فى إصدار أحكامه على المستويات الذهنية والنفسية لفئات مختلفة من سكان بريطانيا ، (وقد روى الحادثة الدكتور زكى نجيب محمود تفصيلاً فيما بعد فى مقال نشره بالأهرام) ، ومن ثم اشتعل الجدل حول مصداقية منهج الإحصاء ، وامتد إلى صحة وموثوقية (validity and reliability) الاختبارات النفسية واختبارات معدلات الذكاء (Intelligence Quotient) وأسهبت الصحف ، وبخاصة صحف الأحد ، فى تحليل دلالة ذلك التزوير ومدى تدخل التحيزات السياسية والدينية والعرقية فى الأحكام التى يصدرها 'العلماء' على الزنوج مثلا أو على الأيرلنديين .

وتوالت الأصداء حتى اكتسبت أبعاد الأزمة حين طالب بعض الصحفيين بعزل ذلك الأستاذ وإدانته علنًا ، وإذا بمجلس أمناء الجامعة يصدر حكمًا بتبرئته من كل شىء ، وقال فى حكمه « إنه إذا كانت بعض الأرقام التى وضعها الأستاذ غير مستقاة من الواقع ، فهى لا تتنافى مع الواقع ، وهى منطقية وتتفق فى مجملها مع ما توصل إليه غيره من الباحثين وما توصل هو إليه نفسه من استقراء للوقائع الثابتة » ومن ثم قرر مجلس الجامعة تثبيته فى منصبه ، واعتبار اعترافه بمثابة أداة غفران ، وصك اعتذار عن ذلك البحث ، مما يؤكد أن سائر بحوثه صادقة وهى تؤهله لشغل منصب الأستاذية .

أى إن منطق المجلس كان يقول إن ضمير الأستاذ الذى استيقظ قد نجّاه ، وإن له ضميرًا قادرًا على الاستيقاظ دائمًا ، ولكن المعترضين شككوا فى الفرضية ، وكان من أشد المعترضين الأستاذ المشهور 'هانز أيزينك' وهو يهودى من أصل ألمانى ، كان ينادى مثل الأستاذ المتهم (والمعترف) بالتزوير ، بتفوق الجنس الأبيض ، بل إن التشكيك فى بحث ذلك الأستاذ جعله يعمل على امتداد أربعة أعوام فى تأليف كتاب أسماه تفاوت البشر The Inequality of Man نشره فيما بعد أن وضع فيه أدلة إحصائية لا يتصور أن أحدًا يستطيع أن يدحضها ، وقد يبدو أن تلك مفارقة ، وقدم لها الكُتّابُ تفسيرين ، كان الأول كما يلى :

يسود الاعتقاد فى الأوساط العلمية الأوروبية أن التعميم خطأ ، وأن القاعدة ذات الصحة المطلقة لا تَصْدُقُ إلا على الجوامد ، أما فى العلوم الإنسانية فلكل قاعدة شواذ ، وعلى كل مؤسسة (مجموعة من العلماء) أن تقدم من حين إلى آخر كبش فداء (a scapegoat) يُعتبر الحالة الشاذة التى تؤكد صحة مناهج سائر العاملين فى كل مجال على حدة ، وهكذا أراد أيزينك أن يكون ذلك 'العالم' هو كبش الفداء ، وأن يُلفظ من مجتمع العلماء حتى تتوافر للآخرين المصداقية والموثوقية . وأما التفسير الثانى فكان كما يلى :

كان أيزينك قلقًا لأن العالم المتهم قد أدرج معايير 'تاريخية' و'دينية' تتضمن إدانة للجنس اليهودى ، ولذلك فإن استبعاده بسبب 'تزوير الإحصاءات' سوف يضمن عدم المساس باليهود وإنكار القول بأنهم طائفة تتسم بصفات نفسية معينة مما قد يلقى بالشك على أبحاث أيزينك نفسه ! ونادى أصحاب هذا التفسير بنشر بحث الأستاذ المتهم (ولم يكن قد نشره إلا فى مجلة متخصصة لم تطبع منها سوى مائة نسخة) وتوزيعه على نطاق واسع حتى يستطيع العلماء أن يستبعدوا الإحصاءات المزورة ويدرسوا المنهج 'التاريخى' و'الدينى' الذى اتبعه فى التحليل .

وفى خضم المناقشات نشرت الصحف حادثة الدكتور أشرفى ، وهو رجل من أفغانستان، وصفوه بأنه شعلة من ذكاء ، جاء قبل عشر سنوات بشهادة مزورة من جامعة كابول تقول بأنه حصل على البكالوريوس فى الطب النفسى ، وسمحت له السلطات الطبية بممارسة المهنة، فبزغ نجمه فيها وذاع صيته ، واغتنى وفتح لنفسه عيادة كبيرة يعمل فيها كثير من الأطباء الانجليز ، وتزخر بالمرضات والأثاث الفاخر والأدوية والكتب ، ولم يعد أحد يتساءل عن تخصصه ، لا سيما بعد أن أصبحت عيادته كعبة يحج إليها أبناء الطبقة الراقية ، بل وأصبح الأجانب يَؤُمُّونه ، وخصوصًا ذوات الثراء الفاحش من الأمريكيات اللائى عجزن عن شفاء أنفسهن فى أمريكا !

كان المجلس الطبى البريطانى فى حيرة من أمره ، فقد حكم بشطب اسمه من سجل الأطباء بسبب عدم حصوله على درجة علمية تؤهله للعمل ، وطالب بترحيله إلى بلاده ، ولكن وزارة الداخلية ترفض ذلك لأنه تزوج من انجليزية ، وتجنس بالجنسية الانجليزية ، ولم يعد لها سلطان عليه ! ومما زاد الطين بلة أن الأطباء الذين يعملون معه شهدوا له بمهارة لا تتوفر فى

كبار الأساتذة ، وكتبوا عريضة ضموها إلى طلب استئناف الحكم الذى أصدره المجلس ، وانقسم الصحفيون ما بين مؤيد ومعارض للترحيل ، وظهر أيزينك فى التليفزيون البريطانى ليعلن إدانته الشديدة لذلك المزور ، وليشرح أسباب اعتقاده باستحالة نبوغ رجل من أفغانستان ، حتى من باب الاستثناء ، مما أثار كثيرًا من المشاهدين .

وفى غضون ذلك توفى الأستاذ الذى كان قد اعترف بالتزوير ، وفجأة توقفت أنباء المناقشات العلمية ، وحل فى الصحف محلها نبأ هجوم رأس السنة الذى شنته قوات الڤيت كونج على الأمريكيين ، وإصدار الرئيس جونسون أمرًا بتكليف قرابة خمسة عشر ألفًا بالذهاب إلى ڤيتنام ، ولم نعد نعرف ماذا حدث للدكتور أشرفى ، ولا ما انتهت إليه قضية ترحيله ، وكأنما الأرض ابتلعته !

وفى غمار ذلك كله ، وكنا فى يناير ١٩٦٨ ، قمت مع الدكتور نوح بزيارة رماح البرعى ! كان رماح - وهو سكندرى سمين ضحوك - طالبًا مُجدًا فى كلية الطب ، ثم اكتشف بعد تخرجه أن فرصة عمله بالجراحة محدودة ، وهى عشقه الأول والأخير ، وكان قد خطب فتاة صغيرة (بطريقة الخاطبة) لكنه شعر بأنه لن يستطيع تحقيق حلمه إلا إذا سافر ، فقبل وظيفة جراح مبتدئ بإحدى مستشفيات الكويت ، ودأب على الدراسة استعدادًا لدخول امتحان الزمالة ، ونجح فى الجزء الأول ، لكنه ظل يرسل المال إلى أهله والهدايا إلى خطيبته فى مصر، وتصادف أن مرض أحد أمراء البحرين فجاء إلى العلاج فى الكويت ، وأجرى له رماح عملية ناجحة ، فما كان من الأمير إلا أن بنى له مستشفى خاصًا ، وفتح له أبواب الممارسة الجراحية على مصراعيها ، وتمكن فى أثناء ذلك من اجتياز الجزء الثانى من امتحان الزمالة فى انجلترا ، فعرضت المستشفى عليه وظيفة استشارى ! وكان على رماح أن يقرر ما يفعل ، إذ ارتبط قلبه فى الغربة بحب فتاة كويتية ، وخطيبته فى مصر قد بلغت الخامسة والعشرين وما تزال تنتظره ، ولم يتردد رماح طويلاً بل ذهب إلى الاسكندرية ، وزار أهل خطيبته وصارحهم بالموقف ، وعرض عليهم أى تعويض مالى يطلبونه ، وطلبوا ثلاثين ألف جنيه فلم يعترض ، وأودع لهم المال فى البنك ، وعندما أحس بالرضا عاد إلى الكويت . وهنا عرض على حبيبته الزواج بشرط الإقامة الدائمة معه فى لندن ، فوافقت وسافر العروسان !

وعندما زرناه حانت فسحة القهوة ، فإذا به يخرج من درج مكتبه رغيفًا ضخمًا (فينو) ويشرع يأكل بعد أن دعانا إلى مشاركته ، وكلانا مثله نحب الطعام ، ولكننا اعتذرنا ، فقال شارحا 'أصل مراتي ما تحبنيش أجوع' وأظن ظنًا أن الساندويتش كان يتضمن لحمًا وبعض شرائح الطماطم والخيار ، وكان رماح قد انتهى لتوه من عدة عمليات جراحية ناجحة ، وانطلق يحدث الدكتور نوح عنها ، وكنت أتابع مناقشتهما بدهشة وإعجاب !

٥

كان اللقاء مع رماح البُرعي ، على طرافته ، بالغ الأثر في نفسي ، فإذا كان قد أعاد لي بعض الطمأنينة بتأكيد ذكاء العربي ومهارته ، فلقد أكد لي أيضًا أهمية ما قاله شكري عياد عن 'الدلالة' ، فالمادة الإنسانية التي يشكلها الأديب لا تقل دلالتها عن الصور والأبنية الجمالية التي ينشئها أو يحاكيها أو يقتبسها ويعدّ لها . وسواء قصصت قصة رماح ببراعة القاص المحترف أم رويتها عارية عن الأشكال الأدبية التقليدية أو المبتكرة فسوف تظل المادة الإنسانية زاخرة بالدلالات ، وسوف يكون تجاوب القارئ العربي معها بمثابة الإجابة على سؤال شكري عياد 'وبعدين ؟' نعم نحن نحتاج إلى الأدب لأننا نحتاج إلى أن نعرف رماحًا ، نحتاج إلى أن نزيد وعينا بالحياة ! وعندما ركبنا الأتوبيس الذي سوف ينقلنا إلى أقرب محطة للمترو ، لاحظ الدكتور نوح أنني كنت شارد اللُّب ، فسألني عن سبب شرودي فقلت له أبدًا .. بس مستغرب شوية' فأدرك أنني أفكر في قصة رماح ، فقال بلهجة ابن البلد الصادقة 'أمال لو شفت الأجهزة اللي عندهم !' ولكنني لم أكن مبهورًا بنظافة المستشفى ونظامها ، بل كان ما يشغلني هو ذلك الهمّ الذي كتب عليّ أن أحمله مدى الحياة – ألا وهو التساؤل مع شكري عياد عن الدلالة !

وعدت إلى الرسالة أتأمل ما قطعت فيها من أشواط ، وما بقي من جهد لا أقوى على بذله ، وتساءلت من جديد ترى أستطيع أن أقلع عن 'الصرمحة' بين الكتب ، وأنتهي من الرسالة عملاً بنصيحة شكري عياد ؟ وقررت أن أحاول من جديد ، وإن كانت الضائقة المالية

تتطلب البحث عن عمل ، وكنت أرجو أن يكون هذا العمل ذا طابع منتظم حتي لا أكابد هذا العناء ، ولجأت من جديد إلى أصدقائى فى الإذاعة ، فوجدت أن الجميع يؤكدون أن بريطانيا لم تشارك إسرائيل فى العدوان على مصر ، وقال بعضهم إننى أخطأت حين استقلت ، وإنهم سوف يرحبون بعودتى ، ولكننى لم أتحمس لموضوع الخطابات !

وجاء نهاد خطاب من جامعة ساسيكس Sussex يقول لها إن الجامعة قد وافقت على تسجيلها اعتباراً من خريف ٦٨ بشرط اجتياز المقابلة الشخصية ، وكانت عندما تقدمت بطلبها أول الأمر طلبوا منها إرسال نموذج من كتاباتها فكتبت بحثًا عن الروائى جوزيف كونراد عنوانه « ازدواج الوعى عند كونراد » ولاقى القبول ، وتحدد لها موعد للمقابلة ، وذهبنا بالقطار إلى مدينة برايتون Brighton الساحلية ، واتجهنا إلى الجامعة ، وبعد المقابلة (وكانت مع الأستاذ ليرنر مؤلف كتاب كوميديات شيكسبير) قيل لها إنها يجب أن تقيم فى مكان لا يبعد أكثر من ١١ ميلاً عن الحرم الجامعى ، ولما كان ذلك عسيراً ، فقد قدمنا طلبًا لالتحاقها بالمدينة الجامعية ، وعدنا إلى لندن .

وعندما عدت من الكلية فى اليوم التالى وجدت خطابًا من منير عبد النور رئيس وحدة بحوث المستمعين يخبرنى فيه أن قسم الاستماع بالإذاعة قد أعلن عن مسابقة للتعيين فى وظيفة مترجم للمواد الإذاعية التى تبثها المحطات العربية ، خصوصًا نشرات الأخبار والتعليقات السياسية ، وأننى يجب أن أقدم طلبًا على وجه السرعة إن كنت أحب هذا اللون من الترجمة ! واتصلت تليفونيا بمنير عبد النور أسأله عن التفاصيل فقال لى إننى أستطيع أن أعمل فى عطلة نهاية الأسبوع وأتفرغ باقى الأيام للدراسة ، وفرحت بذلك وقدمت الطلب ، وتحدد يوم الامتحان ، وذهبت إلى مبنى الإذاعة الرئيسى فى لندن وكان الامتحان يستغرق ثلاثة أيام ، الأول للترجمة التحريرية من العربية إلى الانجليزية ، والثانى للاستماع : نشرات عربية يستمع المتقدم إليها ويترجمها كتابة فور سماعها ، والثالث للمعلومات العامة بالانجليزية. وكان عدد المتقدمين نحو عشرين من مختلف الأعمار والجنسيات ، وكنت واثقًا من نجاحى .

وبعد نحو أسبوعين جاءنى خطاب يحدد لى موعداً للمقابلة الشخصية ، فأدركت أن إجاباتى لاقت القبول ، وكان مكان المقابلة خارج لندن ، فى مكان يدعى كافرشام Caversham وهى قرية على مشارف بلدة ريدنج Reading (تنطق ردنج reding) التى

تبعد عن لندن نحو ٣٥ ميلاً يقطعها القطار فى نحو نصف ساعة ، وهى فى منتصف المسافة بين لندن وأوكسفورد . وعندما ذهبت للمقابلة وجدت لجنة من خمسة أشخاص ، وتلفّتُّ حولى أنظر باقى المتقدمين فلم أجد أحداً ، فتفاءلت . ورأيت بين أعضاء اللجنة رجُلاً قصيراً أصلع الرأس، أسمر الوجه وعيناه خضراوان ، كان يتكلم الانجليزية بلكنة أجنبية ، وعرفت فيما بعد أنه مصرى ، واسمه حمدى الجمل ، وكان رئيساً لقسم الترجمة العربية . وكان من أعضاء اللجنة رجل أحمر الوجه شعره أبيض ويتكلم الانجليزية بلهجة تشبه لهجة أبناء وسط أوربا ، عرفت فيما بعد أنه ألمانى الأصل يدعى بريم Brehm ويعمل مراقباً للإنتاج ، أما رئيس اللجنة فكان مستر شرينجهام ، الذى كان يعرف العربية وكانت زوجته مصرية ! واقتصرت فى حديثى على الإجابة على الأسئلة ، وكنت صريحاً فى كل ما قلته حتى لو أدى ذلك إلى ضياع الوظيفة ، فقلت لهم إننى طالب ، وإننى لا أنتوى العمل بالترجمة مدى الحياة ، وإن هدفى الأوحد هو كسب المال ، وإن زوجتى مصرية تعيش معى فى لندن ، وإننى لا أعتزم ترك الشقة، فقال أحدهم ولكنك ستضطر أحياناً إلى العمل مساءً وقضاء الليل هنا ، فأسرع شخص آخر وقال يمكننا أن نهيئ لك سكناً مؤقتاً ليلة أو ليلتين فى الأسبوع . ثم انصرفت .

وبعد نحو أسبوعين وصلنى خطاب يقول كلاماً غريباً « إننا مهتمون بالطلب الذى تقدمت به ، وسوف نعلمك بالنتيجة قريباً ، ونرجو أن تخطرنا إذا التحقت بعمل آخر فى هذه الأثناء ». كنا فى مارس وكنت قد بدأت العمل من جديد فى الرسالة ، ووصل نهاد خطاب القبول النهائى من جامعة ساسكس ، وكان ما لدينا من المال لا يكفى للمصاريف الدراسية ، ناهيك بمصاريف المواصلات وإيجار الشقة ! ولم ينقض أسبوع آخر حتى جاء خطاب القبول من الإذاعة ، ويتضمن سؤالاً عن الموعد الذى أحب أن أبدأ العمل فيه . وذهبت إلى المشرف أسأله ما أفعل ، فقال إن كنت ستنتهى من الرسالة فى مايو فابدأ العمل فى يونيو . واتفقت مع نهاد على أن تكون لندن هى قاعدتنا التى ننطلق منها إلى برايتون وردنج ، ومن ثم كتبت الرد المطلوب .

وكان 'بيت الحديقة' يتكون من أربع شقق ، نسكن فى إحداها وتتكون من صالة كبيرة وغرفة نوم وحمام ومطبخ ، ولكنها كانت تتسم بالرطوبة مما كان يصيبنى بالكحة كثيراً دون أن أدرك السبب ، وإلى جوارها على الطابق الأرضى أيضاً شقة مماثلة يقيم فيها سودانى

يدعى عبد الحليم عباس وزوجته نجاة نجار ، وفى الطابق العلوى (الأول عندنا فى مصر) شقتان يقيم فى أحدهما سودانى آخر هو الطبيب الجزولى دفع الله العاقب وأسرته ، وفى الأخرى نيجيرى عملاق وزوجته الأجنبية (الألمانية) ويصل بين الطابقين درج تتوسطه بسطة فيها تليفون مشترك لجميع السكان . ورغم الشهور القليلة التى قضيناها فى ذلك المنزل فقد كنا نشعر أنه بيت الأسرة حقًا ، وسرعان ما توطدت العلاقة بيننا وبين جيران الطابق الأرضى، فكنا نتزاور ، خصوصًا لأن عبد الحليم كان شقيق حسن عباس (المستشار الثقافى بالسفارة السودانية) وكانت زوجته تعمل فيها ، ولم يكن عبد الحليم قد انتقل إلى المنزل عندما انتقلنا إليه بل كان يقيم فى الشقة دارس للعلوم يسمى محمد على وسرعان ما رحل مع زوجته والرضيع الذى ولد فى لندن .

وكان أمام البيت حديقة فسيحة ، وطريق تقوم الأشجار على جانبيه يؤدى إلى كوبرى بتنى Putny Bridge ، وكثيرًا ما كنا نسير فى الحديقة أنا ونهاد ونعبر الكوبرى ، وكانت مناقشاتنا فى الأدب والحياة لا تنتهى ، وكانت 'صداقتنا' قد بدأت تتخذ طابعًا عميقًا جعل الجميع يعجبون ولا يصدقون أنه لم يمض على زواجنا عامان كاملان ، وكانت تحب القراءة مثلى وتحب المسرح أكثر منى ، فكانت تحفزنى إلى حجز التذاكر بانتظام ، ثم استأجرنا جهاز تليفزيون (إذ لم نستطع شراء جهاز لضيق ذات اليد) فكنا نشاهد البرامج الثقافية والدرامية ، والأفلام أحيانًا ، وأتقنت نهاد فن الطبخ ، ولم تكن تهتم به إلا قليلاً من قبل ، وكانت لدينا فى الشقة مدفأة عجيبة تتكون من أحجار بالغة الثقل فهى قطع مكعبة من الصخور الطبيعية ولها خاصية الاحتفاظ بالحرارة ساعات طويلة وحولها ملف كهربائى يعمل ليلاً حين يكون التيار الكهربائى رخيصًا ثم تحتفظ بالدفء طول اليوم ، ثم تعلمت نهاد بنفسها الكتابة على الآلة الكاتبة ، وعلى مدى شهور شُغل كل منا بالاستعداد لمرحلة جديدة فى حياته - الدراسة لها والعمل لى والسفر لكلينا !



نجاة النجار من السودان وجريس الهندية ١٩٦٨

وفى يوم ٢٩ مايو ١٩٦٨ (يوم الأربعاء) وصلتنى برقية من كافرشام تقول إننى يجب أن أذهب فى الغد لتوقيع العقد والشروع فى العمل ، ورافقتنى نهاد فى تلك الرحلة ، فسعِدَتْ أيّما سعادة بجو الريف ، ودَخَلَتْ معى مبنى العمل ولم يستغرق توقيع العقد دقائق ، ثم تجولنا فى الريف المحيط بالمبنى ، وعدنا أدراجنا إلى المنزل فى لندن ، وقد توارت أحزان الصيف الأليم فى العام السابق تمامًا ، وبدأنا نحس أننا على أعتاب حياة جديدة . كنا قد اتفقنا على أن أعود للدراسة (الدكتوراة) بعد أن تنتهى هى من الماجستير ، ومن يدرى ، لعلنا ندرس معًا للدكتوراه ! كان الأمل الذى يحمله العمل هو وجود المال ، وكان الافتقار إليه هو مصدر المتاعب الأول فى حياتنا .

وبدأت العمل يوم الجمعة وكانت النوبة مسائية فقضيت الليل لأول مرة خارج المنزل فى بيت ضيافة ملحق بالعمل يسمونه Sanatorium أى المصحة لأنه كان يُستخدم مصحةً يومًا ما ، وفيه تعرفت على بعض الضيوف الأجانب وقابلت بعد أكثر من عامين - عبد اللطيف الجمال ! كان قد قضى العامين فى ألمانيا ولا هم له إلا تعلم الألمانية ، حتى حدثت النكسة فعاد إلى لندن ، وقد أفلس إفلاسًا تامًا ، حتى لم يكن فى جيبه ثمن تذكرة المترو ، وكان المتقدمون لامتحان الترجمة فى ذلك العام قد رسبوا جميعًا فتقدم هو ونجح ، وبدأ العمل فى يناير ١٩٦٨ واستقر به المقام فى بيت الضيافة ولم يكن يريد أن يغادره أبدًا ! وعملت السبت والأحد وعدت إلى لندن يوم الاثنين ، ولولا صحبة الجيران الجميلة لما تمكنت نهاد من تحمل الوحدة والوحشة !

كان عملى فى أول أسبوعين هو التدريب فقط ، فكنت أُترك وحدى فى غرفة صغيرة يسمونها cubicle (أى المكعب) وأترجم ما أسمع بالعربية إلى الانجليزية على الآلة الكاتبة، وكان من شروط التعيين القدرة على استعمالها بسرعة 'معقولة' هى ٣٥ كلمة فى الدقيقة ، وكانت سرعتى ٤٠ ، وإن كنت أذكر أن زملائى فى الإذاعة المصرية كانت تصل سرعتهم إلى ٦٥ كلمة (مثل قريصاتى ونابليون طانوس) ولكن الترجمة عمل لا يأتى بالملال أبدًا ، فالأساليب متفاوته ، والموضوعات منوعة ، والصياغة تتطلب جهدًا خلاقًا ، وعندما اطمأن قلبى إلى سير التدريب ، عدت إلى الرسالة ، وذهبت إلى الكلية فى يوم الثلاثاء لمقابلة المشرف.

وعلمت منه أن موعد التقدم لامتحان هذا الفصل الدراسى قد فات ، وأنه من الأفضل أن أنتظر إلى سبتمبر ، خصوصًا حتى أستعد للامتحان التحريرى ! ودهشت . أى امتحان ؟ لم أكن أعلم أن هناك امتحانًا تحريريًا فى خلفية البحث (أى فى القرن التاسع عشر كله) وأنني يجب أن أستعد له فلا يدرى أحد من سيكون المصحح ! وسألته عن الكتب التى يوصيني بقراءتها فوعدنى بإعداد قائمة ، وفعلاً أرسل لى القائمة بالبريد ، وكانت تزيد على ثلاثين كتابًا!

وخرجت أنا ونهاد فاشترينا بعض الكتب ، وكنا نقرؤها معًا وتمتحنني فيها ، فكانت أيامًا حافلة بالعمل الممتع ، وأذكر أنني جعلت أقرأ لها أشعار (بايرون Byron) وهى نصف مهتمة، ثم دارت الأيام وتخصصت هى (فى الدكتوراة) فى مسرح بايرون ! وفى أوائل يونيو وصلني خطاب غريب من سمير سرحان يقول فيه إنه يكتب لى من نيويورك بعد زيارة واشنطن للاستعداد للسفر (بالحرف الواحد « للسفر ! أى والله للسفر ! فلقد حصلت على الحبيبة وسوف نسافر أنا ونهاد فى منتصف الشهر القادم ») ويقصد بالحبيبة الدكتوراة ، أما نهاد الأخرى فهى نهاد جاد زوجته (رحمها الله) .

وفرحت فرحًا شديدًا إذ قال إنه سوف يتوقف فى لندن ليرانى وحتى نصل ما انقطع ولكننى أستبق الأحداث هنا ، فلم يكن صيف ١٩٦٨ بأهدأ من صيف ١٩٦٧ ، وإن كان فى جبهات مختلفة ، فلأعد إلى أوائل يونيو وما كنا بصدده فى ذلك الشهر ، بعد أن سمعنا عن احتكاك الاتحاد السوفييتى بالنظام فى تشيكوسلوفاكيا بعد تولى دوبتشيك الذى كان يدعو للإصلاح السياسى مقاليد الحكم فى ذلك البلد ، وبعد أن سمعنا إدوارد هيث ، زعيم حزب المحافظين الذى كان يمهِّد لتولى السلطة فى المستقبل بعد حزب العمال ، وهو يتفاخر بأن القوات الأمريكية قتلت عشرة آلاف فيتنامى فى حملة واحدة ! كان العالم يتغير بسرعة أكبر مما توقعت !

النهــر والروافــد



إذا كانت الكتب التى عكفنا عليها أنا ونهاد فى ذلك الصيف هى التيار الرئيسى لما نكتسبه من معرفة ، فلقد كانت لمجرى النهر روافده وهى دفقات الوعى التى تصب فيه وتختلط به ، فتكسب المياه ألوانها الخاصة ومذاقها المتميز ، وأعنى بدفقات الوعى إدراك كل منا لما يجرى من حوله فى العالم ، وقد تلتقى هذه الروافد وقد تتعارض ولكنها تمتزج فى التيار الرئيسى آخر الأمر ، وكانت الصحف اليومية وصحف نهاية الأسبوع هى المصدر الرئيسى لوعى كل منا ، وكلما أضيف رافد جديد إلى تيار الماء تغير لونه واتسع مجرى النهر ، وكان من هذه الروافد فى صيف ١٩٦٨ أنباء ثورة الطلاب فى فرنسا ، وكان يقال إنهم يثورون على البنيوية باعتبارها مذهبا فلسفيًا ونقديًا لغويًا ، وراعتنا ردود الفعل الانجليزية إزاءها ، فرئيس الجمهورية شارل ديجول رجل شامخ وشخصية ساحرة ولكن الانجليز يقولون إنه يفكر بعقلية القائد العسكرى الذى يعتبر الثورة تمردًا والتمرد خيانة ، وزعيم الحزب الاشتراكى فرانسوا ميتران ، الذى كان فى الثانية والخمسين تقريبًا ، يتحدث بتؤدة وبمنطق الخبير ، فيكتسب

الأنصار من الشباب ، ويتوسل فى ذلك برأس حربة (على حد تعبير الصحف الانجليزية آنذاك) تتمثل فى كوهين بنديت ، الذى كان يُطلق عليه زعيم اليسار الجديد ، وكان عالى النبرة حاد التعبير ، فاتبعه ملايين الطلاب ، وأغلقت جامعة السوربون أبوابها للمرة الأولى منذ إنشائها قبل ٧٠٠ سنة ، وامتد الإضراب ليشمل العمال والموظفين وكادت فرنسا أن تواجه الشلل الكامل فى الحياة العامة ، ولم تكن الصحف البريطانية تبدى التعاطف مع أىّ الطرفين، فبريطانيا تنفر من 'شخصية' ديجول لأنه يمثل الوطنية المتطرفة ، ولأنه كان يذكى فى نفوس الكبار نار المنافسة القديمة بين انجلترا وفرنسا على سيادة 'ما وراء البحار' إبان عصر الاستعمار القديم ، وبريطانيا تخاف اليسار الجديد لأنه يذكرها بالثورة الفرنسية ويهدد بنشر أفكار التغيير فى بلد أشد ما يقض مضجعه هو التغيير الثورى . ولذلك لم نجد فى الصحف التى نقرؤها تحليلاً لجذور الإضراب والاضطراب بل أنباء 'الفوضى وغياب النظام الذى ينذر بالخراب' .

ولما كنت قد أصبحت شكاكًا أومن بالتريّث وبعدم التسليم بصحة أى شيء قبل التحقق منه ، فقد لجأتُ إلى المستر ويلكينز (Wilkins) أستاذ اللغويات (علم اللغة) الذى كان متخصصًا فى اللغة الفرنسية ، والذى كان كثيرًا ما يحدثنا عن المناهج النقدية واللغوية الجديدة ، ومنها البنيوية ، وكانت له زوجة فرنسية ، وكانت تربطه علاقة حميمة بكلية بدفورد وكان يزورها بانتظام قبل الانتقال (وهذه من المصادفات العجيبة) إلى جامعة ردنج التى انتقلتُ إليها فيما بعد . وكان ويلكينز دائم التردد على غرفة الأساتذة (استراحة الأساتذة والدراسات العليا) وكنا يوم الثلاثاء ٤ يونيو ١٩٦٨ حين قصدت إلى الاستراحة المذكورة فلم يخب ظنى ، إذ كان واقفًا وحده بجانب الباب الزجاجى المفضى إلى الحديقة (French win-dow) ، وعندما شاهدنى حيانى وقال لى 'الكلية مهجورة هذا الصباح' ، وفهمت أنه يستفسر عن سبب غياب الأساتذة دون مبرر ظاهر ، رغم أن يوم الثلاثاء يوم عمل مهم ، فذكرت له أن الجميع يتناولون مأدبة غداء رسمية أقامتها الكلية للمديرة (Principal) التى تقاعدت . (وهذه هى الوظيفة الإدارية التى تتضمن مهام العميد لدينا ولكنها ليست وظيفة أكاديمية) .

وبعد الكلمات التقليدية عن جو يونيو، وهم يسمونه يونيو الملتهب (flaming June) (وتستخدم هذه الصفة على مستوى اللغة الدارجة باعتبارها من ألفاظ السِّباب ، ربما بسبب إشارتها إلى الجحيم) سألت الأستاذ عن سر استمرار هياج الطلبة بعد أن وافقت الحكومة

الفرنسية على رفع المرتبات بنسبة 'غير معقولة' هي ٣٥ ٪ ، فكنت كمن ألقى بحجر في الماء ، فانداحت الدوائر التي تتسع باطراد ، إذ شرح بإيجاز أن نظام التعليم الفرنسي يقوم على التلقين (instruction) لا على التربية (education) وأسهب في تبيان الفرق ، وهو ما كنت أعرفه خير المعرفة ، ثم قال ما لم أكن أعرفه وهو أن اعتراض الطلاب على ما تسميه الصحافة البريطانية بالمناهج أو بالمقررات المعتمدة قديم ، وثورتهم عليها 'موثقة' (أي مسجلة) في العديد من مطبوعاتهم ونشراتهم التي ازداد عددها زيادة مذهلة في الخمسينيات ، وكان من دوافعها الباطنة تيار التمرد الذي اجتاح العالم الغربي كله بعد الحرب العالمية الثانية ، فالكل يثور على تراث الحرب، لأن الحرب كانت تمثل لهم قمة العبث (the absurd) أو البلاهة (العبط؟) لأنها دمرت وأهلكت دون معنى ودون دلالة .

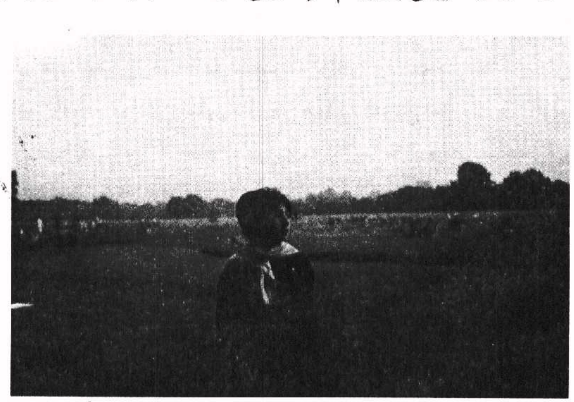
وفي نبرة حماس نادرة قال ويلكينز : « ولكن المرجل الذي يغلي سنوات طويلة لابد أن ينفجر يومًا ما ، وهو يثور على رموز القديم ، رموز الحرب ، والألفاظ الطنانة المرتبطة بذلك كله، والتي تتدفق من رمز الحرب الأول ديجول ! » فقلت له وما شأن البنيوية باعتبارها مذهبًا في اللغة وفي التحليل النقدي بديجول ؟ فابتسم وقال « هذه هي القضية ! ينبغي ألا يكون لها شأن ! ولكن القنبلة كان لابد لها من فتيل يفجرّها ، وكانت الثورة على البنيوية هي هذا الفتيل!» وابتسمت وقلت له مداعبًا : كان أولاً مرجلا caulderon ثم أصبح قنبلة ؟ فضحك وقال : أنت لا تقبل خلط الاستعارات مثل البنيويين ! وأحسست أن الجو قد هدأ فاستزدته فقال :

« يتفاخر الفرنسيون بأنهم ملوك تحليل النصوص ، وهم يعتزون كل الاعتزاز بطاقة 'العقل الفرنسي' الإبداعية على الغوص وراء العلاقات المتداخلة بين المعاني والأبنية ، ويرون أن آفاق التحليل 'لا محدودة' بل و 'لا نهائية' فإذا ببعض الأساتذة يدعون إلى اتباع أساليب شكلية محضة ، بل ويقطعون بأنها صادقة دائمًا ، لأنها مثل نظم الأبنية النحوية في اللغة ، ذات جذور عميقة في نفس الإنسان بل وفي حياته البيولوجية ، **وإذا بهم يحاولون تلقينها الطلاب !** » وقلت له إن لهذه الأبنية جاذبيتها ودلالتها ، والدراسة الأدبية تؤكد فائدتها في التحليل ، وقبل أن أسترسل قاطعني قائلاً :

« أنا لا أنكر ذلك ، ولكن الطلاب كانوا يريدون أن يثوروا وبدأوا بالثورة على من يفرض عليهم منهجًا ، خصوصًا إذا كان المنهج 'مستوردًا' من الشرق ومن الغرب ! » وفهمت أنه

يشير إلى ياكوبسون (جاكوبسون) الروسى وتشومسكى الأمريكى ، فقلت له إن المعرفة عالمية، وإن الأدب هو الأدب ، فأومأ وعلت وجهه سحابة تأمل عميق ثم قال : « للأسف ! لم ينظر أحد إلى البنيوية باعتبارها منهجًا قابلاً للنقض ، بل اتخذها الطلاب ذريعة لتفريغ شحنة غضبهم من نظام التعليم الفرنسى ، ومن ورائه نظام الحياة برمته وقالوا إنه كان يجب بعد الحرب أن يتغيّر فإذا به يتحجرّ ! إن ديجول ما يزال يعلن عظمة فرنسا ، وبالأمس زار مقاطعة كيبيك فى كندا وقال إنها فرنسية ، ورغم استقلال الجزائر فما يزال يشير إليها باعتبارها أرضًا فرنسية!» .

ونهض ويلكينز ثم نظر فى ساعته فعلمت أن الموضوع أكبر من أن يحسم فى ساعة الغداء ، فنهضتُ أنا أيضًا وسرتُ معه ونحن نستكمل الحوار فى الطريق إلى سيارته ، وعندما فتح باب السيارة قال لى : هل قرأت دريدا (Derrida) ؟ فأجبت بالنفى ، فقال سوف تسمع عنه كثيرا وتقرأ له ، وسوف يهلل الفرنسيون له ويكبرّون لأنه فرنسى ، وإن كان جزائرى المولد! وهو لا يبنى بل يهدم ! إنه روح هؤلاء الشباب ! وانطلق بسيارته باسمًا .



فى الحديقة عام ١٩٧١

وعدت إلى المكتبة حيث كان علىّ أن أفْرَغَ من تنظيم قائمة المراجع التى ستوضع فى ذيل الرسالة ، وكانت المكتبة شبه خالية ، فالشمس ساطعة والحديقة تغرى الجميع بالتنزه ، ولكننى كنت راضيًا بالنظر من الشباك الكبير بين الفينة والفينة إلى النباتات اليانعة بلونها الأخضر الزاهى ، وأحواض الزهور المتناثرة هنا وهناك ، ثم العودة إلى أوراقى. وفى الخامسة مساءً خَرَجْتُ أسير وحدى وأنا أفكر فيما قاله أستاذ علم اللغة ، وعندما وصلت إلى المنزل وجدت نهاد تتحدث بحماس عن ثورة الطلاب فى فرنسا ، وشاهدنا أخبار الساعة

السادسة فى التليفزيون ، وكان أهم ما فيها قرار العمال الفرنسيين بالإضراب يومى ١١ و ١٥ يونيو ، وبعدها تناولنا العشاء وعدنا للقراءة .

وذهبت إلى كافرشام يوم الخميس مساءً وقضيت الليلة فى بيت الضيافة وفى الصباح زرت عبد اللطيف الجمال فى غرفته فوجدته يقرأ رواية بالألمانية لتوماس مان ، وجعل يحدثنى عن ذلك الكاتب حديثًا مسهبًا ، واقترح ألا أعود إلى لندن وأن أقضى اليوم معه ، فأخبرت نهاد تليفونيًا ، ثم خرجت معه إلى وسط البلد (ردنج) سيرًا على الأقدام وهو يحدثنى عن توقف عمله فى الرسالة ، واهتمامه برصد تأثير نيتشه على أ.أ ريتشاردز ، وكان يقرأ نيتشه بالألمانية ، وقلت له إن شكرى عياد نصحنى بأن أنتهى من الرسالة وأعود ، فقال عبد اللطيف دون اكتراث : تعود ؟ وماذا فى مصر يمكن أن تعود إليه ؟ وأجبته إجابة كنت أظنها مقنعة ، ولكنه قال إن مصر تمر بمرحلة انكسار ، والأفضل لمن جعل القراءة عمل حياته أن يعيش خارجها ، وكان ردى على ذلك 'معقولاً' أيضًا ، ولكنه كان يبدى من اللامبالاة ما أقنعنى بعدم الرد ، وذهبت إلى العمل فى المساء ، وفى الصباح سمعنا نبأ اغتيال بوبى (روبرت) كينيدى، شقيق جون كينيدى الذى كان قد اغتيل أيضًا قبل خمس سنوات ! وقلقت لأن القاتل كان اسمه سرحان بشارة سرحان ! فماذا سيكون تأثير ذلك فى موقف أمريكا من العرب ؟ ولم يكن قد مضى على اغتيال مارتن لوثر كنج إلا نحو شهرين ، وكنا ما نزال نتابع مسيرات الزنوج والفقراء فى أمريكا ، وعدت إلى لندن وقد بدأت هموم الأنباء تثقل فكرى ، وقضيت مع نهاد الأيام الأربعة التالية ونحن نتابع تلك الأحداث ، وإذا بأحد الأصدقاء يحادثنى تليفونيًا ويقول لى إن الطلاب فى مصر قاموا بمظاهرات صاخبة وإن جمال عبد الناصر ألقى فيهم خطابًا مهمًا ، وأبديت الرغبة فى أن أستمع إليه فأتى لى الصديق بالشريط (وما زلت أحتفظ به) وسمعناه مرات عديدة ، حتى فيما بين فترات القراءة والاستذكار !



لم يحدث فى يوليو (شهر الثورات) شىء مثير أو ثورى ، سوى وصول خطاب سمير سرحان ، وتوقع وصوله فى أغسطس ، وكان قد أرسل شريطًا صوتيًا به معظم الأغانى الجديدة، وكانت الشرائط آنذاك بكرات مستديرة تتراوح مدتها الزمنية بين ساعة وأربع ساعات وفقا لطول الشريط وإمكانيات الجهاز وسرعة التسجيل فإذا استخدمت التراكات

tracks (أى المجارى الممغنطة) الأربعة والسرعات البطيئة فقد يستغرق الشريط ١٦ ساعة ! وكانت رسائلنا سجلاً حافلاً لكل ما يدور فى حياتنا الخاصة والعامة ، وما أزال أعود إليها كلما ضاقت بى الدنيا لأستروح نسمات الماضى . وفى يوم ٢٠ أغسطس وصل سمير سرحان مع نهاد جاد (زوجته) إلى محطة فكتوريا بالقطار من ساوثهامتون Southampton حيث رست السفينة التى ركباها فى نيويورك ، وقابلتهما فى المحطة وعدنا إلى المنزل ، وسهرنا نحن الأربعة ، ولم ننم إلا بسبب الإرهاق ، وفى الصباح ، وكان يوم الأربعاء ٢١ أغسطس ، فتحت الراديو لأسمع أنباء الغزو السوفييتى لتشيكوسلوفاكيا (الذى شاركت فيه قوات حلف وارسو وتركت الجميع نائمين وخرجت لشراء الإفطار والبحث عن صحف المساء (وأولاها كان يصدر فى العاشرة) إذ لم تكن أنباء الغزو قد نشرت فى صحف الصباح ، لأن القوات تحركت ليلاً ودخلت براغ فى الرابعة صباحًا ، فوعدنى بائع الصحف بإرسال النسخ إلى المنزل حالما تظهر. وما أن استيقظ الجميع حتى كانت الصحف بين أيديهم .

وقرأ سمير الصحف باهتمام ، فهو قارئ نهم ، وقال بسرعة حين لاحظ انزعاجى « يعنى كنت عايزهم يسيبوا ألكسندر أفندى يفركش العملية ؟ » وضحكت من أعماقى ، وكانت ضحكة صادقة لم أضحك مثلها منذ يونيو ١٩٦٧ ، فهو يتمتع بقدر كبير من اللماحية الفكهة، ورغم ما شاع عن ميله لكتابة التراجيديا وميلى لكتابة الكوميديا فنحن نشترك فى الإيمان بضرورة رؤية كل شىء من مختلف زواياه ، وتعدد الزوايا يكفل اكتمال الرؤية ، كما أنه يتيح النظر من زاوية الفكاهة ، وهى الزاوية التى ينظر منها الكاتب الساخر ، والتى لا غنى عنها لأى كاتب . وبعد المناقشات المحتومة انطلقنا إلى محطة فكتوريا أولاً للسؤال عن معطف كان سمير سرحان قد نسيه فى القطار ، وما إن سألنا عنه حتى أتى به الموظف فحمله سمير على ذراعه وخرجنا لقضاء اليوم فى ربوع لندن .

كانت كل زيارة يقوم بها سمير سرحان إلىّ فى لندن تملؤنى بالثقة فى المستقبل ، وتؤكد لى أن مشاغل الحياة العامة التى بدأت أهتم بها يجب أن تحتل المرتبة الثانية أو الثالثة بعد الدراسة والحصول على الشهادة ، وروى لى تفصيلاً كيف فرض على نفسه العمل يوميًا فى الرسالة وكان يكتب 'صفحة واحدة على الأقل' كل يوم حتى يضمن انشغاله بالموضوع وعدم انصراف ذهنه إلى أى شىء آخر ، وتمنيت فى أعماقى أن أستطيع ذلك ، ولكن ولعى المشبوب

بالقراءة 'خارج الرسالة' وبالناس ولغتهم ولهجاتهم كان كثيرًا ما يشغلنى عن التخصص ، وكان عملى الجديد بالترجمة ، على ما فيه من جاذبية وسحر ، مرهقًا فإذا قام المراجع الانجليزى بتعديل عبارة كتبتها أو تصحيح خطأ وقعت فيه ، جعلت همّى أن أدرس السبب ، خصوصًا بعد أن قرأت كتابًا عن الأساليب ، وأصبحت مشغوفًا بفنون صنعة الكتابة ، وقد انتهى بى ذلك الشغف إلى أن سجلت موضوع الدكتوراه فيما بعد فى 'الأساليب الشعرية' وكيف تطورت من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية .

ورحل سمير ونهاد جاد بعد يومين ، وبدأت زهور الصيف تذوى ، وعندما حل الخريف اصطحبت نهاد إلى المدينة الجامعية فى جامعة ساسكس ، وقضيت ليلتين وحدى ، وفى السادسة صباحًا فى اليوم الثالث أيقظنى رنين التليفون من تلك الجامعة ، وكانت المتحدثة هى المشرفة على بيت الطلاب ، وأمرتنى بالحضور فورًا . وعندما ذهبت بعد نحو ساعتين قالت لى المشرفة إن نهاد لا تستطيع تحمل الحياة وحدها هناك ، وإنها (أى المشرفة) قد استصدرت لها استثناءًا بأن تقيم فى لندن ، وتأتى مرة فى الأسبوع لمقابلة الأستاذ ، وكان الأستاذ هو العلامة الاسكتلندى ديفيد ديتشيز Daiches .

وبدأت نهاد دراستها الجادة للماجستير ، وكان النظام أمريكيًا مستحدثًا يتطلب الجهد المستمر طيلة العام الدراسى ثم كتابة بحثين فى تخصصين متكاملين ، واختارت نهاد تخصص الرواية وتخصص الدراما ، وكانت تسافر وحدها مرة فى الأسبوع ، وكنت أسافر أنا إلى كافرشام فأقضى ليلة أو ليلتين خارج لندن ، وبدأت اهتماماتى بالترجمة واللغة تستغرق كثيرًا من الوقت الذى كنت خصصته للرسالة ، حتى كدت أيأس ، ولكننى عقدت العزم على الانتهاء منها فى نوفمبر ، واجتزت الامتحان التحريرى بنجاح ، وإن لم أجرؤ على تقديم الرسالة ، فقال لى المشرف إنه يفضّل نقل الإشراف إلى أستاذة أخرى تحتمل تلكؤى وتباطؤى، فقابلت رئيسة القسم وهمست لى إن المشرف مريض والأفضل أن أعمل مع الأستاذة أجنيس ليثام Agnes Latham فقابلتها وطلبت منى أن تقرأ ما كتبت حتى الآن ، ولم يمض أسبوع حتى استدعتنى وقالت لى « كيف تبذل كل هذا الجهد وتقيم كل هذا الصرح من الدراسة لدرجة M.A فحسب ؟ لسوف أطلب من الجامعة تحويلها إلى .M. Phil – إلا إذا كنت تريد تحويلها إلى دكتوراه » وفزعت لما تقول وأكدت لها أننى أريد أن أبدأ بداية

جديدة وأن أغيّر الموضوع فى الدكتوراه » فقالت لا بأس ، ثم اقترحت بعض التعديلات فى الفصول وطلبت منى الاستعداد للامتحان المقبل ، أى فى فصل الربيع ، حتى تكون موافقة الجامعة على التحويل قد وردت .

واطمأن قلبى لما قالته المشرفة ، وراجعت نفسى فوجدت أن كلامها صحيح ، وأن الخطة كانت تتميز بالطموح بأكثر مما ينبغى على نحو ما حذرنى منه المشرف ، وقد علمت أنه كان يعانى من مرض عضال لم يمهله إذ توفى مع البروفسور جيفرى تيلوتسون زوج رئيسة القسم فى مطلع عام ١٩٦٩ وكان علىّ أن أعيد تقسيم الفصول ، فعملت جاداً فى إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح ، وقد اكتشفت أن عيوب الصورة الأولى للرسالة (والتى ما زلت أحتفظ بها) كانت تتلخص فى عدد من الملامح التى ترجع إلى طريقتى الخاصة فى التفكير ومن ثم فى الكتابة ألا وهى الاستطراد digression – العدو الأول للبحث العلمى وللكتابة العلمية ، وكان أهم شاهد على ذلك وجود حواش مطولة فى الكثير من صفحات الرسالة ، إذ كان يعنُّ لى خاطر أثناء متابعة الحجة التى أقيمها فى متن الرسالة فأدرجه فى الهامش ، وربما تفرع الخاطر فولّد فكرة أراها مهمة فأتوسع فيها مما يحوّل الإشارة الهامشية إلى حاشية ، وقالت لى المشرفة إن كثيراً من هذه الأفكار يجدر إدراجه فى المتن ، أو إرجاؤه إلى حواش منفصله فى ذيل الرسالة ، وقد فعلت ذلك فى الصورة المعدّلة ، وأجد من الطريف أن الكثير من الكتاب الأمريكيين يفعلون ذلك الآن فى كتبهم – والمثال الحاضر على الاستطراد فى ثنايا المتن نفسه هو ستانلى فيش Fish (خصوصاً فى كتاب أصدره عام ١٩٨٩ بعنوان « التصرف الطبيعى» Doing What Comes Naturally وجون إليس الذى يؤجل الحواشى فى كتابه (اللغة والمنطق والفكر) (١٩٩٣) Language, Logic and Thought إلى مكانها فى آخر الكتاب مثلما فعل فى كتابه (مناهضة التفكيكية) Against Deconstruction (١٩٨٩) ولقد تطور نظام وضع الهوامش marginalia والحواشى endnotes فلم تعد الهوامش (الإشارات إلى الكتب والمؤلفين) توضع فى الهامش بل فى غضون المتن نفسه وأصبحت الحواشى تلحق بالكتاب أى توضع فى ذيله ، أما الاستطراد فى تضاعيف الحديث نفسه فقد أصبح السمة الغالبة على كتابة الكثيرين من كتاب الثمانينيات والتسعينيات ، وأقول بالمناسبة إن ذلك مما يرهق المتخصص الذى قد يبدأ قراءة كتاب عنوانه « النقد التفكيكى » مثل كتاب

ڤنسنت ليتش بهذا العنوان المنشور عام ١٨٨٣ Vincent Leich فيتوقع أن يقدم له المؤلف فصولاً في النقد التفكيكي ولكنه يجد شطحات والتواءات يتوه فيها بين الفكرة ونقيضها ، فيضل ولا يهتدي ، فإذا كان ذلك حال المتخصص فما بالك بغير المتخصص . وذلك هو ، بالمناسبة ، السر في عدم نجاح ترجمة الكثير من أمثال هذه الكتب إلى العربية . ولكن الدفاع التقليدي عن مثل هذا المنهج هو أنه كتاب لا رسالة جامعية ، أي أنه مجموعة من الأفكار وثمار القراءات المنوعة في موضوع واحد يجمع بينها ، ولكن الرسالة هي تسجيل لنتائج بحث علمي، وينبغي فيه التركيز والضغط حتى لا يتشتت القارئ .

ولقد توقفت بعض الشيء عند 'عيب' الاستطراد ، لأنني تعلمت من ممارسة الكتابة النقدية (بل والإبداعية) على مدى الأعوام الثلاثين الماضية أن القارئ بصفة عامة ، ومهما بلغ من تفصيل القول في 'أنواعه' (على نحو ما يفعل إيزر Iser) يبحث عن فكرة واحدة أو فكرة رئيسية ، ويتوقع من الكاتب الإيضاح والشرح والتبسيط ، وكم من كتاب قرأته في غمار جمعي للمادة فعانيت في فهمه الأمرين ، وجهدت حتى أصل إلى مقصد صاحبه ، فإذا بالنتيجة لا تساوي ما بُذل في سبيلها من عناء . ولكنني لم أكن تعلمت الدرس بعد ، وكانت معاناة كتابة الرسالة أو إعادة تنظيم مادتها هي أول خطوة في هذا السبيل .

لقد أكسبني هذا الجهد خبرة لا تقدر بمال ، وتعلمت في خضم 'التعامل' مع الكلمات ومع أبنية العبارات كيف أهيئ القارئ لتلقي النتيجة التي أريد أن أصل إليها ، بالتلميح إلى آراء الثقات أحيانًا ، وبضرب الأمثلة أحيانًا أخرى ، ثم أتدرج في بناء الحجة حتى إذا وصلت إلى المرحلة التي يطمئن قلبي فيها إلى أن طرح مقولتي أصبح يستند إلى دعائم صلبة ومقنعة، صُغْتُها في ألفاظ واضحة وموجزة . وآتت جهودي أُكلها ، فما أن قرأت المشرفة الفصل الأول حتى أرسلت لي بطاقة بريدية (ما زلت أحتفظ بها) تقول فيها حرفيًا ! congratulations " what depth, what lucidity ! " أي إنني أهنئك على العمق والوضوح ، ولقد فرحت بما قالته ، ووجدت فيه عزاءً عن التأخير ، إذ انقضت السنة الثالثة وأنا ما زلت أصوغ وأتأمل ، وقد يكون من المناسب أن أذكر أن تخفيف النبرة كان من عوامل إحكام حرفة الكتابة، إلى جانب تخفيف النبرة بإدراج عبارات الاحتراز ، واللجوء في ذلك إلى تغيير أنماط أبنية العبارات ، وأذكر أنني عدّلت عبارة في الصورة الأولى للرسالة كنت أقول فيها إن الشاعر رغم

إنكاره للإيمان بتناسخ الأرواح أو بنظرية أفلاطون عن عالم المثل (ideas لا ideals) فإنه يوحى بذلك إيحاء صريحًا ، وهذه عبارة قد يقبلها القارئ من شاعر كبير مثل سيسيل داى لويس Cecil Day - Lewis أو أستاذ ضليع مثل ارنست دى سلينكورت Ernest de Se-) lincourt) أو حتى هيلين داربيشر Helen Darbishire (تلميذة الأخير) ولكنه لن يقبلها من دارس مبتدئ، وقد عدّلتها إلى « إن المقولات (statements) الواردة فى قصيدة 'مشاعر الخلود' والتى قد تفهم حرفيًا على أنها تعبير عن إيمان بفكرة فلسفية أو دينية ، قد تكون أسلوبًا جديدًا فى بناء الصورة الشعرية دون استعمال المجاز اللغوى المباشر ، على نحو ما بينته فلورنس مارش فى كتابها الذى سبقت الإشارة إليه ، وإذا كان الشاعر قد أنكر فى شيخوخته (عام ١٨٤٧) فى الحواشى التى أملاها على الآنسة إيزابيلا فنيك Fen- wick أنه كان يؤمن بتناسخ الأرواح أو بأفلاطون ، فربما كان ذلك لأنه تحوّل إلى العقيدة المسيحية التقليدية ، وإن كان ذلك لا ينفى أن القارئ الذى اطّلع على هذه القصيدة عندما نشرت أول مرة عام ١٨٠٧ قد رأى فيها ما يوحى بالإيمان بتناسخ الأرواح أو بالفكر الأفلاطونى » .

الفارق بين التعبيرين شاسع ، فالعبارة الثانية تنتفع بالمقابلات والتبريرات المستندة إلى آراء الثقات ، وهى وإن كانت تخلص إلى النتيجة نفسها ، فإنها تنسب تلك النتيجة إلى 'قارئ' القصيدة فى زمن محدد ، وهو تحرز شائع فى الأسلوب الانجليزى ، لكنه لا يمنع من التعميم ، فليس معنى إحساس القارئ بذلك الإيحاء عام ١٨٠٧ هو أن القارئ لن يشعر به فى عام ١٩٦٨ ، وإن كان التعبير يوحى بالتحرز ، وغنى عن البيان أن جميع العبارات التى سبقت هذه النتيجة تتضمن أساليب الاحتمال والشك مثل « قد تفهم حرفيًا » و « قد تكون أسلوبًا جديدًا » و « إذا كان ... فربما كان ذلك لأنه » وهو مما يوحى بأن الكاتب يتوخى الحذر ، ولا يريد إطلاق الأحكام ، وإن كان فى النهاية يقول ما يريد أن يقوله !

وإلى جانب ذلك كان أسلوب التعديل ينتفع كما قلت بتعديل الأبنية واستخدام تفاوت النبرة عن طريق بناء العبارات التى توحى بأنها ذات أهمية ثانوية (subordination) وهو ما لا يظهر فى الترجمة العربية لعدم ولوعنا بهذا اللون من الأبنية ، وقد ناقشت ذلك فيما بعد فى كتبى عن الترجمة ، ولا أظن أن المجال يتسع هنا للإفاضة فى هذه الأساليب الانجليزية المتخصصة .

استغرق العمل فى رسالة الماجستير فترة أطول مما قدرت لها ، وفرحت أنها تحولت من M.A. إلى M. Phil. فالدرجة الأخيرة 'درجة بحثية' research degree ولكنها ما تزال تسمى الماجستير بالعربية ، ولا تعترف الجامعات العربية بالفرق بين الأولى التى يمكن الحصول عليها بكورسات وامتحان وبين الأخيرة ، فكان لابد من التسجيل للدكتوراه . وكنت فى مطلع عام ١٩٦٩ قد أحكمت صنعة الترجمة إحكاما ، ولم يعد العمل فى كافرشام يستغرق إلا وقتًا محدودًا ، وكنت أقضى عطلة نهاية الأسبوع فيها خارج لندن ، ونهاد تجهد نفسها كل الإجهاد لإعداد الأبحاث المطلوبة منها ، وكان أساتذتها سعداء بها كل السعادة .

وكنت عندما أعود إلى المنزل يوم الاثنين ، أحاول تعويض غيابى بالخروج مع نهاد وكثيرًا ما كانت مناقشاتنا تدور حول بحوثها ، وقراءاتها ، وأحيانًا كنت أصحبها فى القطار إلى الجامعة ، ونخرج بعد مقابلة الأستاذ للنزهة قبل العودة إلى لندن ، ولكن يوم الأربعاء كان يوم المسرح ، وكنا نخرج فى الواحدة ظهرًا فنركب المترو حتى محطة هولبورن ثم نسير حتى مسرح أولدويتش مثلاً ، أو إلى محطة واترلو (Waterloo) ثم نسير إلى المسرح القومى (فى الأولد ڤيك) (Old Vic) ، ولن أنسى يوم أن تأخرنا أو تأخر بنا القطار دقائق معدودة فأخذنا نجرى جريًا حتى وصلنا فى الموعد (الثانية والنصف ظهرًا) ونحن نلهث ولم نكد نجلس حتى بدأ العرض !



وفى يوم السبت ١٩ يوليو عام ١٩٦٩ جاء الدكتور رشاد رشدى لزيارة لندن ، وكان قد حصل على منحة من المجلس البريطانى لزيارة بعض المعالم الثقافية فى انجلترا ، فقابلناه أنا ونهاد وفرحنا به ، كما قابله عبد اللطيف الجمال ، واستأجر غرفة فى منطقة جلوستر رود Gloucester Road فى وسط البلد ، ثم لحق به عبد المنعم سليم الكاتب المشهور ، وكنا نتجول أنا ورشدى فى أرجاء لندن وهو يقص علينا طرفًا من ذكرياته ، وكان يدهش من اختفائى فى عطلة نهاية الأسبوع فى كافرشام ، وعندما علم أننى سوف أسجل للدكتوراه فى

مطلع العام الجديد عرض علىّ العودة إلى مصر ، ووعد بأن يساعدنى فى الحصول عليها بسرعة ، ولكننى رفضت ، فالحياة فى انجلترا لم تكن مجرد تمهيد لشغل منصب ما فى مصر (علمى أو ثقافى) بل وسيلة للنهل من معين لغوى وثقافىّ لا ينضب .

وذات يوم صحبته لشراء زوج من الأحذية ، فقابلنا فتاة من كليتنا تدعى جون مالوى Joan Malloy ، وكان اسمها الأصلى كورديليا مثل اسم ابنة الملك لير فى مسرحية شيكسبير الشهيرة ، وعرفته بها وعرفتها به ، ولم أكن قابلتها منذ سنوات طويلة ، وتحديداً منذ يوليو ١٩٦٦ ، إذ كان من عادتنا أن نتناقش فى الفكر الاجتماعى ربما لأنها تدرس علم النفس وتجرى تجارب بحثها على الكهنة ، وكانت تتردد بانتظام على الكنائس لإجراء المقابلات معهم، وتمكنت من تسجيل شرائط صوتية طويلة لأحاديثهم ، وكانت تستعين بالكمبيوتر - الذى كان فى مهده - فى تحليل نتائجها ، وكانت تحدثنى كثيراً عن شاب يدعى ألكسندر ، يدين بالكاثوليكية ومن ثم فقد أقسم قسم الامتناع عن الزواج طيلة حياته ، وبألا يقرب المرأة ، ولكنه كان يبدو لها 'مادة' صالحة للتجارب ، فهو قوى البنية فارع الطول ، وشعره أحمر وعيناه سوداوان ثاقبتان ، مما جعلها تحدس أنه من أصل أيرلندى ، وكانت كثيراً ما تتحدث عن قوة نفاذ عينيه ، وتسرد التفاصيل الدقيقة عن صوته الدافئ ، وكان يبدو أنها كانت مولعة به ، وهى بيضاء عيونها سوداء ، وذات طول غير عادى ، وكانت تقول إن شكلها يختلف عن الشكل الانجليزى التقليدى الذى يوصف بأنه مثل ثمرة الكمثرى ، فهى ضخمة الصدر نحيلة العجز ، وكان الزملاء يضحكون منها ، وكانت سوزان الأمريكية تقول لها إن هذا هراء ، فالانجليز فى رأيها شعب هجين hybrid (ولو أنها استعملت كلمة يقتصر الانجليز على استعمالها فى وصف الكلاب mongrel مما أغضب جون) .

وخرجنا أنا ورشاد رشدى وجون إلى الطريق دون أن يشترى أحد شيئًا ، وفجأة قال رشدى بلهجة انجليزية تحاكى لهجة أبناء الذوات « دعينى أدعوك إلى العشاء » ورحبت جون فوراً ، ولم أدهش لذلك ، فالانجليز يرحبون بكل ما من شأنه توفير النقود ، وقد يكون التعبير « دعنى أشتر لك عشاء » ولو قالها رشدى للاقت القبول ، وشعرت أن وجودى قد يفسد خطط 'أبو الرشد' ، فتذرعت بحجة واهية ولكنه أصر على أن أصحبهما ، وما أن جلسنا فى المطعم الإيطالى الذى اختارته حتى تفرع الحديث وتشعب ، ولم أشأ أن أترك رشدى يحكى عن

أمجاده في مصر ، فهذا مما لا يقال على مائدة العشاء ، فسألتها عن أخبار ألكسندر ، فانطلقت تحكي أخبار السنوات الماضية :

قالت جون « كانت علاقتي به محكوم عليها بالفشل منذ البداية (doomed) ويبدو أنني أسرفت في لقاءاتي معه ، وفي طرح أسئلتي والاستماع إلى إجاباته ، ويبدو أنني كنت مدفوعة بدافع لم أستطع حتى الآن تحديد كنهه ، فأبحت له أن يعرف عني ما يزيد على ما يطلبه كاهن الاعتراف ، وربما تماديت في ذلك جسديا (ماديا ؟ physically) فأفصح لي عن حقائق لم تكن تخطر ببالي ، وبدأ يتصرف تصرفات غريبة ، أو قل إنني وجدتها غريبة من كاهن نذر على نفسه البعد عن المرأة ، فسألته سؤالاً مباشراً عن علاقته بالشماس (deacon) الذي كنت كثيراً أراه يحوّم حولنا أثناء حديثنا في الخلوة ، فقال لي إنك فتاة بارعة الذكاء .. كيف عرفت وجود علاقة ؟ ونحيت المسألة بلا اكتراث حتى لا أقطع سيل حديثه فجعل يقسم أغلظ الأيمان أنه وإن كان يعينه في قضاء وطره إلا أنه لم يعشق سواي ، وأنه منذ أن عرفني قد نبذ صغار الشمامسة (sextons and sacristans) من ذوي الجمال الأخاذ ، وسألته صادقة : هل لي أن أسجل ذلك في المذكرات الخاصة ببحثي ؟ فتلعثم وقال إنه حائر لا يدري ما يصنع ، وقررت آنذاك أن أمتنع عن زيارته خوفاً عليه » .

وتمهلت جون وهي ترشف قدح النبيذ الإيطالي الأحمر ، ونظرت إلى الشجرة التي تتدلى أغصانها فوق الشرفة التي نجلس فيها كأنما تبحث عن الكلمات الصحيحة ثم قالت في تؤدة « أظنها قصة معروفة لكم أيها الأدباء ، ولكنها كانت جديدة عليّ كل الجدة . إذ أخذ الكسندر يتردد عليّ بانتظام ، وأستطيع الآن بما تتيحه القدرة على التذكر من إصدار الأحكام الصائبة (with the benefit of hindsight) أن أقول إنني كنت أحبه ولم أكن أريد له ذلك المصير المؤلم » . وصمتت فقلت لها أستحثها : « هل ترك الكنيسة ؟ » فقالت بل أصيب بصدمة عصبية أدت إلى انهياره النفسي ، ونقلوه بعد شهور معدودة إلى مستشفى الأمراض النفسية ، حيث كان يصاب أحيانا بوجوم واكتئاب يمنعه من الكلام أياماً ، وأحياناً بهياج يستلزم استخدام القوة للسيطرة عليه » .

وكان رشدي صامتاً طوال الوقت ، ثم نطق أخيراً فسألها « أما يزال هناك ؟ » فردت على الفور « لا بل انتحر المسكين ! وكان من الحالات التي سجلتها في الرسالة فكانت من

دراسات الحالة (case studies) التي أعجبت المشرف ، بل إنه طلب إدراج صورة ألكسندر في الرسالة ، ووافقت ، وسوف تطبع الرسالة قريبًا » .

ونظرت في ساعتي حتى أنبه الحضور إلى أن الوقت قد تأخر ، وأن عليّ أن أعود إلى نهاد ، فسمحا لي بالانصراف ، وعندما قابلت رشدي بعد ذلك كان يتحاشى ذكر جون مالوي تحاشيًا مطلقًا ، ولم أشأ أن أسأله عما حدث بعد رحيلي ، احترامًا لصمته .

ولم يكتب لي أن أقابل جون مالوي بعد ذلك مطلقًا ، خصوصًا بعد انتقالنا إلى ردنج ، ولكن قصتها ظلت مخطوطة في المفكرة ، وكنت كلما قرأتها أتساءل عما تراه قد حدث لها مع آخرين ، وكنت كثيرًا ما أتطلع إلى الكتب الجديدة لعلي أرى رسالتها المطبوعة ، ولكنني لم أوفق في ذلك أيضًا ، وعندما قصصت القصة على نهاد قالت لي « إنها عقدة نفسية متحركة!» وعندما عدت إلى مصر بعد سنوات وتعمدت ذكر اسمها في سياق حديث عابر لرشاد رشدي لم يعلّق ، وحوّل وجهه عني (عامدًا ؟) كأنما ليتحاشى الإشارة إليها .

وكانت نهاد مشغولة آنذاك بكتابة بحث عن كوميديا المسرح الانجليزي ، بعد نجاحها في كتابة بحث مطوّل عن جوزيف كونراد ، وكانت تتردد أثناء الصيف على رودني هيلمان ، الذي كان يتولى الإشراف على هذا البحث ، وكانت تقص على أنباء زميلاتها مثل 'نولا' الكندية ، وبداية انشغالها بالبحث في المسرح ، وأعتقد أن تلك هي بداية غرامها بالمسرح الذي يزداد اشتعالاً على مر الأيام .

وفي أكتوبر حصلت نهاد على الدرجة ، وإن كان موعد حفل تسليم الشهادة هو ديسمبر ١٩٦٩ ، وكنت أنا قد اتفقت مع كريستوفر سالفسن Salvessen وهو مدرس (محاضر) في جامعة ردنج ومؤلف كتاب شهير عن وردزورث هو **The Landscape of Memory** على تسجيل الدكتوراه اعتبارًا من يناير ١٩٧٠ ، أي بعد انتهاء نهاد من الماجستير ، وحتى أكون قريبًا من محل العمل ، واتفقت أنا ونهاد على الانتقال إلى ردنج ، فلقد أحبت الريف وأصبحت تكره الزحام في المدينة ، كما كانت تتطلع إلى العودة إلى العمل بعد الانتهاء من الدراسة . وكان سالفسن اسكتلنديا لطيف المعشر ، وافق على الموضوع والعنوان ، ووافق رئيس القسم جوردون المتخصص في ييتس (W. B. Yeats الشاعر الأيرلندي المشهور) ولم يعد أمامنا في أكتوبر سوى البحث عن مكان للإقامة في أحضان الطبيعة خارج لندن .

ووجدنا شقة خالية وغير مؤثثة للإيجار فى مجموعة من المساكن الجديدة التى أقامتها إحدى الشركات العقارية فى شارع داربى Darby Road الذى لا يبعد عن محل العمل إلا ميلاً واحداً ، ولا عن وسط قرية كافرشام إلا بضع مئات من الأمتار ، ولكن المساكن كلها مقامة وسط الطبيعة الخلابة ، وتحيط بها مساحات خضراء شاسعة ، ويصطف الدوح على جنباتها، وكانت الطرق إما مرصوفة أو معبدة بالزلط ، وعلى الجوانب مجار لمياه الأمطار تؤدى إلى خزانات أرضية حتى لا تتجمع فى برك أو تنصرف إلى مجرى نهر التيمز Thames القريب من القرية ، وكان هناك كل ما نحتاجه من الأثاث : منضدة تصلح مكتبًا ، وسرير ، وبعض الكراسى ، إلى جانب أدوات المطبخ (التى نقلناها معنا من لندن) واشترينا ثلاجة جديدة بنحو خمسين جنيهًا ما تزال تعمل عند أحد معارفنا (منذ نوفمبر عام ١٩٦٩) وكانت إيطالية الصنع ماركة إندسيت (Indesit) ، كما ذهبت إلى أحد المزادات فاشتريت جهاز طهو (موقد وفرن) يعمل بالغاز الطبيعى بجنيهين وكان فى حالة ممتازة ، وقد أعطيته عند رحيلى لصديق فلسطينى يدعى دهّام العطاونة ، وما يزال يعمل كما اشتريت من المزاد خزانة ذات أدراج بجنيهين ، ومرآة كبيرة بجنيهين (تركناهما) ومرآة مستطيلة لا تزال لدينا بخمسة جنيهات ، وباعنى زميل عراقى درسوار Sideboard (Dressoir) ومنضدة وكرسيين وسجادة (كلها بأربعة عشر جنيها) وما يزال الدرسوار لدينا ، وكانت الشقة لا تحتاج إلى تدفئة خاصة ، فبالمنزل تدفئة مركزية ، وكان الإيجار الشهرى ٢٦ جنيهًا .

واستقر بنا المقام فى جو هادئ بل وشاعرى ، وسجلنا اسمينا عند أقرب طبيبة تابعة لهيئة الصحة الوطنية National Health Service (مثل التأمين الصحى لدينا) واسمها مونيكا لاتو Monica Latto وكانت من اسكتلندا هى وزوجها ، (وفى أوائل السبعينيات أهداها زوجها سيارة حمراء بمناسبة العيد الخمسينى لزواجهما ، وفى عام ١٩٩٧ قامت نهاد وابنتى سارة بزيارتها وكانت ما تزال فى قيد الحياة) وكان خريف عام ١٩٦٩ ذا جمال مذهل، وكانت نزهاتنا أنا ونهاد بمثابة نزهات فى الحدائق ، فحيثما يممت أشجار وبساتين ، ولكل منزل حديقة أمامية وأخرى خلفية ، وكانت زيارتنا للندن تقتصر على الذهاب إلى

المسرح، ولم تلبث مكتبتنا الخاصة أن امتلأت بالكتب ، واشتريت جهاز تسجيل ضخم بالتقسيط ، وجهاز تليفزيون أبيض وأسود ، فالألوان لم تأت إلى التليفزيون إلا عام ١٩٧٠ ، وقنعنا به ، وكنا نسعد بالبرامج الوثائقية فى القناة الثانية لـ B B C ، وبالأفلام التى تعلمنا منها الكثير، ولم يعد كشكول مصطلحات اللغة الانجليزية يكفى التعبيرات الجديدة ، فاشترينا كشكولاً جديداً ، وأهم شىء هو أننا لم يكن لدينا تليفون !

وبدأت أتردد على الكلية لمقابلة المشرف على الدكتوراه ، وكان على النقيض من المشرف القديم تماماً ، كان شاباً وكان الأول هرماً ، وكان بشوشاً متواضعاً وكان الأول يتصنع الابتسام فحسب ، ولم أكن أتصور أن الطابع الاسكتلندى يختلف عن الطابع الانجليزى إلى هذا الحد ، وكان وجودى فى بلدة الجامعة يتيح لى أن أمكث طول اليوم فى المكتبة حتى يحين موعد العمل فى المساء فأذهب وأترجم ما قدر لى أن أترجم ثم أعود ، وقد أقص على نهاد طرفاً مما ترجمته أو أناقشها فى دلالة بعض الأحداث ، وأذكر أننا كنا ، ذات يوم من أيام رمضان ، قد اتفقنا على إعداد طعام إفطار خاص ، وبينما أنا أستعد للذهاب إلى المنزل ، إذ جاء المشرف ليخبرنى أن الرئيس بومدين قد ألقى خطاباً ويريدنى أن أترجمه ، فقلت له إننى على موعد للإفطار مع زوجتى ، فقال لى « تفضل .. مع السلامة ! » همس « هل تحب أن تسهر سهرة رمضانية فى ترجمة الخطاب ؟ » وضحكت وانصرفت . كان اسمه محمود سامى، وكان تركياً من قبرص يحسده الانجليز على نقاء لغته وجمال نطقه ، وهو يكتب اسمه 'ميموت' لا 'محمود' ، ولكن سامى لا خلاف عليها !

كان العمل بالترجمة – كما سبق أن قلت – بالغ التنوع ، فقد يطلب من المترجم ترجمة نصية كاملة لخطاب سياسى ، فالانجليز لا يقتنعون بالترجمات المحلية التى تنقلها وكالة أنباء الشرق الأوسط مثلاً ، أو إعداد مقتطفات من حديث مطول ، أو تلخيص تعليق أذاعته إحدى الإذاعات العربية ، وكانت معظم المحطات العربية تسمع بوضوح فى انجلترا ، كما كان الانجليز يهتمون بما تذيعه إذاعة موسكو العربية ، ويدخل ذلك فى باب دراسة الرأى العام وتأثير الإذاعة فيه ، وهو لا شك نشاط إعلامى وكل نشاط إعلامى له جانبه السياسى ، ولكن جانب السرية منفىٌّ تماماً عنه ، فما تذيعه إذاعة ما ، هو ما تريد له أن يُعلن لا أن يخفى ، وهى تريد للأخبار التى تذيعها أن تُعرف وتُعلن لا أن تُكتم وتُخفى ، ومن ثم لم أكن أرى فى

عملى إلا مساهمة فى ترجمة المادة المذاعة بالصورة التى أحب أن تصل بها إلى الأجانب ، وكان البرنامج العام من إذاعة القاهرة لا يصل بوضوح إلى لندن ، بخلاف صوت العرب ، وكانت الأخبار متشابهة ، بل إن صوت العرب سبق البرنامج العام يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ فى إذاعة البلاغ العسكرى الذى يلخص نتائج العبور العظيم فى اليوم السابق فى الخامسة والنصف صباحًا بتوقيت لندن ، وحين ترجمته وأذاعته الـ B B C نقلا عن راديو القاهرة – وقالت ذلك – كان سبقًا إذاعيًا . أى أن للمسألة جانبًا إخباريًا محضًا كان يقنعنى بسلامة الغرض من هذه الترجمة.

ولكن – إلى جانب الفائدة اللغوية – كان هناك جانب مهم هو الوعى بما يدور فى العالم العربى ، خصوصًا فى الجناح الغربى من الوطن العربى ، وهى المحطات التى لا نكاد نتابعها فى مصر ، فازداد وعيى بقضايا دول المغرب العربى ، وأذكر أننا يوم أول سبتمبر عام ١٩٦٩، وكان يوم الاثنين ، ويوم عطلة تسمى عطلة البنوك Bank Holiday ، كنا فى رحلة تابعة لنادى الطلاب العرب خارج لندن ، فوجدنا صحف المساء تقول إن إنقلابًا حدث فى ليبيا ،



إحدى رحلات نادى الطلبة العربى إلى الريف ويبدو فى الصورة ـ ابراهيم فوزى ومحمد مصطفى رضوان وصلاح الغباشى وشاهيناز ونهاد ونجاة وسامى أبو طالب ومحمد نوح.

وعندما عدنا إلى لندن سمعنا أنباء الثورة وسمعنا عن قائدها الأول سعد الدين أبو شويرب ، قبل أن نسمع عن معمر القذافى ، وفى آخر الأسبوع عندما ذهبت للعمل وجدت أوراقًا ملفوفة، قيل لى إنها وكالة الأنباء الليبية باللغة العربية ، وانهمكت فى ترجمة ما بها فأحطت بمعلومات تزيد ألف مرة عما نقلته الصحف الانجليزية . وتغير اسم الوكالة فيما بعد إلى وكالة أنباء الثورة العربية وتغير اختصار اسمها بالانجليزية من LNA إلى ARNA وكان أهم 'زبون' لما أترجمه هو مكتب الأخبار News Bureau الذى كان يرسل ما أترجمه بالتلكس إلى غرفة الأخبار الرئيسية فى لندن لإذاعته مع ذكر مصدره .

كما كنت أستفيد من الاطلاع على أخبار العالم ، إذ كان يطلب من العاملين بالترجمة وبالتحرير أن يقرأوا أنباء اليوم والأمس حتى يعرفوا ما هو جديد ، وحتى لا يترجموا 'أخبارًا' قديمة ظانين أنها جديدة ، فالصحف لا تنشر كل شىء ، وقد مكننى ذلك من متابعة وجهة النظر العربية والمصرية خصوصًا عندما بدأت حرب الاستنزاف فى صيف ١٩٦٩ وبدأ المصريون يثبتون صلابتهم فى التصدى للغطرسة الإسرائيلية ، وكان الارتباط بإذاعة الوطن بمثابة الإبقاء على الحبل السُّرى الذى انقطع لدى الكثيرين ، فمعظم المصريين والعرب فى الغربة لا يقرأون ولا يسمعون إلا ما تنقله وسائل الإعلام الغربية ، وفى يونيو ١٩٦٩ كنت قد أتممت عام التدريب وأصبحت ترجماتى موثوقًا بها ، ومنحونى ما يسمى 'التثبيت' فى الوظيفة establishment فانتقلت إلى مكتب الأخبار ، وصرت المرجع فى الأخبار المصرية ، وكثيرًا ما كنت أرفض الأنباء التى قد تسئ إلينا ، مهما يكن من صحتها الظاهرية ، محتجًا بعدم دقتها ، وأصبح رئيس قسم الأخبار الانجليزى يثق بى ، ورغم وجود مصرى آخر معى هو عبد اللطيف الجمال فى قسم الترجمة فعندما كان يقول 'المصرى' كان الجميع يعرفون أنه يعنينى . وكان فى القسم بعض العرب من الأقطار الأخرى ، وكثيرًا ما كان النقاش الذى يصل إلى درجة الخلاف يدب بيننا باعتبارى ممثلاً للموقف المصرى والمؤمن بمشروعية كفاحنا وكان الانجليز يحترمون ذلك ولا يتعدّون حدود العمل المهنى والرسمى فى معاملاتهم معى ، فالآخرون متزوجون من أجنبيات وتحولوا على مر الأيام إلى صور باهتة (شاحبة ؟) لا هى عربية ولا انجليزية ، وكان شرينجهام – رئيس قسم الإنتاج – ذو الزوجة المصرية يعرف ذلك ، وكان يعرفه رئيس الأخبار كلها !

وما إن حل عام ١٩٧٠ حتى كانت نهاد قد نجحت فى اختبار أمناء المكتبة – وهى مكتبة الأخبار بنفس المبنى – وبدأت العمل معى ، غير أنها كانت تعمل فى المواعيد العادية ، وأنا أعمل وفقًا لمتطلبات الأخبار فى ورديات بعضها مسائى وبعضها صباحى ، فكنا نذهب أحيانًا إلى العمل معًا ونعود معًا ، وأحيانًا لم نكن نلتقى إلا فى فترات الغداء فى المبنى نفسه ، وأحيانا كنت أصادفها عائدة إلى المنزل وأنا على وشك بداية الواردية .

٥

وكان عام ١٩٧٠ عام الصداقة الجديدة التى نشأت بينى وبين توم هيتون ، وهو انجليزى نشأ وترعرع فى اليمن أثناء وجود والده مع القوات البريطانية فى عدن ، وكان يعرف اللغة العربية ويفهمها قراءة وكتابة ، ولكنه لا يتحدث بها بطلاقة ، وعندما تخرج فى كلية المعلمين انتدب مفتشًا (موجهًا) للغة الانجليزية فى اليمن أيضًا ، وكان ما يزال فى مقتبل العمر ، فنشأت بينه وبين رجال التعليم فى ما كان يسمى باليمن الجنوبى أو جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية صداقة عميقة ، رغم أنه كان يحمل جنسية رجال الاحتلال ويمثل الاستعمار ويرمز له فى أعينهم وكان نموذجًا للتناقض بين مُثُل الامبراطورية القديمة ونظرة 'بريطانيا الجزيرة' (الدولة الأوربية ذات السلطة المحدودة) منذ عام ١٩٥٦ ، وكان من الطبيعى أن نختلف حول كل شىء ، سياسيًا لما ذكرته من أسباب ، واجتماعيًا لأنه طلّق زوجته الإيرانية وأرسل ابنه منها معها للتعلم فى أمريكا ، وأصبح يعيش مع امرأة تدعى جاكلين (وندعوها نحن جاكى) دون زواج . كان يتخبط فى حياته بين الغرب والشرق ، فهو لا يؤمن بالزواج لأنه يرى فيه 'مؤسسة اجتماعية' فاشلة ، تتطلب من المشاركين فيها تنازلات متوالية دون أن تقدم لهم أية مزايا فى مقابلها ، وكان يردد دائمًا ما يعتبره مثله الأعلى وهو أن يعيش الإنسان لذاته لا لشخص آخر ، فإذا لجأت أنا إلى طرح الحجج المعارضة قال لى " appease appease and you're crushed ! " أى الإنسان يسعد غيره حتى يتحطم ، ويبدو – والله أعلم – أن زوجته الإيرانية كانت ذات شخصية قوية فكان يُضطر إلى إرضائها على حساب رغباته حتى انفصلا وأخذت الغلام وسافرت إلى أمريكا . أما علاقته بجاكى فتسمى

cohabitation أى الحياة معًا دون زواج ، وكان يفضل ذلك النظام على الزواج لأن الزوج أو الزوجة فيه لا يتعرضان لضغط 'المؤسسة' وتبعاتها المالية ، ويتوهمان (فى رأيى) أنهما أحرار . ولا داعى للإفاضة فى رأيى هنا ، فقد قلته ذات مرة لعلى النشار ، المهندس العبقرى الذى تزوج انجليزية وهاجر معها إلى أمريكا ، إذ قلت له 'إننى أدعو لكل من أحبه أن يرزقه الله زوجة مثل نهاد' وكان رده أن الاستثناءات لا يقاس عليها !

عندما التحق توم هيتون بقسم الترجمة كان يواجه صعابًا كثيرة فى فهم اللغة العربية ، وكان يلجأ إلى حتى أشرح له ، كما كان يكتب انجليزية غير نقية ، وغير سلسة ، وكان مرد ذلك فى رأيى إلى طول عمله بالتعليم ، فتعليم اللغة الانجليزية يورث المرء قدراً كبيراً من التزمت فيما يتصور أنه صحيح أو خطأ ، بل ويحد من النماذج اللغوية التى يتصور فيها الصحة ، مما يقطع الأسباب بينه وبين اللغة الحية على ألسنة الناس وفى الصحف ، وكان يدهش للسلاسة التى أكتب بها تلك اللغة ، خصوصًا حين اطلع على الفصل الأول من رسالة الدكتوراه وحديثى عن تنوع الأساليب الشعرية بتنوع الأنواع الشعرية فى أواخر القرن الثامن عشر . وكانت هيلارى وايز المتخصصة فى علم اللغة ومؤلفة كتاب 'النحو التحويلى للعربية المصرية' ما تزال تجمع المادة عن العامية وتتصل بى أنا ونهاد حتى نزودها بالمعلومات التى تريدها عن تلك 'اللغة' (أو عن ذلك المستوى اللغوى) وأذكر أنها زارتنا ذات يوم فى المنزل ، فاطّلعت على تحليلى للأساليب المذكورة وعجبت كيف يتسنى لى أن أقيم تلك الفروق بين أسلوب السرد مثلاً وأسلوب الوصف وأسلوب التأمل ، واقترحت علىّ أن أستعين بالكمبيوتر فى الإحصاء فقلت لها إننى أتصدى للنصوص الحية ، لا لعدد من الكلمات التى تحصى وتعد، فقالت ولكنك تحصى الصفات وتصنفها وتحصى الأفعال والتراكيب وتصنفها ، فجعلت أشرح لها كيف أفعل ذلك من داخل النص لا من خارجه ، ولكنها أصرت على أهمية الكمبيوتر فى ذلك الجهد ، وهو ما لا أسيغه حتى الآن .

وفى يونيو كنت قد كتبت الفصل الثانى فى صورته الأولى ، وكنت كشأنى دائمًا طموحًا لا أغفل أدق التفاصيل (وكان أستاذى السابق رحمه الله يقول لى أنك تبغى الكمال فيما لا كمال فيه) وما إن حل أول يوليو حتى وصلنا خطاب من الدكتور نوح الذى كان قد انتقل إلى ادنبره مع أسرته يدعونا إلى زيارته ، وكانت فرصة ذهبية لقضاء أيام عطلة فى شمال انجلترا وفى



اسكتلندا ، فأخذنا الأتوبيس السياحى أنا ونهاد الذى يغادر محطة فكتوريا فى الثامنة مساءً ويصل إلى ادنبره فى الفجر ، وغلب النعاس نهاد فى أول الطريق ، ثم استيقظت فى نحو الثالثة وهى تقول لى (وقد غفوت من اهتزاز الأتوبيس) انظر الجبال وألوان الشفق فى حى البحيرات ! كان مشهداً يخلب اللب ، وأفاق معظم الركاب وأخذوا يشهقون للجمال المذهل ، وبعد ساعة تقريباً وصلنا إلى ادنبره ، وضوء الصباح يتسلل من وراء الجبال ، ولم تلبث الشمس أن طلعت ، فذهبنا إلى منزل الدكتور نوح ، وكان قد استأجر منزلاً كاملاً ، فأيقظنا أهل الدار ، وأوصلتنا فتاة زوجته إلى غرفتنا (إذ أصروا على استضافتنا لديهم) فنمنا ساعة أو ساعتين ، ثم صحونا فى نحو التاسعة لنبدأ اليوم الجديد !

وسمعنا ونحن نشرب الشاى الدكتور نوح يقول لزوجته هل أتى الدكتور حامد باللحم ؟ وردت عليه رداً لم أسمعه ، ثم جاءت الفتاتان راندا ورحاب مع خالد الصغير ليسلموا علينا ، وطبعاً سألته عن موضوع حامد ! كان حامد يدرس الطب فى ادنبره ، وينطبق عليه تماماً قول طه حسين فى الأيام « قضى عشرين سنة لم يظفر بالدرجة ولم يستيئس من الظفر بها » ،

وكان قد اكتشف أن العرب والمصريين يحبون الكوارع و'لحمة الرأس' والسقط فصار يعمد فى الصباح الباكر إلى السلخانة ، حيث يقابل صديقًا باكستانيا يذبح الحيوانات بالطريقة الإسلامية ، فيزوده بهذه الأشياء مقابل قروش زهيدة ، ثم يمر بها على بيوت العرب والمصريين لتوزيعها عليهم ، بأسعار 'معقولة' ، وتدريجيًا أصبح يأتيهم باللحم كذلك مقطعًا بالطريقة الشرقية ، فراجت تجارته ، واشترى منزلاً ، لكنه لم ينس أبدًا دراسة الطب ، فإذا قال له أحدهم 'عد إلى مصر' غَضِبَ غَضَبًا شديدًا وقال كيف أعود دون الدكتوراه ؟

وبعد نزهة فى ربوع إدنبره عدنا إلى المنزل لنستمع إلى أخبار حرب الاستنزاف وكانت تلك أيام إسقاط الطائرات الفانتوم الإسرائيلية ، وكان الدكتور نوح لديه راديو رائع نسمع فيه مصر بوضوح ، وكانت أجهزة الإعلام البريطانية تشير إلى إسقاط هذه الطائرات بنسبة الفضل لا إلى مهارة المصريين بل إلى عظمة الأسلحة السوفييتية ، وكنا نغتاظ مما يقوله المذيع مثلاً من أن « الصواريخ السوفييتية أسقطت الطائرات الإسرائيلية » وهو لا يقول 'السوفييتية الصنع' ولا 'الطائرات الأمريكية' كأنما كان الاتحاد السوفييتى هو الذى يتصدى لإسرائيل ! ومع ذلك فقد كان العرب جميعًا جذلين مستبشرين ، وبعد السياحة فى اسكتلندا بدأنا جولة فى حى البحيرات ، وزرنا كوكرماوث Cockermouth مسقط رأس وردزورث ، وكنت أنطق اسم البلدة النطق الشائع فى جنوب انجلترا ، أى بإدغام الميم والثاء ، ولكن أهل البلدة كانوا ينطقون الاسم 'ماوث' (بمعنى مصب ، وهى اللاحقة التى تدخل على أسماء الأنهار) فعجبت لذلك، ثم ذهبنا إلى كيزيك Keswick وسرنا على الأقدام (مثل الشاعر) حول بحيرة صغيرة محيطها ١١ ميلاً قطعناها فى ثلاث ساعات ، ثم زرنا بحيرة وندرمير Windermere ، ووقفنا تحت جبل سكيدو Skiddow الذى يذكره الشاعر كثيرًا ، وأخيرًا ركبنا الحافلة وعدنا إلى لندن ، متوقفين بكبرى المدن الانجليزية فى طريقنا .

وفى أواخر يوليو توقفت حرب الاستنزاف ، بعد أن أعلن عبد الناصر فى خطاب عيد الثورة قبول مصر لمبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكى الذى كان يتوسط لعقد اتفاق سلام بين العرب وإسرائيل ، بحيث يسرى وقف إطلاق النار اعتبارًا من ٧ أغسطس ، وكان السد العالى قد اكتمل قبل عيد الثورة بيومين ، فتفاءلنا بهذه الأنباء الطيبة ، ولكن الصراع بين الفلسطينيين وحكومة الأردن تصاعد بعد ذلك ، بعد أن رفض المجلس الوطنى الفلسطينى مبادرة السلام ، يوم ٢٨ أغسطس ، وبدأ القتال بين الفلسطينيين والأردنيين يوم ٧ سبتمبر

(أيلول الأسود) وقام الفلسطينيون باختطاف طائرتين ، إحداهما بريطانية وكانت متجهة إلى نيويورك ، وأطلقوا سراح الرهائن ثم فجروا الطائرة ، مما جعل أجهزة الإعلام البريطانية لا تتحدث إلا عن 'الإرهاب' بتحيز واضح ومزعج ، ولما اشتدت حدة القتال أمر الملك حسين الدبابات بالنزول إلى شوارع عمان ، فانسحب رجال منظمة التحرير الفلسطينية وبسطوا سيطرتهم على المدن الواقعة فى شمال الأردن ، وكانت الأنباء تقض مضاجع العرب فى كل مكان فتدخل عبد الناصر فى أواخر سبتمبر ودعا إلى عقد مؤتمر قمة عربية فى القاهرة وتوجت جهوده بإحلال السلم بين الجانبين يوم ٢٦ سبتمبر ، وبدأ رحيل الزعماء العرب ، وبعد توديع أمير الكويت يوم ٢٨ ، أصيب بنوبة قلبية لم تمهله .

كان ذلك يوم الاثنين ، وكنت أغفو دقائق قبل استئناف القراءة ، وكانت نهاد تسمع أخبار التليفزيون حين صاحت صيحة ارتجت لها أرجاء المنزل ، فهببت من غفوتى أسألها ما الخبر ، وعندما علمت لم يكن فى أيدينا سوى البكاء . وقالت نهاد 'لابد أن أعود إلى مصر ، ما الذى سيحدث الآن ؟' وقامت فارتدت ملابس الخروج وارتديت ملابسى وخرجنا نسير فى الطرقات ، كمن يهيم على وجهه حائراً لا يدرى أين تقوده قدماه ، لم نكن نتوقف ولا ننظر إلى ما حولنا ، ولم نكن نتبادل أى كلمات مهما تكن ، فالحزن العظيم لا يعبر عنه سوى الصمت ، وكان الليل قد حط وأظلمت الحوانيت وأُغلقت الأبواب ، ومررنا بحانة كان عهدى بها صاخبةً متلألئة فخيل إلىّ أن الحزن يرين بأثقاله عليها ، وعبرنا النهر ووصلنا إلى محطة القطار ، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساءً ، وعندما سمعنا هدير القطار وقفت نهاد وقالت 'لو كان يستطيع أن يحملنى الآن إلى مصر !' ثم قفلنا راجعين فلم ندخل إلى المنزل إلا بعد منتصف الليل وقد بلغ بنا الإرهاق مبلغه .

كان موعدى يوم الثلاثاء ٩/٢٩ مع المشرف لأسمع رأيه فى الفصل الثانى ، فذهبت متثاقلاً لا أكاد أحس بالرغبة فى لقائه ، وعندما دخلت غرفته فى الثانية تمامًا رحب بى وكان قد فتح الفصل أمامه ، ثم قال « أراك اشتَقَقت لنفسك منهجًا خاصًا فى تناول الأسلوب » وكان مثل هذا التعليق يوحى بالاعتراض ولكننى قبل أن أفتح فمى قال : « ولكنك أحسنت استخدامه » ثم تصفح الفصل وتوقف عند كلمة مركبة كتبتها وهى highly-rated وقال «هل تعرف أن هذا التعبير أمريكى ؟ » وكانت لهجته حادة ، فأنكرت أننى كنت أعلم ذلك ،

فأشار إلى معجم ضخم مفتوح أمامه وقال لى : « تفضل ! اقرأ هذا الباب ! » وقلت له إن تغييرها ممكن فقال بسمة صافية : حذار من هذه 'المطبات' ! ولم يلبث أن قال ولماذا تستخدم تعبيراً مثل severe objurgations والبدائل السهلة متوافرة ؟ فاعتذرت من جديد ، وفجأة قال لى : يبدو أن العرب قد صُدموا لوفاة عبد الناصر ! وشرحت له الموقف فأبدى تفهمه ، وسلمنى الفصل وقال لى : هل ستسافر إذن إلى مصر ، فقلت له لا ولكن زوجتى ستسافر ، وانصرفت .



وفى يوم الخميس الأول من أكتوبر سافرت نهاد إلى لندن لحضور الجنازة الرمزية التى صاحبت جنازة عبد الناصر فى القاهرة ، وكانت ترتدى ثياب الحداد وتلبس نظارة سوداء حتى لا يرى أحد آثار البكاء ، وقصت علىّ قصص الأحزان الرهيبة التى أعرب عنها العرب وغير العرب من المتعاطفين معنا وكان من بينهم فتاة انجليزية متزوجة من عراقى ، وكانت تبكى عبد الناصر بكاء الحبيبة لحبيبها ، وكان طابور الناعين غير مسبوق ، فكأنما كانت مظاهرة إيمان بما كان الراحل يرمز له ، لا مجرد تعبير عن الحب والصدمة . وبدأت نهاد فى اتخاذ إجراءات العودة إلى مصر لرؤية ما جرى لها بعد رحيل القائد والأب الروحى ، فذهبنا إلى المكتب الثقافى يوم الجمعة للحصول على خطاب إلى شركة مصر للطيران حتى يمنحنا تخفيضاً ، ولكن الزحام على الشركة كان غريباً ، ولم تكن هناك أى أماكن خالية قبل ديسمبر، فقنعنا بذلك ، وحجزنا التذكرة وعدنا .

وعندما عدت وجدت خطاباً من خالى عبد الحليم (التاجر) يقول لى فيه إنه فى لندن وإن معه ضيفاً هو رئيس مجلس إدارة الشركة التى أصبح خالى مستشاراً فنياً فيها بعد 'تأميم' تجارته ، وإنه يتوقع أن يرانى ، فذهبت إليه صباح السبت ، وبادرنى قائلاً : من ترى سيخلف عبد الناصر ؟ وقلت إن نائب رئيس الجمهورية هو أنور السادات ، فقال « لا لا .. السادات ما ينفعش » ، ولم أشأ أن أناقشه فى السياسة ، فالواضح أنه كان يريدنى فى 'مأمورية' خاصة، واتضح أنها كانت تتعلق بالترجمة بين رئيس الشركة وبين بعض الشركات الانجليزية التى كان

يريد شراء بعض المستلزمات منها (الكيمياويات وأدوات المعامل) وأكد لى خالى رحمه الله ألا أفصح عن تفاصيل المفاوضات ،.وأن أتكتم الأمر ، فذلك الشخص مهم وعلى علاقة خاصة بالكثيرين من 'الكبار' ، وفعلاً لم أفتح فمى بكلمة عما دار حتى هذه اللحظة ، وسوف أبقى اسمه سراً حتى بعد ثلاثين عامًا ، وبعد أن توفى ، رحمه الله .

عندما اصطحبت الزائر الكبير يوم الثلاثاء التالى (١٠/٦) إلى أول شركة قال لى بلهجة من اعتاد الأمر والنهى « سوف أكافئك ماليًا على عملك ، ولكن لا تقل لخالك » ولم أعقّب . وفي مكتب رئيس الشركة الانجليزى دارت أولى المفاوضات التى لم تستغرق إلا ساعة أو بعض ساعة ، وكانت تتلخص فى أن تقوم الشركة الانجليزية بتوريد كميات كبيرة من مادة كيميائية معينة إلى الشركة المصرية بسعر سبق الاتفاق عليه ، وأن تحوّل الشركة المصرية الثمن إلى البنك الذى حددته الشركة الأجنبية حالما يتأكد الخبراء من مطابقة الشحنة للمواصفات المطلوبة ، على أن تحول الشركة الانجليزية العمولة الخاصة برئيس مجلس الإدارة إلى بنك حدده الزائر الكبير فى ألمانيا . لم تكن هناك أى صعوبة فى الترجمة ، وكان الحوار سهلاً وميسراً ، وعجبت من ضرورة الزيارة إذا كان الاتفاق قد تم سلفًا عن طريق الخطابات ، وكنت أترجم ما يسمى بالترجمة التتبعية consecutive أى أننى كنت أدون ما يقال باختصار ثم أترجمه ترجمة دقيقة ، وسرعان ما اتضح لى السبب الحقيقى للزيارة ، إذ إن الزائر الكبير كان يريد أن يرفع نسبة العمولة من ٥ ٪ إلى ١٠ ٪ ، وعندما ترجمت هذا الجزء من الحوار اعترض التاجر البريطانى وقال : ولكننا اعتدنا دفع ٥ ٪ فقط إلى جميع زملائك ، فرد الزائر الكبير قائلاً : وهل كانوا يمنحونك التسهيلات التى سوف أمنحها لك ؟ وتساءل التاجر الانجليزى عن نوع هذه التسهيلات ، فأخرج الزائر الكبير ورقة من جيبه وقال لى ترجم ! وكانت الورقة تقول (وهى مكتوبة بخط اليد) إن الشركة المصرية تقبل أن يكون تركيز المحلول الكيماوى أقل من التركيز المعتاد ، وهو مما لا يدرج فى قائمة المواصفات ، مما يوفر للشركة نسبة كبيرة من التكاليف ، كما أن ذلك سوف يسمح بتعبئة المحاليل فى زجاجات بلاستيك وهى أرخص كثيراً من العبوات الزجاجية المعهودة ، وبدت الدهشة على وجه التاجر وبدا عليه التردد ، وراجعنى فيما قلت علّنى أكون قد أخطأت ، ولكننى أكدت له ما ورد فى الورقة ، فقال لى : آسف ! لابد أن أتكلم فى التليفون . واختفى .

ومكثنا صامتين ننتظر والزائر الكبير يؤكد ضرورة عدم الإفصاح لخالى عما دار فى هذه الجلسة ، وقد أجبته إلى ما طلب ، وعندما عاد التاجر الانجليزى قال : لا بأس ! ولكن أرجو المرور غدًا لتوقيع عقد جديد بحضور المحامى ، فابتسم الزائر الكبير وقال فليكن . ونهضنا فقال الآن نذهب إلى شركة أخرى .

وتكرر ما حدث مع التاجر الانجليزى الأول غير أن الزائر الكبير طلب رفع النسبة إلى ٧ ٪ فقط ، وعجبت فى نفسى ، واتضح من الحوار أنه قد دبر ما يلى : الصفقة كانت توريد ميكروسكوبات ، وهذه تُصَنَّع وفقا للطلب by order وقد يستغرق تصنيعها شهورًا أو عامًا كاملاً ، وقد اتفق رئيس مجلس الإدارة (الزائر الكبير) مع أعضاء المجلس على صرف الثمن كله (full disbursement) حالما تصل أول دفعة من الصفقة ، مما يتيح للمال أن يوضع فى البنك ويدر أرباحًا قدرها بنسبة ٦ ٪ ، تذهب نسبة ٣ ٪ منها إلى التاجر ، مطروحًا منها ١ ٪ لقاء الدفعة الأولى ، و ٢ ٪ تضاف إلى عمولة رئيس مجلس الإدارة . ومثلما فعل الأول قام التاجر بإجراء اتصال تليفونى (لعله بالمحامى) ثم عاد ليعلن موافقته . وخرجنا على أن نمر فى اليوم التالى لتوقيع عقد جديد .

وسألته ونحن فى الطريق إن كان تخفيض نسبة التركيز فى المحلول سوف يؤثر على فاعليته فضحك وقال : إطلاقًا ! لا تكن ساذجًا مثل خالك ! هذه المحاليل لا تستخدم فى الصناعة ، ولكنها تستخدم فى المختبرات المدرسية ، ونحن نوردّها للمدارس والجامعات فقط ! فهل تتصور أن المدرسة سوف تعرف قوة تركيز المحلول ؟ ولو عرفت فهل يؤثر ذلك فى شىء ؟ لسوف يذيب الحامض ما يوضع فيه مهما كان تركيزه ! لا تكن حنبليًا ! » وضحكت حتى أخفف من توتر الموقف ، ثم عدت أقول ضاحكًا حتى لا أغضبه « كان عندنا مدرس اسمه شكرى ديمترى يستطيع معرفة قوة تركيز المحلول ! » وأطلق ضحكة مجلجلة ونحن فى قطار المترو ثم قال : 'وفيه كام شكرى ديمترى فى مصر ؟' ثم همس لى : 'وحتى لو عرف المدرس ذلك ، فسوف نناقشه ونشكك فى نتائجه ، فإذا أصر أرسلنا له زجاجة أخرى من زجاجات ألمانيا الشرقية !'

وعندما قابلت خالى سألنى عن المفاوضات وهل كُلّلت بالنجاح فأكدت له أن الزائر الكبير قد أبرم اتفاقياته بنجاح وربما لن يحتاج إلىّ فى اليوم التالى ، ولكنه اتصل به تليفونيا فقال لى

إنه يريدنى لمهمة أخرى ، فذهبت إليه يوم الأربعاء ، فقدم لى ورقة مالية بخمسة جنيهات - فقلت له إننى لا أتقاضى أجرًا على ذلك ، وإن شئت فإن أجرى اليومى فى الترجمة ١٨ جنيهًا! فضحك وقال « أنت لا تعرف مدى نفوذى وسلطتى فى مصر » فأسرعت أقول : فاعتبر خدماتى هدية منى إليك ! وقال فى اللحظة نفسها « هدية مقبولة ! » ثم تواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى ، وقابلنى هاشًا باشًا وقال : « أنتم ناس طيبون ، وأنا أساعد خالك لأنه 'بيعرف ربنا' رغم ما أعلمه عنه من علاقة مع التجار الألمان . ولكننى ساندته وحميته من بطش عامر». وانطلقنا فوقعنا العقدين ، ثم رحل الزائر الكبير مع خالى إلى ألمانيا أولاً ثم إلى مصر ، وعندما عدت إلى نهاد لم أشأ أن أعكر صفو أحزانها على وفاة عبد الناصر ، ولم أشأ أن أقول لها ما يحدث فى القطاع العام ، وإن كان فى أعماقى صوت داخلى يهتف : أين أنت يا عبد الناصر حتى أقص عليك ما رأيته وما سمعته . رحم الله عبد الناصر .

وشغلت نهاد فى الخريف بالاستعداد للسفر ، وكان يبدو لى أنها كانت تريد أن تطمئن إلى أن مصر ما تزال حية ترزق بعد وفاة عائلها ، أما أنا فشغلت بترجمة خطاب السادات فى عطلة نهاية الأسبوع ، وبدراسة مسرح القرن الثامن عشر فى انجلترا ساعات طويلة كل يوم فى مكتبة الكلية ، تمهيدًا لكتابة الفصل الثالث عن مسرحية 'سكان الحدود' The Border-ers التى كنت أراها شيكسبيرية المذاق ، ولا تكاد تنتمى إلى القرن الثامن عشر إطلاقًا !

وسافرت نهاد ، وعندما عادت كانت قد شفيت تمامًا من الحزن ، بعد أن ذاقت الأمرين فى محاولة استخراج تأشيرة الخروج من المجمع ، وكانت تتردد عليه يوميًا حتى يسمحوا لها بالسفر ، ولولا جهود الأستاذ صليحة والدها رحمه الله ما خرجت ثانية من مصر . لكن تلميحاتها هذه المرة كانت واضحة ، فالكل فى مصر يتساءل عن عدم إنجابنا للأطفال ، وكان لسان حالها يقول 'أريد طفلا !' وكذلك كان لسان حالى أيضًا !



لاشك أن السنوات الأربع التى عشناها معًا دون أطفال قد قربّت بيننا كثيرًا فكانت نهاد لى نعم الصديق ، وكانت قراءة الكتب معًا والذهاب إلى المسرح معًا من الظواهر الفريدة بين

الدارسين المتزوجين هنا ، ولأختم هذا الفصل بحادثة ما تزال تختزنها ذاكرة نهاد 'الانتقائية' (eclectic) وإن كنت غير واثق من أسس اختياراتها .

حدث فى صباح يوم أحد ، وكنا نقرأ معًا صحف نهاية الأسبوع أن دق أحدهم الباب فقمت إليه فإذا برجل وامرأة طاعنين فى السن يلقيان علىّ تحية الصباح ، ثم سألانى : أنتم مؤمنون بالله ؟ فخفت أن يكونا من 'شهود يهوه' وهى طائفة يرميها الناس بالخبل ، فأسرعت أقول نحن مسلمون ! فابتسم الرجل وقال : إذن تؤمنون بالله وتقدم للدخول مع المرأة ! لم أستطع منعهما ونهضت نهاد فرحبت بهما وصنعت لهما الشاى ، وما إن جلسا حتى انطلق كل منهما يتحدث بإسهاب عن الفرق الدينية التى بلغ عددها - فيما قالا - ٢٥٠ فرقة وطائفة، وحدست ما يرميان إليه ، فمن المؤكد أنهم سيقولان إنها جميعًا ضالة ، وإنهما ينتميان إلى الفرقة الناجية ، بل وسوف يدعواننا إليها . وصح ما توقعته وإن كانا قد استغرقا وقتًا طويلاً فى التمهيد للدعوة . أما ما يعتبرانه الفرقة الناجية فهى المورمونية ، أو طائفة الملاك مورمون ، وسوف ألخص فيما يلى ما قالاه إذ أفادنى فيما بعد ، دون أن أدرى ، فى فهم أحد التيارات الرئيسية فى الفكر الغربى وهو التيار الدينى .

بدأ العجوزان الحديث بانتقاد أخلاق أهل العصر ، والقطع بأن مرد ذلك كله إلى نضوب معين الحياة الروحية لدى الجميع ، لأن الدين تحول إلى مؤسسات بشرية ، تخضع لأهواء المفسرين ، وقد تنحرف هذه المؤسسات حتى لو صدق القائمون عليها لأنهم بشر وشيمة البشر الخطأ ، والدين فى رأيهما نبع متجدد ولا يجب أبدًا أن يقول أحد بانقطاع الوحى ، فالله الذى خلق العالم لم يتركه فى أيدى الكهنة بل يوحى دائمًا إلى كل روح بالرؤى التى تساعدها على إدراك جلاله وعظمته ، والإسلام فى رأيهما شاهد على ذلك ، فالمسلم يتوجه إلى ربه بالصلاة وحده ، ويتحمل وحده أوزاره ، ويثاب على فعاله أو يعاقب ، مهتديًا بضميره وبالروح التى هى قبس من روح الله .

وبدأ الضيفان فى دعوتنا إلى تأمل المورمونية التى تقول إن الروح إذا نمت وترعرعت أصبحت إلها ، ولذلك فإنهما يؤمنان بأن فى أعماقنا آلهة كثيرة هى الأرواح التى تدفعنا إلى فعل الخير وتصرفنا عن ارتكاب الشرور ، ودعيانا إلى تأمل تعاليم الملاك مورمون وهى التى يضمها سفر مورمون الذى ترجمه (القديس) جوزيف سميث فى أمريكا فى النصف الأول من

القرن التاسع عشر ، وتعاليمه لا تتناقض فى رأيهما مع الإسلام فهى تدعو إلى تعدد الزوجات، وتعدد وجهات النظر ، وقالا إن الخلاف والاختلاف من سمات البشر ، ولذلك فالدين الحقيقى لابد أن يسمح بذلك وهذا هو ما تدعو إليه المورمونية ، ونظرت فى ساعتى ثم نهضت إيذانًا بانتهاء الزيارة فنهضا وانصرفا !

وكان لدينا فى العمل شاب أمريكى يدعى 'ألان' (ولا أعرف له اسمًا آخر) أشيع عنه أنه مورمونى ، فسألته عما سمعته من العجوزين فقص علىّ القصة بالتفصيل ، قبل أن أقرأ عنها بعد عشر سنوات فى قصص شرلوك هومز (هولمز) التى كتبها السير آرثر كونان دويل Doyle البريطانى ، وموجزها أن فى الولايات المتحدة مؤسسة كنسية تسمى كنيسة القديسين المتأخرين Church of Latter - Day Saints تؤمن بأن هناك سفرًا يسمى سفر مورمون Book of Mormon تعتبره تلك الكنيسة من أسفار الكتاب المقدس وإن كان لم 'ينزل' إلا فى القرن التاسع عشر على رجل يدعى جوزيف سميث فترجمه فى عام ١٩٣٠ ونشره فى بالميرا Palmyra (تقابل تدمر العربية) بولاية نيويورك فى العام نفسه ، وقيل إن الكتاب المذكور مترجم عن اليونانية القديمة ، وقيل عن العبرية ، وقيل عن غيرها ، ولكن إثبات ذلك محال لأن تلك النصوص المزعومة قد فقدت ، والكتاب يقص قصة هجرة مجموعة من اليهود (العبرانيين) إلى أمريكا ، من القدس ، فى عام ٦٠٠ قبل الميلاد ، بقيادة نبى يدعى 'ليحى' Lehi ، ثم انقسم المهاجرون إلى طائفتين الأولى هى اللامانيون Lamanites الذين نسوا عقائدهم وأصبحوا من الهمج والبرابرة ، ومن نسلهم انحدر الهنود الحمر الذين وجدهم كريستوفر كولومبس فى أمريكا ، والثانية هى النفيتيون Nephites الذين أخذوا بأسباب الحضارة وبنوا المدن العظيمة ، وأصبحت لهم ثقافتهم الخاصة ، وتركوا آثارًا رائعة ، ولكن اللامانيين كانوا لهم بالمرصاد فلم يكفوا عن محاربتهم حتى قضوا عليهم فى عام ٤٠٠ الميلادى تقريبًا ، ولكن الكتاب المذكور يقول إنهم قد استقوا تعاليم المسيحية الحقة عن يسوع بعد رفعه إلى السماء ، وكتبها نبيّهم مورمون على ألواح من الذهب الخالص ، إلى جانب تاريخ الطائفة بطبيعة الحال، وتركها مورمون لابنه مورونى الذى أضاف كتابات أخرى إليها ودفنها فى الأرض حيث مكثت ١٤٠٠ سنة ، حتى كُتب لها أن ترى النور من جديد على يدى مورونى نفسه الذى بعث من مرقده وكان يتخذ صورة ملاك حينًا وصورة نبىّ حينًا آخر ، فأسلمها إلى جوزيف سميث الذى سارع بترجمتها قبل أن تختفى إلى الأبد .

وسألت روجر كولمان (الكاثوليكى) عن رأيه فى هذا الكلام فضحك وقال إن كل ما يعرفه هو أن المورمـونيين لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير ! وسألت آخرين من البروتستانت فقالوا لى إنهم يعتبرون المورمونيين كفارًا ، وكنت فى المكتبة أنظر أصل القصة حين خطر لى أن أسأل أحد الأمريكيين ، ففى أمريكا، لا يقل عن خمسة ملايين من أتباع هذه الطائفة ، وسألت عن زميلة لنا من أمريكا تدعى اليزابيث فقالت لى السكرتيرة 'إنها المورمونية ؟' فقلت فى نفسى 'يا محاسن الصدف !' وسعيت إليها حتى قابلتها ، وكأنها كانت تتوقع منى الهجوم على العقيدة ، إذ بادرتنى قائلة : « ليس صحيحًا أن العقيدة مستوحاة من رواية القس سولومون سبولدينج ، وليس صحيحًا أنها من ابتكار جوزيف سميث، فهذه من تخرصات أعدائنا الذين وطنوا النفس على الكفر والإلحاد ! » .

وأكدت لها أننى لم أقرأ تلك الرواية ، وأن كل همى هو أن أعرف المزيد عن العقيدة لا أن أطعن فيها أو أدرس تاريخها ، وعندما شعرت أننى صادق صحبتنى إلى الكافيتريا حيث اشترى كل منا فنجان شاى وشرعت تقول :

« مذهبنا الراهن مذهب روحىّ ، وهو يفرض على الفرد مسئولية روحية يتخطى بها تكاليف [بمعنى طقوس] الكنيسة ، وأكبر دليل على ذلك تجاوزنا للنظم الكنسية التى تقوم على اعتبار الجسد دَنَسًا ، وما دامت الروح طاهرة فلابد أن يكون مسكنها طاهرًا ، والطهارة فى مفهومنا تعتمد على الماء ، فالتعميد يجرى بغمر الجسد فى الماء ، والاستحمام من وسائل التطهير المؤكدة ، ونحن نفضل المأكولات الطاهرة مثل الفواكه والخضر ، ومعظمنا نباتيون ، ولا نشرب الخمر لأنه يغيّر من الفطرة وكل ما يلوث الفطرة أو يدنسها فهو نجس ، ونحن نؤمن بالخير الذى يتجلى فى الحرية والإنجاب والتواصل ، ولذلك نؤمن بتعدد 'رفقاء المضجع' استجابة للفطرة ونبذًا للحرمان وتحقيقًا للإشباع الروحى » .

وأسهبت إليزابيث وأطالت ، فأدركت أن شيوع المذهب دليل على جاذبية خاصة ، فشكرتها ولكننى عندما أردت الانصراف قالت لى « إذا أردت أن تعرف المزيد فارجع إلى الأستاذ ماثيوز الذى يعتبر حجة فى تاريخنا » . وقد فعلت ذلك فى نفس اليوم ، فقال لى دهشا : « ومتى كان المسلم مهتمًا بالمورمون ؟ لابد أنه التعطش للمعرفة ! » ولكن ما قاله كان مذهلاً ! قال ماثيوز إن المورمونيين يشككون فى صحة ترجمة الكتاب المقدس ، وإن سفر

مورمون الذى يزعم جوزيف سميث أنه ترجمه عن أصل مفقود لا يمكن أن يكون كتاباً مقدساً، فهو 'محاكاة شعرية' لأسفار العهد القديم ويقوم على فكرة 'الدائرة' أى إن التاريخ يسير فى دوائر ، فالناس تنزع إلى الخير فى أول الزمان ومن ثم تحيا فى رغد من العيش ، ثم تنزع إلى الشر فيصيبها البؤس والهلاك ، ثم تتوب فيعود العيش الرغد وهكذا ، وأما الكتابان اللذان يزعم جوزيف سميث أنه اكتشفهما وهما كتاب إبراهيم وكتاب موسى وأدرجهما فى كتاب له لم يستكمل تأليفه ، (واسمه لؤلؤة غالية الثمن) ، (Pear of Great Price) فقد اكتشف العلماء منذ أعوام قليلة أنهما منقولان عن كتاب الموتى الذى وضعه قدماء المصريين ، وكانت بعض أجزائه المترجمة بعد اكتشافه وحل رموز اللغة المصرية القديمة قد نشرت فى أوربا فى أواخر عهد سميث ، ولا أدل على ذلك من البردية التى صورها سميث (أو من خلفه) ووضعها فى صدر كتابه إذ أكد الخبراء أنها تزوير فى تزوير ، وأن ما بها لا يعدو أن يكون ترجمة حرفية عن الترجمة الفرنسية للشعائر الجنائزية المصرية ، وقد أعيد اكتشاف البردية المصرية التى تتضمنها فى متحف متروبوليتان للفن بنيويورك عام ١٩٦٦ ، وقام الخبراء بمضاهاة ما جاء فيها بالبردية التى يزعم سميث أنها البردية الأصلية .

أما أخطر ما نبهنى إليه ماثيوز فى هذا كله فهو ما لم يفصح عنه الزائران المسنان ، ولا آلان ، ولا إليزابيث ، ألا وهو أن 'الطهارة' التى كانت تتحدث عنها تنطبق أيضاً على لون الجلد ، فلم يذكر لى آلان ، ولا وجدت فى المراجع التى أوصانى بقراءتها ، ما يدل على أن اللامانيين كانوا من ذوى الجلد الداكن ، ولذلك فقد دفعهم 'الخبث' بمعنى الحطّة المتأصلة فى فطرتهم إلى التمرد والهمجية ، فى حين اتجه النفيتيون 'لكرم ٍ' متأصل فى لونهم الأبيض إلى بناء الحضارة والتمدّن ، وإذا كانت الدورة (الدائرة) الأولى قد كتبت الغلبة للشر فانتصر الهنود الحمر على ذوى البشرة البيضاء (الطاهرة) فلقد أتت الدورة الثانية بالنصر لأصحابه، وأصبح الخير ظافراً فى ولاية 'أوتاه' (Utah) الأمريكية ، ثم ساد القارة كلها ، حتى 'تلوّث' أخيراً بسبب الهجرة من إفريقيا !

وعندما فرغت من تأمل هذه الحقائق اتجهت إلى كتاب فى التاريخ يؤكد نظرة الأستاذ المتخصص والموضوعى ، وعندما قرأت بعد عودتى إلى مصر بعدة سنوات أن السلطات الكنسية العليا سمحت للملونين (بمعنى غير ذوى البشرة البيضاء) بأن يشغلوا بعض

المناصب الكهنوتية فيما أصبح يسمى بحركة إعادة تنظيم الكنيسة عام ١٩٧٨ ، ذكرت ما نبهني إليه ماثيوز وتأكدت لى صحته من كتب التاريخ (لا أسفار المورمون) . وفهمت أيضًا سر إلغاء تعدد الزوجات (والأزواج) عندما تذكرت ما قالته إليزابيث عَرَضًا من أن والدتها يهودية ، وكان المفروض من ثم أن تكون يهودية ، ولكنها فضّلت حرية الروح ، واعتنقت المورمونية ، فأنجبت من زوجها المورمونى أطفالاً تحرروا من لون أمها الداكن ، فتخلصوا من الرابطة 'الشرقية' .

وعندما قصصت ذلك كله على نهاد بعد عودتها أبدت دهشتها ، ثم قالت مقولة ما تزال ترددها عندما أقص عليها قصصى 'أنت بتهتم بحاجات غريبة !' .

ســـارة



قضيت شهراً أو شهرين أتنقل بين نصوص دراما القرن الثامن عشر ، حتى تمكنت من تحديد النوع الأدبى الذى تنتمى إليه مسرحية '**سكان الحدود**' مع مقارنتها بمسرحيات روبرت سذى وكولريدج مثل **الندم** **وسقوط روبيسبير** ومسرحية **اللصوص** للكاتب الألمانى شيلر التى أثَّرت فى الشعراء الانجليز ، وانتهزت فرصة انشغال الانجليز باحتفالات عيد الميلاد ورأس السنة فانغمست فى الكتابة ، ثم وصلنى خطاب من نهاد تحدد لى فيه موعد عودتها فاستقبلتها فى المطار ولم تكن تتحدث فى طريق العودة إلى لندن هذه المرة إلا عن الموظفين فى مصر وتعذر مغادرة البلد ، رغم أن عبد الناصر رحمه الله كان قد بدأ يسمح بالهجرة لمن يريد ، وجاءت معها بصحيفة الأهرام وفيها قرأت أن عدد الذين هاجروا من مصر عام ١٩٦٨ بلغ ٣٣ ألفًا ، وارتفع الرقم إلى ٩٠ ألفًا عام ١٩٦٩ ، ولم يكن أحد يدرى عدد من سافروا أو هاجروا عام ١٩٧٠ (ربما لأن الإحصاءات لم تكن قد اكتملت) ومعنى ذلك على أى حال هو أنه أصبح من الممكن مغادرة مصر .

وناقشتني نهاد مناقشة صريحة في موضوع الإنجاب ، فهي على مشارف الخامسة والعشرين والأطباء ينصحون بعدم التأخر عن هذه السن ، وكان أهل مصر قد تساءلوا ولا شك عن سر المنع ، ومن ثم اتفقنا في يناير ١٩٧١ على ألا نتعمد المنع ، فنحن نسكن شقة تسمح بوجود الأطفال ، ولن يعترض أحد على وجودهم ، بعد التشتت والتنقل في لندن ، وقصت على نهاد تفاصيل الأحوال في مصر ، خصوصًا على المستوى الشخصي ، فعلمت أن فاروق عبد الوهاب سافر أخيرًا إلى أمريكا بعد حصوله على الماجستير من مصر ، وأن سمير سرحان وعبد العزيز حمودة أصبحا مدرسيْن في القسم ، وأن سمير يكتب النقد المسرحي في 'صباح الخير' ، وحكت لي أخبار زواج (أو إعلان زواج) رشاد رشدي ، وكان يخفي زواجه من السيدة ثريا أثناء وجودنا في مصر ، وعندما تم الطلاق بينه وبين الدكتورة لطيفة الزيات وصلني منه خطاب قصير يقول إنه طلقها بناء على رغبتها . كما علمت كيف توالى على رئاسة تحرير مجلة المسرح صلاح عبد الصبور وعبد القادر القط قبل أن يتوقف صدورها ، فالبلد رسميًا في حالة حرب ، والشعار الرسمي الآن هو الكفاح من أجل 'إزالة آثار العدوان' .

وحكت لي نهاد عن ولادة حاتم أكبر أبناء سمير سرحان يوم ٥ يناير ١٩٧١ ، وكيف زارت سميتها نهاد جاد في المستشفى ، وحملت الطفل الجميل وقبلّته ، وقلت لها إننا نتمنى طفلة، وقالت ليتنا نرزق حقًا بطفلة ، وفي مارس أكد لها الطبيب أنها حامل ، وحدد لها أواسط ديسمبر موعدًا للولادة ، ولا أذكر من كان أول من اقترح تسمية الطفلة (إن كان المولود أنثى) بسارة ، ولكننا لم نكن نختلف حول ذلك الاسم الجميل ، وفي إبريل زارني أخي مصطفى (الدكتور مصطفى الآن) الذي كان في طريق عودته من موسكو إلى القاهرة ، وأذكر حادثة طريفة تؤكد ما ذهبت إليه من اختلاف بين الثقافتين العربية والأوربية .

كنا في القطار عائدين من لندن إلى ردنج حين وجدنا في المقصورة قبالتنا فتاتين انجليزيتين تتحدثان بلهجة سكان الريف في مقاطعة باركشير Berkshire (وتنطق في الجنوب إما باركْ شَرْ أو باركْ شير واختصارها باركْسْ) وهمس لي أخي ولم يكن قد بلغ الثامنة والعشرين بعد ، إن أهم ما يميز الانجليزيات عن الروسيات هو الرشاقة ، بل كان إذا رأى امرأة ضخمة مربعة في لندن قال إنها روسية ! وفهمت أنه بهر برشاقة الفتاتين ، في حين أنني كنت معتادًا على هذا الشكل ، فلم أجد فيه ما يستلفت النظر ، وأحسست أنه يريد تزجية الوقت بالحديث معهما ، فقلت لهما باللهجة الجنوبية 'المثقفة' إن أخي وصل لتوه من موسكو

وهو يدهش لرشاقة الانجليزيات ! فضحكت إحداهما وقالت ولكن وزنى زاد رطلين منذ أن بدأت العمل فى هنتلى أند بامرز « (Huntley and Palmers) وهو مصنع للبسكوت يطالع القادم من لندن إلى ردنج بمبانيه الضخمة) ومن ثم بدأنا الحوار عن البسكوت إذ أكدت الثانية أنها لم 'تسمن' إلا بعد أن تزوجت ، وقالت ضاحكة : « ولكن جودى Judy (أى صاحبتها) لديها استعداد وراثى للسمنة وقالت لمصطفى: 'لو رأيت والدتها لظننت أنها روسية!' وضحكنا ثم قلت لهما إن المصريين يفضلون الجسم الممتلئ واللون الأسمر (كذبًا) فأسرعت تقول « جودى ليست شقراء فهى تصبغ شعرها' فردت جودى « بل هو لونه الطبيعى » واستمر الحوار الضاحك حتى وصلنا إلى مشارف ردنج ولاحت مبانى مصنع البسكوت ، فأشرت إليه وقلت للأولى 'العودة إلى العمل ؟' فقالت « لا لا ! إنه يوم عطلة لى » وأومأتُ إلى صاحبتها فقالت جودى « لا ! لم تعد تعمل بعد أن تزوجت ! » وعندما غادرنا القطار تبادلنا الوداع وانصرفنا .

ودُهش مصطفى لأننا تحادثنا ببساطة وانصرفنا ببساطة ، أى دون معرفة سابقة ودون وعد بمعرفة لاحقة ! وهذه من الفروق الأساسية بين الثقافتين ، وللقارئ أن يدرك مدى دهشتى أنا عندما عدت إلى مصر بعد عشر سنوات فوجدت اختلاف 'العلامات' واضحًا جليًا، فالانجليزية حين تبتسم فإنها لا تُعبّر ببسمتها عن الدعوة للحديث أو التواصل ، وهى تبتسم بطريقة تلقائية لا تعبر عن رضىً أو سعادة ، وما أكثر المصريين الذين فسروا البسمات تفسيرًا مصريًا ، وأذكر أن أحدهم استجاب للبسمة استجابة مصرية فقالت له الفتاة « هل من خدمة أؤديها لك ؟ » وتملكه الحرج ولم يعرف ماذا يقول 'فاخترع' قصة لكى يبرر سوء فهمه للبسمة. وللقارئ أن يدرك دهشتى أيضًا حين وجدت أن التجهم فى مصر هو القاعدة ، وكان علىّ أن أعيد تفسير 'العلامات' – والبسمة إحداها ، وغيرها كثير .

واكتمل الفصل الثالث من الرسالة فى أول يوليو فقدمته للمشرف ، ولم يعترض هذه المرة على شيء بل اقترح أن أعمد بعد انتهائى من الدكتوراه إلى نشر النص الأول للمسرحية فى مقابل النص المعدّل (إذ قام الشاعر بتعديله وتغيير أسماء الأبطال) ولكن الحياة فى مصر ابتعلتنى وإن كنت نشرت مخطوطًا آخر للشاعر ، ولكننى أستبق الأحداث هنا ، فالمهم أننى قد

استعدت توازنى وأصبحت أعتاد الجمع بين الدراسة فى المكتبة فى أيام الأسبوع وبين العمل بالترجمة فى نهاية الأسبوع !

وفى يوم السبت ١٠ يوليو خرجنا أنا ونهاد لنرى إحدى المسرحيات فى لندن ، وقابلنا فى قطار العودة زميلة لها فى العمل تدعى جون بولارد Joan Pollard كانت تمتاز عن الجميع بذاكرتها القوية وذكائها الحاد ، وتفوق كل العاملين فى المكتبة فى معرفتها باللغات الأوربية ، ولم تكن متزوجة بل كان لها صديق بولندى تحادثه باللغة البولندية ، وعندما وصلنا كان والدها فى انتظارها بسيارته لتوصيلها إلى المنزل ، وعرضت علينا توصيلنا إذ كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف مساءً ، وكانت جون غير جميلة وممتلئة الجسم ، والسيجارة لا تفارق فمها ، وكانت مشهورة بأنها ذات رائحة غير زكية ، فحاسة الشم ضعيفة لديها وهى مثل الكثيرين من الانجليز غير مولعة بالاستحمام . وفى السيارة سألت والدها ، وكان المسئول عن الاستقبال اللاسلكى لوكالات الأنباء الأجنبية بكل اللغات ، سألته عن الأخبار فقال دون أى اهتمام « طلبوا منا تلقى وكالة الأنباء المغربية 'ماب' Maroc Arab Presse بسبب الانقلاب الذى وقع فى المغرب ! » انقلاب فى المغرب ؟ واستزدته فلم يزد ، وما إن وصلت إلى المنزل حتى أدرت مؤشر الراديو الرائع الذى كنت اشتريته وهو من ماركة 'هاكر' (وما يزال لدى) على صوت العرب ، وسمعت أخبار القاهرة (موجز الثانية بعد منتصف الليل - الثانية عشرة فى انجلترا) فقال المذيع « هناك أنباء متضاربة عن وقوع انقلاب فى المغرب ، وتقول وكالات الأنباء ... » فعلمت أن الانقلاب قد فشل .

وفى السابعة صباحًا كنت أول من يدخل المبنى ، فقالت المشرفة وكان اسمها مسز هوايت، « كنت أعلم أنك سمعت النبأ ! » وعلى الفور بدأنا الاستماع إلى إذاعة الرباط ، فإذا بالموسيقى العسكرية ، والمذيع يقول : « سوف يتحدث الملك الحسن الثانى إلى الشعب بعد قليل» وقلت فى نفسى « هذه أخبار غير متوقعة يوم الأحد ، وسوف يكون سبقًا صحفيًا ، وأحضرت الآلة الكاتبة ، وما إن بدأ الملك الحسن حديثه (رحمه الله) حتى انطلقت فى الترجمة فأرسلت الأخبار الموجزة أولاً لإذاعتها فى نشرات الصباح نقلاً عن مصدرها الأصلى from the horse's mouth ثم ترجمت الخطاب كله . وتابعنا بعد ذلك تفاصيل المحاولة الفاشلة ، وإعدام المشاركين فيها يوم ١٣ يوليو ، ولم أكن أعمل فى ذلك اليوم (الثلاثاء) ولكن

الله قدر لى أن أعمل فى الأسبوع التالى ، إذ كنت فى لندن طول اليوم ، وعندما عدت وجدت رسالة تقول : وقع انقلاب فى السودان ونريدك للترجمة ! واتصلت تليفونيا بالعمل فقيل لى إن علىّ أن أقضى نوبة ليلية أى من الثانية عشرة حتى الصباح ، وعندما وصلت قال لى المشرف : you're in clover يعنى 'يا بختك يا عم !' فسألته أن يشرح ما يعنى فقال إن إذاعة أم درمان انقطعت عن الإرسال ولا توجد مادة للترجمة . وما العمل ؟ فقال لى هامساً « هذا كلام غير رسمى off the record – اذهب فنم فى غرفة التليفزيون حتى تعود الإذاعة إلى الإرسال وسوف يوقظك المهندس ! » وعملت بنصيحته . وفى الرابعة صباحاً كانت المفاجأة !

لقد اعترض القذافى الطائرة التى كانت تقل زعماء الانقلاب الشيوعى (هاشم العطا وعبد الخالق محجوب وغيرهم) وأرغمها على الهبوط فى ليبيا ، فكان أن تمكنت القوات الموالية لجعفر النميرى الرئيس السودانى آنذاك من إحباط الانقلاب ، وسرعان ما عاد إلى السلطة ، وأعلنت إذاعة أم درمان أنه سيوجه خطاباً إلى الأمة (مزيد من الترجمة) وفى يوم ٢٣ يوليو أعدم أربعة من زعماء الانقلاب ! عيد ثورتنا ! وخطاب آخر للسادات .. مزيد من الترجمة !

خطاب آخر ؟ أين الخطاب الأول ؟ كان ذلك يوم الجمعة ١٤ مايو فى ما يسمى بثورة التصحيح . وكانت ترجمته عسيرة ، فهو يستخدم تعبيرات عامية ، ويتحدث لغة لم نعتدها فى الترجمة السياسية « عايزين يهبشوا رئيس الجمهورية » (... to get at) « اتنين لواءات بوليس قلت أحطهم فى السجن » وكانت الأزمة قد بدأت يوم الثلاثاء حين استقال شعراوى جمعة وزير الداخلية ، وتصاعدت حتى تغير شكل الحكومة تماماً ، لكننى كنت فى المكتبة ولم أطلع على التفاصيل إلا من الصحيفة فى صبيحة يوم الأربعاء ، وقرأت المزيد يوم الخميس ثم بدأت الترجمة يوم ١٤ واستمرت ليوم ١٥ مايو ١٩٧١ !

أما خطاب يوليو فكان تقليدياً ، ولم تكن فيه صعوبات ، وعندما عدت إلى المنزل وجدت خطاباً من سمير سرحان يقول إنه قادم مع زوجته نهاد جاد إلى لندن فى الشهر القادم ! وحجزت لهما غرفة كبيرة فى بيت الطلاب القديم (جنيه واحد فى الليلة) فالطلاب يتركون البيت فى الصيف والانجليز يؤجرون الغرف الخالية لمعارف الطلاب أو الطلاب السابقين بأسعارزهيدة وجاء سمير ونهاد إلى لندن وقضينا معهما أياماً سعيدة ، فذهبنا إلى المسرح وشاهدنا مسرحية أيام زمان **Old Times** لهارولد بنتر ، وغيرها ، وذهبنا إلى برايتون ،

المدينة الساحلية الجميلة ، وكانت نهاد زوجتي قد بدا عليها الحمل ، ولكنها كانت تتنقل معنا أينما ذهبنا ، وعندما رحلا أحسسنا أن الصيف قد انقضى .

وفي سبتمبر كانت عزة صليحة أخت نهاد قد أتت إلى لندن وفقًا لنظام العمل لتعلم الانجليزية ، وكانت تقيم مع أسرة في لندن ، لكنها لم تكن مستريحة ، وبعد شهر تقريبًا جاءت للإقامة معنا فكانت نسمة بليلة من مصر ، خصوصًا ونهاد توشك أن تضع المولود ، وتوثقت علاقتنا وأحسسنا بأن آلام الغربة قد زالت أو كادت . وكانت عزة قد تخرجت في قسم اللغة الانجليزية بجامعة عين شمس ، وأعتقد أننا قمنا آنذاك بأول محاولة لتصنيف الكتب لدينا وإن لم تكتمل . وكانت نهاد تتردد بانتظام على عيادة الحوامل prenatal clinic وأخبرها الأطباء أن وليدها معكوس الوضع أي أن رأسه ليست 'تحت' حتى تخرج أولاً وقالوا إنهم لابد أن ينتظروا حتى الشهر الثامن (نوفمبر) فربما يعتدل الوليد من تلقاء ذاته وإلا اضطروا إلى إجراء عملية ، فهذا الوضع (breech presentation) يتسبب في عسر الولادة وله أخطاره. وفي أوائل الشهر التاسع قرر الأطباء إجراء عملية قيصرية ، فدخلت نهاد مستشفى باركشير الملكي ، وبعد محاولات عديدة لتوليدها دون عملية ، قرر الأطباء إجراء العملية يوم ٩ ديسمبر ١٩٧١ ، وبلغني وأنا في المستشفى نبأ ولادة الطفلة ، فذهبت لاطمئن على نهاد ، فوجدتها تفيق من المخدر ثم تعود للنوم ، فقلت لها لقد رزقنا ببنت -- هل نسميها 'أمل' ؟ ورفضت فعدت إلى المنزل وأبلغت عزة بالنبأ السعيد . وكانت عزة هي التي حسمت موضوع تسمية المولود فأصبحت تدعوها سارة ، غير عابئة بأية اقتراحات قد نقدمها .

ومكثت نهاد أسبوعًا في المستشفى -- وهو من أحسن مستشفيات انجلترا -- وتتمتع بالرعاية الصحية الكاملة ، وتعلمت إرضاع الطفلة ، ودربتها الممرضات على كل شيء ، وطبعًا دون أن نتكلف بنسًا واحدًا ، وكانت غرفة نهاد في المستشفى تشبه غرف الفنادق الفاخرة ، ولن أغفر لنفسي أنني كنت أفرض عليها قراءة الروايات التي أحبها ، وكنت أيامها مولعًا بجورج أورويل فقرأت جميع أعماله ، وما زالت نهاد تعاتبني على إصراري أن تقرأ ما قرأت آنذاك .

وعدنا إلى المنزل في منتصف ديسمبر تقريبًا ، وكانت عزة بمثابة أم ثانية لسارة ، وكان لاحتفالات عيد الميلاد ورأس السنة مذاق فريد في ذلك العام . لقد أصبحت لي أسرة ، وكلمة family قد تعني الأولاد فحسب بالانجليزية .

ووصلنى خطاب من هيئة الشئون الاجتماعية التابعة للمجلس المحلى بالمدينة ، وأنا لا أحب التعامل مع الحكومة أبدًا فى أى مكان ، وقد تكون التعقيدات البيروقراطية التى ورثناها من الانجليز (أو ما يسمى بالروتين red tape) قد أورثتنى نفورًا من أى تعامل مع الموظفين، وكنت حين يصلنى خطاب دون طابع بريد أستريب به وأخشى أن أفضه ، وأنا لا أرحب حتى الآن بمثل هذه الخطابات المرسلة فى مظاريف مصنوعة من ورق غليظ ذى لون بنى ، حتى لو كان يحمل لى نبأ سارًا . ولذلك أسرعت لمقابلة الموظفة فى الموعد المحدد ، وبدأت تسألنى أسئلة غريبة عن ظروف زواجى ، وفى أى 'مسجد' عقد القران ، وبعد أن أبديت من الصبر ما استطعت أن أبديه سألت إحداهما (وكانتا فتاتين فى مقتبل العمر ، الأولى هى التى تسأل والثانية تسجل ما يقال) عن السبب فى ذلك كله ، فقالت إننا نخشى أن تكون تزوجتها رغم أنفها ، فكثير من الأغراب (المسلمين) يفعلون ذلك ، وخصوصًا من باكستان . وأكدت لها أن زوجتى تزوجتنى طائعة مختارة ، وأن مصر تختلف عن باكستان فى ذلك ، وبدا عليهما الاقتناع ، فقالت 'الرئيسة' : إذن نكتب لك الشيك ! شيك ؟ نعم. هدية من البلدية للطفلة وقيمتها ٢٥ جنيهًا ! وعدت إلى نهاد أزف إليها النبأ السعيد ، وفى أعماقنا تتردد المقولات المصرية التقليدية من أن الطفلة رزقها واسع .



أصبحت سارة محور حياتنا ، وكانت نهاد تتبع إرشادات الدكتور سبوك فى كتابه المشهور 'رعاية الطفل والرضيع' ، ولم نلبث أن شعرنا بأن الشقة لم تعد كافية ، فقدمنا طلبا لاستئجار منزل مستقل فى نفس الموقع ، وفعلاً انتقلنا إلى المنزل رقم ٢١ ، وكانت تستأجره زميلة لنا وتقيم فيه مع زوجها كبير المهندسين فى العمل ، وكان كلاهما قد تقدمت به السن ، ولكنها كانت تحافظ على رشاقتها أو قل إنها كانت محتفظة بقوامها well - preserved ، وكانت تقيم علاقة حميمة مع شخص من أوربا الشرقية ، وزوجها يعانى من التجاهل ويشكو للأصدقاء ، ثم أشفقت على حاله امرأة من زميلات زوجته اسمها بتى Betty ، وكانت تتميز بالمرح والبسمة الدائمة ، مما كان يخفى عيوب الهرم ، فالعطار لا يصلح ما أفسده الدهر ،

ولكن المرح يخفيه ، وكثيراً ما كنت أعجب للغضون التى تكسو ملامحها ثم لا تكسبها مظهر المسنين ، ووجد الزوج المهجور أنيساً شفيقاً فى تلك المرأة ، فكانا يختفيان فى فسحة الظهيرة، ثم يظهران وقد توردت الخدود وانبسطت الأسارير ، وسرعان ما استقال كل منهما من العمل واختفيا إلى الأبد .

وأذكر أننى كنت أشاهد المنزل مع مستأجرته السابقة قبل الموافقة على الانتقال إليه ، وبعد الاتفاق عرضت توصيلى إلى العمل بسيارتها فوافقت وقالت لى ونحن فى بعض الطريق : هل تعلم أن 'بتى' قد استقالت فقلت لها 'خسارة !' (Pity!) فقالت 'Is it ?' فتساءلت عما تعنى فأوضحت Is it a pity ? فقلت لها إن بتى سيدة ظريفة ('such a nice girl') فقالت لى كأنما لتفضى إلىّ بسرّ لا يعرفه أحد :

' It is my belief that it was her who took away my husband'

أى إنها تعتقد أنها هى التى 'اختطفت' زوجها ، ولم أشأ أن أشير إلى ذلك الشخص (وكان من تشيكوسلوفاكيا) الذى «كانت تصاحبه علنًا ، فغمغمت وتظاهرت بالدهشة ، فعادت تقول : « الرجال يصابون بالجنون بعد الخمسين ، ويتوقعون من الزوجة أن تظل أُمًّا لهم حتى فى شيخوختهم » .

وعندما وصلنا وتم الاتفاق أبلغت نهاد ، ثم اتصلت بالمشرف على المساكن caretaker وهو السيد بنديلو Bendelow كى نبدأ الانتقال ، وبعد يوم واحد حضر سائق يعمل فى محل عملنا واسمه ديريك وإن كنا نناديه بلقب چنچر Ginger لأنه أحمر الشعر ، والاسم يعنى (الزنجبيل) (الجنزبيل بالعامية) وبدأنا تحميل السيارة بالكتب مثلما حملناها عند الرحيل من لندن ، ثم بقطع الأثاث مفردة ، وتم الانتقال فى يوم واحد ، وكانت عزة نعم المعين فى هذا الجهد ، وما لبث التليفون أن رن ، وكان المتحدث فتاة من شركة التليفونات تسألنى إذا كنت أريد إدراج اسمى فى دليل التليفونات المحلى فلم أعترض ، واشترينا غسالة ملابس أوتوماتيكية ماركة انديسيت الايطالية ، توفيراً لجهد غسيل اللفف ، وما تزال الغسالة موجودة لدى بعض أفراد الأسرة حتى اليوم !

كان للمنزل حديقة خلفية بها شجيرات ورود ، وحديقة أمامية تقتصر على مساحة مزروعة بالكلأ ، وكان الحفاظ على هندام الحديقة يقتضى شراء آلة لقطع الحشيش ، فاشتريتها بثلاثة

جنيهات ، وكانت يدوية أى يدفعها الإنسان دفعًا لتقص ما طال من الحشائش ، وقد حلّت الآن محلها آلات ذوات محركات كهربائية . وكانت الحدائق الخلفية للمنازل متجاورة لا يفصل بينها سوى سور من النباتات المنخفضة (نحو متر واحد) فكان الجيران يتبادلون التحية عبر السور ، ولما انقضت إجازة الوضع عادت نهاد إلى العمل ، ولكنها لم تستطع الجمع بين العمل ورعاية سارة ، فاستقالت ، وأصبحت أنفق وقتى بين الدراسة والعمل - ورعاية الطفلة !

كانت أهم الأحداث السياسية التى فوجئ بها العالم ما يسمى بالانفراج الدولى detente إذ دخلت الصين الأمم المتحدة ، والتقى زعماء أمريكا والاتحاد السوڤييتى ، وبدا أن التوازن الذى كان قائمًا فى الحرب الباردة بين المعسكرين (الشرقى والغربى) قد يختل ، فإذا اتفقت الدولتان العظميان على شىء أصبح من المتعذر على الدول الأخرى أن تعارضه ، مما كان ينذر بعواقب 'مجهولة' فى أفضل الحالات ، و 'وخيمة' فى أسوئها ، وكانت سياسة مصر تتجه إلى اكتساب التأييد الأوربى ، خصوصًا دول غرب أوروبا ذات النفوذ والثراء ، وكانت أنباء زيارة نيكسون ، رئيس الولايات المتحدة آنذاك للصين فى فبراير ثم اجتماعه مع بريچينيف ، الرئيس السوڤييتى فى مايو ١٩٧٢ من الأنباء التى هزت العالم ، وإن كان الهدف الواضح هو محاولة إنهاء حرب ڤيتنام بأى طريقة بعد أن اتضح أن التورط الأمريكى قد تجاوز الحدود 'المسموح بها' وأن الخسائر فى الأرواح أصبحت تقض مضاجع المواطنين العاديين .

وفى غمرة انشغالنا بترجمة ردود الفعل العربية وقع فى آخر مايو حادث كانت له عواقب 'إعلامية' كبيرة ، إذ قام ثلاثة من اليابانيين المسلحين بإطلاق النار فى مطار اللد الدولى فى تل أبيب على المسافرين والمستقبلين فى المطار فقتلوا ٢٥ شخصًا وجرحوا ٧٢ آخرين ، وذلك بمجرد هبوط المسلحين من طائرة تابعة لشركة إير فرانس ، وقُتل أحد المسلحين ، وانتحر الثانى، وقبض على الثالث وكان اسمه 'كوزو أوكا موتو' وقال إنه ينتمى لجيش النجم الأحمر، وهى منظمة يسارية يابانية تناصر الفدائيين العرب . أما ردود الفعل فكانت متناقضة ، إذ قالت منظمة التحرير الفلسطينية إنها مسئولة عن الحادثة ، وقال اليابانى فى محاكمته التى استمرت حتى ١٧ يوليو (وحكم عليه بالسجن عشر سنوات) إنه يمثل ضمير العالم الذى أقلقه الوفاق الدولى ، وشغلت الصحف بالحديث عن الإرهاب العربى ، وجعل حزب المحافظين

الذى كان قد تولى السلطة قبل ذلك بعام يتحدث عن مغبة تأييد من 'يلوثون أيديهم بدماء الأبرياء' كأنما كان اليابانيون عربًا !



كان من الواضح أن حياتى لم تكن تسير فى الطريق الذى رُسِمَ لها ، إذ أصبح لى مجتمع كامل من الأصدقاء والمعارف ، فى الجامعة والعمل ، وبدأت أتذوق لطائف اللغة الانجليزية التى ألتقطها بشغف من أفواه هؤلاء وهؤلاء ، كما اكتسبت عادة ما زلت أمارسها وهى إرهاف السمع لما يدور حولى من أحاديث ، حتى ولو كانت عابرة – فى الأتوبيس أو فى الدكاكين أو فى الطريق العام ، استكْناهًا لدلالة هذا التعبير أو ذاك ، وأصبح من مصادر متعتى أن أسير ساعة أو بعض ساعة بعد الخروج من الكلية أو من العمل ، فأتأمل الطبيعة من حولى ، وأرقب الناس والأشياء ، وقد أتجول فى الأسواق ، ثم أقفل راجعًا راكبًا .

كانت الحاسة الأولى هى حاسة السمع ، إذ اكتسبت من الحياة الانجليزية تحاشى 'البحلقة' (الحملقة ؟ staring) التى تعتبر عيبًا اجتماعيًا شائنًا ، فكانت عينى تلمح الأشخاص أو الشخص بسرعة وتستوعب التفاصيل ، ثم تتابع أذنى الحوار أو الحديث المتقطع، وكان أقرب منهل لهذه الأحاديث الدكاكين الصغيرة ، حيث تأتى العجائز اللائى يعانين من الوحدة للحديث مع بعضهن البعض ، أو لمخاطبة البائع والحديث معه فى شتى شئون الحياة ، وكنت أتظاهر بالانشغال بانتقاء حبات الطماطم مثلاً وأذنى تتابع ما يدور ، فالريف فى انجلترا ذو إيقاع هادئ ، ويسمح بالوقوف والتأمل والاستماع .

وكثيراً ما كنت أستغرق أثناء تلك الجولات فى تأمل ما قرأت واسترجاع ما فهمته إذ كنت أحيانًا أعانى مما كان عبد اللطيف الجمال يعانى منه ، ألا وهو تشتت الأفكار بسبب تنوع مصادرها وعدم تناغمها ، فالذى يقرأ فى موضوع واحد يستطيع التركيز وتنسيق الأفكار، أما الذى لا يقف عند حدود البحث الذى كَلَّف نفسه به ، فهو يحتاج إلى فترات يلم فيها شعث أفكاره ، بل ويلم شتات نفسه أيضًا .

كنت أتصور أننى أستطيع أن أنتهى من الرسالة فى الصيف ، ولكن الفصل الرابع يدور حول أساليب المواويل الغربية (البالادات) وكان يقتضى البحث ساعات طويلة فى المكتبة ، خصوصًا فى غرفة الكتب المخزونة (stack room) حيث توجد بعض النصوص الأصلية ، وبعض الطبعات القديمة التى أصبحت ذات قيمة تاريخية لندرتها ولم يكن يسمح لأحد بالاطلاع عليها إلا بعد إذن خاص ، ولا يسمح بتصوير أى صفحات منها إلاّ بترخيص وعلى ألا تتجاوز الصفحات فصلاً واحدًا ، وكانت آلة التصوير (زيروكس) اختراعًا جديدًا وتكاليفه باهظة .

وفى أوائل يونيو ١٩٧٢ وصلنى خطاب من إدارة البعثات يقول إن مصر قد أوقفت صرف مرتبى لأننى استوفيت الحد الأقصى للبعثة وهو سبع سنوات ، وكان معنى ذلك هو الارتباك الشديد فى أحوالى المالية ، فأنا لا أقتصد فى الإنفاق ولا أدخر شيئًا من دخلى (وهذا معيب فى انجلترا) بل أنفق كل ما يأتينى سواء أكان ذلك فى شراء الكتب أو شرائط الموسيقى أو فى الذهاب إلى المسرح ، وقررت أن أذهب إلى لندن لمخاطبة رئيس المكتب فى الموضوع ، فذهبت فى الصباح الباكر ، وما إن دخلت المكتب حتى سمعت صوتًا مألوفًا ينادينى ، والتفت فوجدت وجهًا مصريًا يطالعنى ببسمة، وخيل إلىّ أنه أحد أقاربى ، لولا أنه نادانى بعنانى! وعندما اقتربت تسمرت فى مكانى : كان 'عبده' ! وبعد الترحيب وبعد التغلب على الدهشة الصاعقة ، صحبته إلى الطابق الأول حيث قابلت رئيس المكتب ، وتأكد لى استحالة مد البعثة ، ومن ثم هبطنا وخرجنا معًا حتى دون أن أسأله إن كان قد انتهى مما جاء من أجله ، وعند ناصية كيرزون (Curzon) ستريت وجدنا مقهى دخلناه دون كلام وجئنا بالقهوة ، وانخرطنا فى الحديث حتى نسينا الزمن !

كانت قصتى قصيرة وكان يعرفها ، ولكن قصته كانت طويلة ، وكنت أتلهف على سماعها! وعندما بدأ الحديث كان يفترض أننى أعرف الخطوط الرئيسية على الأقل ، فكان يشير إلى بعض الأسماء والأماكن متوقعًا منى الاستجابة ، ولكننى قد ابتعدت تمامًا عن عالمه ، فألححت عليه أن يبدأ من حيث توقفنا أى منذ ما يقرب من ست سنوات ! فقال 'عبده' :

« رحلت كاثلين فى أغسطس (١٩٦٦) وقضيت شهر سبتمبر كله وحيداً أحاول أن أعتاد الوحدة والوحشة ، وآمل فى كل يوم أن أراها عائدة إلى الكلية ، فكانت ما تزال مسجلة للدكتوراه ، ولكن الشهور مضت دون أن ألمح لها أثرًا ، ولم أتقدم تقدمًا يذكر فى دراستى ، إذ وجدت أننى قد تغيرت فى أعماقى وأصبحت أريد كاثلين بأى طريقة ! وصادقت بعض الفتيات فى تلك الآونة ، ولكن صورة حبيبتى كانت ماثلة دائمًا أمام عينىّ ، وعندما سألتُ عنك وعرفتُ أنك تزوجت من مصرية قررتُ ألا أرهقك بمتاعبى ، وأَدْرَكَ المشرف أننى أمر بمحنة ، فقد انتهى زملائى من الدكتوراه وتركوا الكلية ، لكننى لم أكن قد انتهيت حتى من الجانب العملى الذى قد يأتى لى بالنتائج اللازمة للرسالة ! وقال لى ذات يوم إنه يريد أن يرانى، فذهبت إليه وسمعت منه بلهجة الانجليز العملية ما يشبه الحكم بالإعدام ! إذ نظر إلىّ طويلاً وقال « أنا قلق عليك » (I'm worried about you) وكدت أنهار لكننى تماسكت وقلت له إن لدى همومًا مؤقتة ، وهى عابرة ولا شك ، إلى آخر ذلك الكلام ، دون أن يبدو عليه أدنى اقتناع . وبعد مناقشة تفصيلية للعمل الذى كنت أقوم به قال لى : « إنك تحتاج إلى راحة . هل استشرت طبيبًا نفسيًا ؟ » تخيل ! لقد ظن أننى مختل ولا أقول مجنون ! ربما بدا له أننى أعانى من اكتئاب أو من انهيار نفسى ولكن كيف يسألنى هذا السؤال ؟ على أى حال لم يلبث أن ابتسم وقال : « اذهب إلى مصر لزيارة الأسرة حتى يهدأ بالك ! لا تتردد فى الذهاب وهذا خطاب كتبته إلى مدير مكتب البعثات . سلّمه له وسوف يسمح لك بالإجازة ! » وتناولت الخطاب ووضعته فى جيبى وخرجت .

« كنا فى أواخر مايو ١٩٦٧ – وأنت تذكر ما حدث بعدها للمصريين جميعًا ، أما ما حدث لى أنا فأغرب من الخيال ! لم أذهب طبعًا إلى مكتب البعثات ، وظللت أحتفظ بالخطاب فى جيبى أسبوعًا ، ثم سألت عنك فقيل لى إنك مريض ، فسألت كل يوم حتى تأكد لى أنك شفيت ، فقررت أن أزورك يوم ١٠ يونيو ، للحديث فى السياسة وغيرها ، وكنت أريدك أن تقول لى ما أفعل بالخطاب ، لأننى كنت ما أزال أفكر فى الذهاب إلى مصر ، ولو لزيارة عابرة ، بعد أن تلبد ذهنى تمامًا ، وفى الصباح مر علىّ سامى الكاشف ليطمئن علىّ فقلت له ما أفكر فيه ، وأريته الخطاب ، فإذا به يفضه ، ويقدم إلىّ ورقة – إلى جانب الخطاب الرسمى – بل قل مجرد قصاصة عليها عنوان كاثلين وأرقام تليفوناتها ! كنت أعرف أن سامى الكاشف يعرف

القصة تمامًا هو وإبراهيم الدوينى كما قلت لك ، فلم أعر لذلك أهمية لكننى كنت أرتعد أمام الاحتمالات الكثيرة : ترى هل أعطتها عمدًا للمشرف أم نسيها المشرف فى ثنايا الرسالة ؟ وهل يعرف المشرف القصة ؟ وقلت فى نفسى : « يا داهية دقى ! »

« لن أطيل عليك فقد اتضح أن المشرف برئ ، وأن القصاصة لم تكن فى المظروف ، بل أتى بها سامى من إبراهيم الذى قال إنه عرف من زميلة لها عنوانها وأرقام تليفوناتها ، ولكننى كنت أجهل ذلك ، وكنت أصدق كل ما يقوله سامى ، فأحسست بغمامة أمام عينى ، وأن الأرض تميد بى ، فاقترح سامى أن نتصل بكاثى ونسألها ، وكنت رغم الفرحة الغامرة أرتعد فى أعماقى مما أسمعه عن مصير من يخدع فتاة أو من يعدها بالزواج ثم يخلف وعده ، فعقوبة إخلاف الوعد breach of promise رهيبة ، وربما لن تقف فى حالة الأجانب عند مجرد 'الترحيل' من انجلترا ، بل ربما صدر حكم يتضمن الغرامة والحبس أو إحدى هاتين العقوبتين كما يقولون ! وسألت سامى ضارعًا : ماذا علىّ أن أفعل مع المشرف ؟ فضحك ضحكًا شديدًا وصارحنى بالحقيقة ، ثم تركنى وخرج !

« علمت فيما بعد أنه أتى خصيصًا لإعطائى تلك المعلومات ، وكانت لعبة دس الورقة مع الخطاب دعابة من دعاباته ، ولكننى كنت ما أزال منهارًا ، فالوطن فى محنة وأنا فى محنة ، لكننى تغلبت على مخاوفى واتصلت بالرقم الذى وجدته مطبوعًا على الورقة ، فردت علىّ فتاة رقيقة الصوت تسألنى عما أريد ، فقلت لها هل كاثين موجودة ؟ فقالت لى انتظر لحظة ، وبعد ثوان سمعت صوت كاثى ! ولم أعرف ماذا أقول ، ولكن ربنا يلهمنا فى هذه الحالات ، فقلت لها اسمى ، وعجبت من ردها العملى المفزع « أى خدمة ؟ أنا الآن مشغولة - كلمنى فيما بعد . باى باى » معقول ؟ وبعد ساعة كنت فى القطار المتجه إلى سَرِى Surrey ولم تمض ساعة حتى كنت أطرق باب المصنع !

« لن أزعجك بالتفاصيل ولكننا تزوجنا بعد أسبوع ، وقررت أن يكون زواجًا مدنيًا ، فهى تتصور أننى مسلم ، وجواز السفر لا ينص على دين حامله ، وهى لا تستبعد أن يكون اسمى القبطى من أسماء المسلمين ، أو هكذا كنت أظن ! إذ لم تكد تنقضى مراسم الزواج حتى قالت لى : « نريد أن نحتفل بزواجنا فى كنيسة البلدة ! » ووجمتُ فضحكَتْ ، وقالت : « لقد كنت أتابع أخبارك منذ رحيلى يومًا بيوم ، وعندما عرفت الحقيقة بدأت العمل ! » وقضينا ليلة

الزفاف فى المنزل الذى اشتراه والدها لنا ، وكنت أحس أننى قد انتقلت إلى عالم آخر . فالبلدة ريفية جميلة ، ولا تستغرق المسافة أكثر من نصف ساعة بالقطار (لوسط لندن) ومصنع والدها ضخم وشاسع ، وبه سيارات وشاحنات ومركبات منوعة ، وعمال وعاملات وموظفون وموظفات – شىء رائع !

« ولكن أروع ما فى ذلك كله كانت كاثلين نفسها . لم أكن أتصور أن فى الدنيا نساءً بهذا الوصف ، كانت تعاملنى وما تزال كأننى محور الوجود ، كأننى مركز الكون بل وسر الحياة . أرجوك لا تضحك يا عنانى فأنا جاد ، وقد تعلمت فى هذه السنوات القليلة معنى الزواج الحقيقى ، معنى الصفاء والتفاهم فى كل شىء ولأضرب لك مثلاً واحداً على ذلك .

« كانت كاثلين منذ أن تزوجنا تعاملنى معاملة من يخشى أن يضيع صاحبه من يده ، فأحسست كأننى جوهرة ثمينة ، وكانت تقول لى دائمًا إننى حر فى أن أتركها فى أى وقت إذا أردت ، وكانت تقول لى حذار أن تتجاهل عملك فى الدكتوراه ، وإذا كنت تريد العودة إلى لندن سأعود معك ، وإذا قررت أن ترجع إلى مصر فسوف أرجع معك وأعيش بالمستوى الذى تريده. ألا تظن أننى أستطيع أن أحصل على عمل مثل بقية النساء العاملات فى مصر ؟ وكانت كاثلين جادة فى كل شىء ، فلم يحدث أن كذبت علىّ أو تظاهرت بغير الواقع – أما المثل الذى أريد أن أضربه لك فهو علاقتها مع أحد أصدقاء الصبا ، وكنت قد اكتشفت هذه العلاقة بعد نحو عام من زواجنا ووجدت الدم الصعيدى يغلى فى عروقى ، وعندما خلدت إلى الصمت أولاً حزنًا وكمدًا عند اكتشافى الأمر وجدتها تهرع إلىّ وتسرد القصة من البداية إلى النهاية ، بكل التفاصيل التى لا أجرؤ حتى على البوح بها إليك ، وبما لا تستطيع الأفلام السينمائية تصويره !

« كانت مثل الذى يعترف للكاهن بالخطية ، رغم أنها لم تخطئ ، ولكن منبع إحساسها بالذنب هو أنها لم تفصح عن تلك القصة ، وأغفلتها تمامًا ، وعندما قلت لها ذلك قالت إنها لم تتعمد إخفاءها لكن ذلك 'الولد' كان قد خرج من حياتها إلى الأبد ، ولم يعد له من الوجود ما يقتضى ذكره ، على عكس علاقتها مع النيجيرى ، فقد قصتها علىّ منذ البداية ، لأنه كان أول من يدخل جنتها .

« ولم يتغير سلوك كاثلين مطلقًا -- لا قبل ذلك ولا بعده - وما تزال تحافظ على أسلوبها الرائع فى تصحيح أخطائى اللغوية ، فهى تتعمد تكرار ما قلته بعد تصويبه حتى تفتح عينى على الخطأ ، مهما يكن الخطأ تافهًا - سواء فى النطق أو النحو أو اختيار الألفاظ . وإذا كنت أرسم لك صورة زوجة مثالية ، مدفوعًا بحبى لها ، فالحقيقة أن الطابع المثالى كان طابع الزواج لا المرأة ، فالمثالية هنا هى التوافق بل والتقارب إلى حد التطابق فى النظر والإحساس والفكر ، وكنت أشعر أنها تبذل فى ذلك جهدًا كبيرًا ، وكثيرًا ما كانت تعبر عن مشاعرى الدفينة بلغتها حين نرى فتاة جميلة أو شابًا وسيمًا ، وكثيرًا ما كنا نتبادل الأسرار همسًا فيما يخصنا وحدنا ، وأهم من ذلك كله أننى كنت لا أشعر لوالديها بوجود فى حياتنا ، وكانت كثيرًا ما تقول لى لماذا لا تدعو أفراد أسرتك لزيارتنا ، أو تلح علىّ أن أكتب إليهم خطابات أطمئنهم فيها على أحوالى ، وكنت أكذب عليها وأزعم أننى فعلت ذلك وأفعله ، وهى لا تكذّبنى أبدًا مهما قلت . تصور ماذا يقول هؤلاء الصعايدة لو شاهدوا حماتى وهى تضع المساحيق والأصباغ أو ترتدى الشورت والمينى جيب ! » .

وكنت على اهتمامى بما أسمع ، أشتاق إلى معرفة موقفه الدراسى ، وموقف أهله فى مصر، فالموجز الذى رويته فى صفحات استغرق منه ساعات ، ونهضنا نسير فى الهايدبارك وهو يكثر من استخدام اللغة الانجليزية ، ويتحدث بطلاقة حين يروى حادثًا وقع بين الانجليز ، مما أدهشنى حقًا ، ولكننى كنت أعرف أن المصرى حين يضطر إلى اكتساب اللغة لن يتفوق عليه أحد ! وأما الذى هزّنى هزًا فى ذلك الحديث فهو اللمسة الشاعرية التى كان يضفيها على الأشياء ، فكان أحيانا يقول : شوف يا عنانى أنت فى ردنج وأنا فى جيلفورد (Guildford) ... وبيننا طريق من الأشجار لكننا لا نسير فيه ولا نلتقى ! وعندما وصلنا إلى 'ماربل آرتش' (Marble Arch) وهو أول شارع أكسفورد أوقفته وطرحت عليه السؤال المباشر فأجاب :

« الدكتوراه الدكتوراه ! هذا هو جنون المصريين ! الجميع يريد شهادة ، لكننى أنجز فى بحوثى ما يفوق ألف دكتوراه ! إننا نعمل فى مشروعات رائعة تتصل مباشرة بالسوق وبما يحتاج إليه الناس ، ونشعر بالفائدة مباشرة ، فلا يوجد ما هو أمتع من الإنتاج ! » .

وقلت مستدركًا « والمكسب المادى ؟ » فقال « طبعًا ! » وأشار بيده إلى إحدى الصيدليات من سلسلة Bootes وقال : « ما أجمل أن تعرف أن إنتاجك يباع هنا ! » ثم دخلنا مطعم



سارة تطعم البط فى البحيرة فى ردنج

'فورتى' (Forte) الذى كان قد فتح أبوابه لتوه، وجلسنا لتناول السلاطة ، وأحس بما أريد أن أسأله فقال (دون سؤال) « لم يحصل أينا على الدكتوراه ! لم نشعر بأننا فى حاجة إليها ، وكتابة الرسالة لعبة سخيفة ، فالنتائج يمكن إجمالها فى صفحتين ، والباقى تفاصيل يعرفها كل إنسان ، ووصف للتجارب أو للتجربة دون داع ، أى « حشو ورق وخلاص » !

كان الحديث ممتعًا فأنسانى ما جئت من أجله ، بل أنسانى أن أسأله ما كان يفعل فى مكتب البعثات ، وعندما سألته قال دون اكتراث: كنت أسدد القسط ! وفهمت منه أنهم طالبوه عندما أعلن عن رغبته فى عدم العودة بأن يدفع تكاليف البعثة ، فاتصل بأحد المحامين الذى رفع دعوى على وزارة التعليم العالى ، وكانت القضية ما تزال معلقة (أى لم يصدر فيها حكم نهائى) لكن تجديد جواز السفر كان يشترط الموافقة على دفع النفقات فاتفق مع الوزارة، من باب إظهار حسن النوايا، على تقسيط المبلغ ، وبدأ فى سداده . (وقد علمت فيما بعد أنه كسب القضية وإن لم يسترد الأقساط - بعد) .

وبعد الغداء سرنا حتى لانكاستر جيت (Lancaster Gate) فى شارع بيزووتر (Bays-water) المحاذى للهايدبارك (Hyde Park) ، وكان قد « تسلطن » فأخذ يقص علىّ مزايا الريف الانجليزى، وجمال الانجليزيات، وخلوهن من العُقد (وكان يعنى بها قواعد السلوك الشرقية للفتيات - خصوصًا لديهم فى الصعيد) وأسرف فى الحديث عن محاسن بنات الريف حتى بدأ الشك يخامرنى فسألته على حذر : « لكن أنت طبعًا لا ... » وقال ببساطة «أنا 'لا' إيه ؟ أنا - رغم زواجى الناجح - لا أدّعى القداسة ! نحن بشر يا عم عنانى ! وكانت تحبنى مهما يكن من أمر ! » وتحدثنا عن أطفالهما فقال إنهما أنجبا غلامًا وفتاة وهما فى

المدرسة الآن (أو روضة الأطفال - لا أذكر) وعندما تشعب الحديث سألته عن موقف أسرته فقال لى دون اكتراث : لقد أدرت ظهرى للشرق ! ولن تصدق ما أعيش فيه من سعادة حتى تزورنى !

وأخذت القطار عائداً إلى ردنج ، بعد أن تبادلنا العناوين وأرقام التليفونات ، وكان اليوم يوم عمل لى فذهبت إلى المنزل للاطمئنان على سارة ونهاد ، وخرجت على الفور ، وأجلّت حكاية 'الحدوتة' لنهاد لليوم التالى . كانت قصة 'عبده' قصة الكثيرين الذين أداروا ظهورهم للشرق ، وعلمت فيما بعد أن أسرته حاولت الاتصال به مرات عديدة فلم توفّق ، فكأنما تعمد أن يقطع كل ما كان يربطه بالماضى ، وقد زرته عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٧ وكنت كل مرة أُعجب ببراعة طفليه وقدرتهما على فهم اللغة العربية ، إذ إن 'عبده' ، رغم استغراقه فى الحياة الانجليزية ، « لا يشعر بكيانه » كما يقول إلا عندما يتحدث العربية ، وهو يصحب ابنه فى حلِّه وترحاله ، وكان ابنه فى عام ١٩٨٧ يدرس الطب وأمامه كما يقول سنوات طويلة ويتحدث العربية بلكنة انجليزية بعض الشىء ، لكنها صحيحة كل الصحة ، وقد حدثته آنذاك عن فرص العمل الذى قد يقتضى استخدام العربية .

٤

كانت قصة عبده لا تختلف عن قصص الآخرين إلا فى أننى عاصرتها وكنت شاهداً على أحداثها ، ولذلك فعندما أتأمل العلاقة بينه وبين زوجته وهذه المسافة الشاسعة التى تفصلنى عنه زمناً ومكاناً ، أتخيل أنه 'أحمد قادوم' آخر ، زميلى الرشيدى الذى ذهب إلى نبراسكا ليدرس المبيدات الحشرية فتزوج أمريكية واستقر به المقام وانقطعت أخباره تماماً عن أسرته ، أو 'وديع' آخر ، أو 'أحمد حسن' آخر ، وغيرهم عشرات ممن أعرفهم ، وقد يكون هناك المئات الذين لا أعرفهم، إذ جاء فى تقرير إدارة البعثات الذى نشر فى أوائل السبعينيات أن ٤٠ ٪ فقط من المبعوثين للدراسة فى الخارج يعودون إلى الوطن ، والقضايا التى ترفعها الإدارة نادراً ما تحسم ، بل إن التهديد بسحب الجنسية لم يعد من الأسلحة الماضية بعد أن

صدر قانون يعتبر ذلك 'غير دستورى' فيما سمعت ، وعندما كنا فى لوس أنجيليس عام ١٩٨١ قال لى الدكتور شبايك (أمين عام اتحاد الجالية المصرية هناك) إن ولاية كاليفورنيا وحدها يقيم فيها ربع مليون مصرى، وعندما أبديت تشككى فى الرقم أخرج لى كتابا ضخماً يضم الأسماء والعناوين . وأنا أعرف منهم واحداً على الأقل هو إبراهيم كيرة - الشاعر وزميل الصبا فى مدرسة الأورمان - الذى يقيم فى سان فرانسيسكو بصفة دائمة .

إذا أطلقنا على حياة المصرى خارج مصر صفة الحياة فى الغربة فلن نكون على صواب، فالمصرى يحمل مصر فى قلبه ووجدانه مهما ابتعد عنها ، ولا أعتبر أن الدكتور شندى الذى زرناه فى منزله على ساحل المحيط الهادى (أنا وسمير سرحان ولويس عوض وصلاح عبد الصبور) عام ١٩٨١ يعيش فى غربة ، فمنزله قطعة من مصر ، وأحاديثنا كانت تدور عن مصر، وأنا أضرب المثال بأمريكا بسبب بُعدها ، أما من يعيشون فى انجلترا فهم يحسون بأنهم أقرب إلى مصر بأكثر مما نتصور . وقد شغلنى مفهوم الغربة فى تلك الأيام لأننا - أنا ونهاد - لم نكن نشك يوماً ما فى أننا سنعود إلى مصر ، ولم يكن التوقف عن الإنتاج الأدبى يقلقنى ، بل لم يكن يقلقنى التأخر فى كتابة الرسالة ، أو حتى انقطاع مرتب البعثة ، لأننى كنت استمتع بما أقرأ ، وبما أرى ، وبمن أقابل وأحادث ، وكان العمل يقتضى منى إهمال الدراسة أياماً متوالية ، فأنغمس فى متابعة أحداث العالم ، وأصبحت أجد متعة فيما تتمتع به صياغتى للترجمة من تقدير ، لكننى كنت فى أعماقى أتأمل فكرة الغربة - ماذا لو اشترينا منزلاً ؟ لا .. لم تكن نهاد تقبل ذلك أبداً ، فشراء المنزل معناه ترسيخ جذورنا - مادياً على الأقل - فى تربة أجنبية ، وهو ما لم تكن ترضاه مطلقاً . لقد كانت نهاد بحق - كما قال عزت أبو هندية - صمام الأمان .

وتوالت أحداث صيف ١٩٧٢ مسرعة لاهثة إذ أمر السادات بطرد الخبراء السوڤييت من مصر فى ١٨ يوليو ، وظهر كبير المعلقين العسكريين للإذاعة البريطانية على شاشة التليفزيون ليتحدث بثقة عن انهيار 'مصداقية' الجيش المصرى ، وكان اسم المعلق جيم بيدالف Jim Biddulf وكرهته من أعماقى ، إذ كان يمثل العنجهية البريطانية وروح الاستعمار القديم ، وتوالت ردود الأفعال ، فأجرى التليفزيون فى الشبكة التجارية تحقيقاً مع موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى ، الذى قال إن إسرائيل تستطيع احتلال العالم العربى كله فى ساعات ،

وسأله المذيع 'والمغرب ؟' فضحك ديان وقال : المغرب بعيدة ! فعاد المذيع يسأله 'والسودان ؟' فقال ديان 'وماذا نفعل بالسودان ؟' .

كانت التعليقات مفزعة ، وجاءت فى الوقت الذى كنا نتسلى فيه ببطولة العالم للشطرنج بين روبرت (بوبى) فيشر الأمريكى وبوريس سباسكى (الروسى) ، وكان سباسكى قد فاز فى أول دور ، وانسحب فيشر فى الدور الثانى ، ثم توالت انتصارات فيشر وجعل المعلقون يتحدثون عن براعة أبطال العالم فى لعبة الشطرنج - من اليهود ! ولم يكن ذلك الجانب قد خطر لى من قبل ، فالواقع أن نسبة كبيرة منهم من اليهود ، ولكن ذلك لا يمكن الاستناد إليه فى التدليل على عبقرية خاصة . وكان من الواضح أن ذلك الصيف ما يزال يحمل فى أطوائه الكثير، ومن الغريب أن تلتصق فى ذاكرتى كلمة وردت فى خطاب السادات ، وحمدت الله على أننى لم يكن علىّ أن أتولى ترجمتها ، إذ ألقاه يوم الثلاثاء وهو يوم دراسة لى فى المكتبة ، وهى كلمة 'وقفة مع الصديق' ! الصحف البريطانية ترجمتها (نقلاً عن زملائى بالتأكيد)



سارة تطعم البط فى البحيرة فى ردنج

على أنها pause أى 'لحظة توقف' ، وما تزال جميع الترجمات الرسمية وغير الرسمية للخطاب تتضمن هذه اللفظة ، ولكننى كنت أراها غير دقيقة ثم لا أرى عنها بديلاً مُقْنِعًا ! فماذا كان يعنى بالوقفة ؟ هل كلمة stand بمعناها المجازى تفى بالغرض ؟ إنها ملائمة وحدها، ولكنها لن تناسب السياق لأنك لا تستطيع أن تقول to make a stand وتتبعها بتعبير with a friend وإلا كان المعنى هو العكس تمامًا ! فإذا أبدلت with بحرف يفيد الضدية كان المعنى أقوى من المطلوب (against مثلاً) ولذلك ترانى ما أفتأ أذكرها ، وأستعرض البدائل مثل stand up to التى تعنى يتصدى لشىء ما ، وأضيق ذرعًا بالصعوبة فأحاول النسيان !

وفى أغسطس وقعت محاولة انقلاب أخرى فى المغرب ، إذ هاجمت قوة من سلاح الطيران من قاعدة القنيطرة طائرة الملك الحسن الثانى لكنها لم تصبه بسوء ، وتمكنت القوات الموالية للملك من قمع التمرد الذى كان يقوده الرائد قويرة قائد القاعدة الجوية ، وتحدث الجميع آنذاك عن استحالة المساس بالملك (أى أنه محَجِّبْ بالعامية المصرية) ولما كانت الحادثة قد وقعت فى عطلة نهاية الأسبوع فقد انشغلت بترجمة أخبارها ، ولم نكد نفيق من الصدمة حتى جاءتنا أنباء قتل ١١ من الرياضيين الإسرائيليين فى ميونيخ بألمانيا ، أثناء الألعاب الأوليمبية ، وسرعان ما انقضّت أجهزة الإعلام العالمية على العرب ، ووصمتهم بالإرهاب ، وأصبحت الصحف تتصيد الأنباء التى تسئ إلى سمعة العرب بصفة خاصة ، وبلغ من تحاملها أن أبرزت حوادث السرقات فى المحلات التجارية shop - lifting والتى كانت الإيرانيات يرتكبنها على أنها أحداث عربية ! كانت الصحافة تدين الشرق كله ، بينما كان السادات يقول فى خطاباته إن عام ١٩٧٢ سيكون 'عام الحسم' (وهى كلمة عسيرة الترجمة، تُرجمت على أنها year of decision) والصحافة تتندر بما يقول ، والموقف مُدْلَهِمّ .

وفجأة تلقت عزة أخت نهاد خطابًا من والدها يقول لها فيه إن خطاب التعيين فى الحكومة قد جاءها وإنها لابد أن تحضر لاستلام العمل ، فسافرت وتركتنا وحدنا ، وكان على نهاد أن تتحمل كل شىء لرعاية سارة وشئون المنزل ، ويبدو أننى بدأت أشعر بالضيق من الحال التى لا تبدو لها نهاية – سواء على المستوى العام أم المستوى الخاص – ولاحظت نهاد ما أنا فيه من توتر ، وتحملته وعانت منه ، حتى وصلنى ذات يوم خطاب من إدارة الجامعة ونحن على أبواب العام الدراسى تعرض علىّ فيه المشاركة فى التدريس بقسم اللغة الانجليزية بالقطعة

(الساعة بأجر قدره ٢,٨ جنيها) ففرحنا لأن ذلك سوف يساهم فى تفريج الأزمة المالية ، وبدأت العمل فوراً ، وكنت أعلم أن المشرف هو الذى رشحنى لهذه المهمة .

كان عدد طلاب الفصل (أو tutorial) سبعة ، وكانت مهمتى هى أن أشرف على تعليمهم مناهج النقد الرومانسى الذى كنت درسته فى الماجستير ، وكان المتبع هو أن أبدأ بمقدمة عامة عن الناقد الذى سندرسه (تشارلز لام مثلاً أو وليم هازلت) ثم أكلف كلا منهم بقراءة أحد النصوص وكتابة تلخيص وعرض له ، وكانت هذه 'المقالات' (essays) تُترك لى فى خانة الخطابات الخاصة بى فى الكلية ، فأجمعها وأصححها ، وأرصد درجاتها فى دفتر خاص معى . ثم آتى بها فى المرة التالية ، بعد أسبوع أو أسبوعين ، فأناقشها معهم ، وأنبه كلا منهم إلى أخطائه . وكان من متعى التى لم أفصح عنها حتى اليوم أن أصحح الأخطاء اللغوية ، كأنما لأنتقم لنفسى من تصحيح المحررين لأخطائى فى بداية عملى بالترجمة أو لأثبت أننى أعرف الانجليزية خيراً منهم . وأنا أثبت ذلك الآن مدركًا أنه خطأ (ولا أقول نقيصة) فالطُّلاب طلاب ، وهم يخطئون ويتعلمون ، وكان الأجدر بى وقد تخطيت الثالثة والثلاثين أن أتخلى عن تلك المتع الصبيانية، أو دلائل الإحساس بالنقص ، ولكننى أحيانًا ما التمس العذر لنفسى ، فأنا غريب أتعلم لغة غريبة ، وما أطول ما عانيت من معاملة الانجليز لى باعتبارى غريبًا !

وفى أكتوبر ١٩٧٢ (لا أذكر اليوم) أعلنت إذاعة الكويت نبأ رفع سعر برميل البترول سبعين سنتًا أى من ١,٥٥ دولار إلى ٢,٢٥ دولار ، وترجمت الخبر وأرسلته إلى مكتب الأخبار لإذاعته ، وما إن أذيع حتى هاجت الدنيا وماجت ، إذ اتهمنى المشرف بأننى أخطأت سماع النبأ ، فلا يعقل أن يرتفع السعر بما يقارب النصف ! وأكدت له أن ذلك هو ما قاله المذيع، فقال أريد أن أسمع ، وكان يزعم المعرفة بالعربية ، فسمع الخبر وصاح « ألم أقل لك ؟ إنه يقول سبعة عشر ! » وسمعته من جديد - « سبعين » - وقلت له ماذا سمعت ؟ قال بالعربية « سبعين » - « وأنت لم تسمع النون الأخيرة يا مستر عنانى ، وهناك فرق بين Seventy و Seventeen ! وضحكت فغضب ، فقلت له هذا هو القاموس ، ففتحه وتأكد له خطؤه ومضى .

كان العمل بالتدريس عبئًا جديدًا ، فتوقف عملي في الرسالة تمامًا ، وبدأت في شتاء ذلك العام أشعر بالحيرة التامة ، إذ كنت كمن يسير بقوة القصور الذاتي ، وفي يناير ١٩٧٣ قالت نهاد إن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر . ولابد لنا من وقفة !

٥

كانت الشهور الأولى من عام ١٩٧٣ شهور توتر مستمر ، لم تقتصر آثاره على العلاقة بيني وبين نهاد بل امتدت لتؤثر في علاقة كل منا بالعالم الخارجي . كانت نهاد تبذل نفسها في رعاية سارة ، وكان إخلاصها نادرًا وفريدًا ، وكنت أعجز عن إدراك معنى الأمومة في الغربة وبسبب الانقطاع عن حياة الأسرة المصرية ، ولكنني أقول الآن إنني مهما عرفت عن الأمومة ، ومهما تواصلت بحياة الأسرة المصرية ، فلن أجد مثالاً لإخلاص نهاد المطلق ، وقرأت آنذاك دراسة عن الفرق بين الرجل والمرأة تقول إن المرأة كائن أسمى من الرجل لأنها تستطيع أن تعطي من ذاتها لغيرها ، فهي تعطي للجنين دمها وغذاءها ، وتعطي الوليد حبها الخالص الذي لا 'غرض' فيه ، ولا يمكن أن يكون له 'غرض' ، فهي تكسر الأنانية المركبة في نفس الرجل والتي تدفعه إلى المنافسة والغلبة والنصر (أو إلى طلب النصر فحسب) أي إنها بالفطرة 'تخرج' من ذاتها إلى 'الآخر' ، وذلك ما لا يستطيعه الرجل في الأحوال العادية .

لم أكن أستطيع أن أدرك ذلك ، لأنني كنت مشغولاً بالعمل في عدة أماكن فأنا سعيد بالتدريس في الجامعة ، وبالترجمة ، وبكتابة الرسالة ، وإن لم أكن أكتب شيئًا الآن . وكانت الشهور الأولى من عام ١٩٧٣ شهور توتر مستمر كما قلت ، وكانت تصلنا أنباء مصر فتزيدنا غمًا وهمًا ، فقالت نهاد إنها يجب أن ترحل إلى مصر حتى تهيئ لي الجو اللازم للكتابة فلقد طال بعدنا عن مصر فأمعن في الطول . كنت أحس أن العام المنصرم عام ضائع ، وأن العمل الإضافي ، على أهميته ، قد سلبني الوقت الذي كان ينبغي أن أقضيه في الدرس ، ومن ثم لم أعترض ، وتصورت أن أنتهي من الرسالة في أواخر العام .

وسافرت نهاد وسارة إلى القاهرة فى ١٥ أغسطس ١٩٧٣ ، فأحسست بالوحشة القاتلة ، ولكننى كنت قد استقلت من العمل بالترجمة والعمل بالتدريس جميعًا وقررت التفرغ للكتابة حتى أنتهى من ذلك الكابوس . وكنت قد بدأت أعانى من طنين فى الأذنين فذهبت إلى المستشفى وأجريت لى الفحوص اللازمة ، وقال لى الدكتور إن جيوبى الأنفية ملتهبة ويجب أن تعالج بالكىّ ، وقال لى سوف نرسل لك إخطارًا بالموعد . وكان يوم الكشف على جيوبى الأنفية غريبًا . فبعد أن وضع الطبيب المخدر فى أنفى (قطعة من القطن فى كل فتحة) جلست فى الصالة ، ولكننى ما إن جلست حتى غبت عن الوعى ووقعت مغشيًا علىّ ، وأفقت على يد قوية سمراء تحملنى ، إذ كانت المرضة زنجية ضخمة كأنها عملاقة ، ووجدتنى أمام الطبيب وإلى جواره شاب قصير ، أسمر الوجه وعيناه خضراوان ، حادثنى بالعربية وقال إن اسمه زكى (لا أذكر الاسم الآخر) وقال إنه من مصر ، ثم فهمت من الطبيب الكندى أننى أصبت بالإغماء لأن لدى حساسية ضد الكوكايين ، ولا يعانى من هذه الحساسية إلا واحد فى المليون، ومن ثم أتوا لى بفنجان من القهوة القوية ، وجلست نحو نصف ساعة حتى استطعت أن أقف على قدمىّ وخرجت . ولدى الباب قابلت وينى دارتر Winny Darter زميلة نهاد فى المكتبة ، فأقبلت علىّ دهشةً متسائلة ، فأخبرتها الخبر ، فقالت دعنى ألعب دور المرضة ! وصاحبتنى حتى باب المستشفى وافترقنا .

وقررت عدم إجراء العملية ، وإن كنت أعجب ممن يتعاطون الكوكايين بأنواعه – ماذا لو كانوا يعانون من الحساسية !؟ وبدأت الالتزام بالجدول الزمنى الذى وضعته لنفسى ، فلم ينقض أغسطس حتى اكتمل الفصل الرابع ، وأرسلته إلى المشرف الذى كان قد سافر إلى أمريكا للتدريس فصلاً دراسيًا كاملاً فى جامعة بنسيلفانيا Pennsylvania ، وعكفت على الفصل الخامس طوال سبتمبر ، وكنت قد كلفت نهاد باستئجار شقة والبحث عن عمل لها حتى أنتهى من الدكتوراة وأعود ، وكنت قد أعطيتها ٦٠٠ جنيه للنفقات العامة ، وكان المتفق عليه أن تقضى الصيف (ما بقى منه) مع والدى ووالدتى ، لأن حسن أخى كان قد سافر بعد تعيينه ملحقًا دبلوماسيًا ، والشقة واسعة ، ولكن نهاد لم تمكث معهما إلا أسبوعين وانتقلت فى سبتمبر إلى منزل أسرتها فى شبرا ، وكنا نتراسل بانتظام ، وفى يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣

وصلتنى برقية تقول « أحتاج للمال بصورة عاجلة المبلغ كله أنفق فى الشقة » (Need money urgently stop All money spent on flat) وعجبت من هذا الإسراف . كيف تنفق ٦٠٠ جنيه فى شقة ؟ وذهبت إلى السوق لإصلاح المكنسة الكهربائية ، وعدت فاتصلت تليفونيا بالدكتور نوح لأنه كان سيسافر إلى مصر بعد أيام وقلت له إننى أريد توصيل بعض المال إلى نهاد فرحب ، وكان يقيم فى شمال انجلترا ، وبعد المحادثة عدت إلى العمل ، وكانت الساعة قد قاربت الواحدة (بتوقيت لندن) .

ولم أكد أبدأ الكتابة حتى رن جرس التليفون ، وكان المتحدث هو المشرف فى قسم الأخبار يوم السبت ، وكان من تشيكوسلوفاكيا ويدعى سبوليار Spoliar وسألته ما الخبر ؟ فقال بلهجة مطمئنة :

" There may be nothing in it, but an arial battle has taken place over the Gulf of Suez. Two Israeli planes have been shot down"

أى « ربما لا يكون الأمر مهمًا ، ولكن معركة جوية وقعت فوق خليج السويس وأسقطت طائرتان إسرائيليتان » .

وسألته ثانيًا ماذا يريد ؟ فقال « لا شىء .. أردتك أن تعلم وحسب » . فأفهمته أننا فى رمضان ، والناس صائمون ولا داعى لتصورات من التى يحبها مكتب الأخبار ! وضحك ووضع السماعة .

ولم تمض دقائق حتى رن التليفون من جديد . وكان المتحدث هو نفسه . ولكنه كان واثق النبرات هذه المرة . فبعد أن لخص لى الأنباء قال بثقة : « إننا ننتظر البلاغ العسكرى الثالث » البلاغ العسكرى ؟ وقلت له دون تردد « أرسل السيارة من فضلك - سوف آتى حالاً » وضحك قائلاً كنت أعرف . لقد أرسلتها منذ دقائق !

ووضعت السماعة وجريت إلى الباب ، وعندما فتحته كان ديريك (چنچر) السائق فى سيارته الفوكسهول يدخّن ! وفى لمح البرق كنت فى مكتب الأخبار ، ولم أجد من العرب سوى عراقى يدعى ربيع الطائى يضع السماعات على أذنه ويحاول الاستماع إلى إذاعة القاهرة، ومن ثم جلست إلى المنضدة الممدودة ، وأحضرت السماعات ، وجلسنا فى انتظار الأخبار .

تحــــولات



عندما توالت البلاغات العسكرية ، وكنت أترجم كلا منها فور مجيئه ، أيقنت أن المسألة ليست مسألة اشتباك فوق خليج السويس (عند الزعفرانه والعين السخنة) بل هى الحرب ، وإن كان ذهنى لا يستطيع تقبل النغمة الهادئة لمذيعى صوت العرب ، ولم نكن نستطيع سماع سواها من الإذاعات ، وكان اليهود الذين يعملون معنا فى عطلة ، فهو 'يوم كيبور' أو عيد الغفران لديهم ، وعندما حل موعد الإفطار خرجت إلى الحديقة أتأمل غروب الشمس ، وقد اعتدت منذ الطفولة أن أقرأ بصوت مسموع آيات القرآن ﴿ قل اللهم مالك المُلك ، تؤتى المُلك من تشاء ، وتنزع المُلك ممن تشاء ، وتُعِزُّ من تشاء ، وتُذِلُّ من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحىَّ من الميِّت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ صدق الله العظيم .

وسمعنى أحدهم وأنا أتمتم بهذه الآيات فاقترب منى وسألنى هل تصلى ؟ وشرحت له معنى الآيات فقال لى « ما أعمق إيمانكم أيها المصريون ! أراهن أن اليهود يصلّون الآن

أيضًا » وابتسم ومضى . وعدت إلى الراديو لأستمع إلى القرآن ، ثم حلّ الليل ، وجئنا بالشاى من البوفيه وجلسنا نرشفه صامتين وإذا بأحد المحررين ، وكان اسمه كارل ليمان Karl Lehman) ، يدخل المكتب ممتقع الوجه ، ويبدو أنه كان يتحين الفرصة للحديث معى فى «الموضوع»، فبادأته أنا بالحديث مُرحّبًا ، فتقدم بخطىً متثاقلة وقال « هذه الدبابات الأربعمائة.. كيف تعبر قناة السويس ؟ » وقلت له « ربما على كوبرى عائم pontoon bridge» لكنه قال « محال ! لا يمكن للكوبرى العائم أن يتحمل ثقل الدبابة ! » ولم أعلق . فعاد يقول «هذه دعاية ولا شك ! ولكنها ستكون وبالاً عليكم ! إذا حدث ونقلتم الدبابات فسوف تخسرونها!» وابتسمت بسمة مصطنعة وأنا ألتزم الصمت ، إذ تأكد لى ما شاع عن وجود ثلاثة من اليهود فى مكتب الأخبار ، ومدى نفوذهم على ضآلة عددهم ، وخشيت أن يتدخل فى العمل فلم أجادله ، وتظاهرت بالانشغال بما أسمعه فى راديو القاهرة ، وحوّلت وجهى عنه فانصرف .

وفى نحو الحادية عشرة وصل روجر كولمان Roger Coleman وهو مشرف النوبة الليلية، وكان من أقرب العاملين إلى قلبى ، فهو ضحوك ولا يسمح لأى شيء بأن ينزع البسمة عن شفتيه ، وكان قصيرًا أصلع يلبس نظارة طبية سميكة ، وكانت زوجته كاثوليكية لا تؤمن بتنظيم الأسرة ، فأنجبا ثمانية أطفال ، واضطر روجر إلى شراء سيارة ضخمة من نوع لاندروڤر حتى يستطيع نقل الأسرة كلها فيها إذا اقتضى الأمر ، ولم يكن يشكو من تكاليف الحياة وأعباء الأسرة ، فالدولة تتكفل بالعلاج والتعليم مجانًا ، وكان يقول لى إنه استحدث مذهب 'الملبس التعاونى' (cooperative clothing) ومعناه أن يلبس الأطفال ملابس بعضهم البعض ، بحيث لا تَثْبُت المُلكية المطلقة لأى قطعة من الملابس لطفل دون سواه ! والواقع أنه كان يعطى الصغير ملابس الكبير ، ويحرص على توحيد الزى حتى لا يغار أحد من صاحبه ، وكثيرًا ما كنت أراه يسير وقد أمسك بأيدى ثلاثة أو أربعة من الصغار على الأقل!

وعندما انتهى روجر من قراءة أنباء اليوم جاءنى ضاحكًا وقال « أراهن أن ساليڤان وهايمان (Sullivan & Hayman) سوف يحضران الليلة أيضًا » وكان قد لمح ليمان خارجًا، وأضاف فى نبرات شبه جادة إنه يظن أن « القلق يعتصرهم على أبناء دينهم فى سيناء ! » ورسمت نفس البسمة المصطنعة على شفتى ولم أعقب . كان قلبى يموج بمشاعر يصعب

وصفها ، إذ أصبحت وحدى ممثلاً لانفجار غضب العرب بعد أن صبروا ست سنوات، وكنت أعلم أن غضب 'الأعداء' سوف ينصب على رأسى ، لكن فرحتى بعبور القناة كان غامراً ، ومن ثم تطوعت للبقاء طول الليل أتتبع الأخبار ، وفرح روجر ، وقال « اعتبر نفسك فى مصر ، وأنك تسهر مع الأسرة فى رمضان ! » .

واستمعت إلى سهرة الراديو الرمضانية ثم إلى قرآن الفجر وأذان الفجر وصلاة الفجر ، وتصورت أن الجميع سوف يعودون الآن إلى المنزل فى مصر ، ولكننى لم أرفع السماعة عن أذنى ، وفى الخامسة والنصف (السابعة والنصف بتوقيت القاهرة) صدر البلاغ العسكرى الذى يلخص أحداث اليوم السابق ، وحالما سمعت التنويه عنه فى موجز الأنباء أحضرت الآلة الكاتبة ، وبدأت العمل ، وربما كان ذلك أسرع نص ترجمته فى حياتى ! وأعددت الخبر وأرسلته إلى المذيع فى الأستوديو فى لندن مباشرة (فى مبنى الإذاعة الرئيسى Broadcast-ing House) وطلبت من المهندس أن يدير مؤشر جهازه للاستماع إلى الإذاعة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC World Service) فلا شك أنها ستكون أول من يذيع النبأ ، وفعلاً أذيع النبأ كاملاً كما كتبته بالحرف فى نشرة السادسة صباحًا ، وإن كان المذيع قد تلعثم فى العبارة الأولى ، فالخبر يقول « يقول راديو القاهرة ... » والانجليزية تقبل الإضافة بعكس موقع الكلمتين أو باستخدام حرف الإضافة of ، وهو الذى يفضله الكلاسيكيون المتحذلقون والمتشبهون بهم، وكان النص الذى كتبته يقول " According to Cairo Radio ... " ولم يعجب المذيع ذلك فأراد أن يقول the radio of Cairo فقال the Cairo of radio مما جر عليه اللوم ، ولم يجد ما يعتذر به سوى أنه كان لم يفق تمامًا من نومه !

وعندما طلع النهار أتى الجميع وعدت إلى المنزل لأنال قسطًا من الراحة ، لكننى كنت أشعر أن راديو القاهرة (صوت العرب) قد أصبح أمانة فى عنقى ، فنمت ساعاتى الأربع ، ثم انطلقت وحدى إلى مكتب الأخبار ، ووضعت السماعات على رأسى ، والتصقت براديو القاهرة ، وأمامى الآلة الكاتبة جاهزة . وتوالت البلاغات العسكرية ثم التعليقات والمقابلات الصحفية ، وأنا ثابت فى مكانى أسمع وأترجم ، والعالم يسمع ويدهش ، حتى كان اليوم الرابع للحرب – يوم النصر الحاسم فى سيناء وأسر القائد الإسرائيلى 'عساف ياجورى' .

وتحول العالم كله ! كانت الصحف تلتزم الحذر فى نشر تفاصيل الحرب حتى تلك اللحظة، وكان المعلقون السياسيون يقولون صراحة إنهم لا يصدقون ما يحدث ، ولكن تدمير اللواء المدرع الإسرائيلى فى سيناء محا شكوك المتشككين ، وظهر أحد المحلّلين العسكريين فى نشرة السادسة مساءً فى التليفزيون ليتحدث عن الجسر الجوى الذى أقامته أمريكا اعتباراً من مساء يوم ٦ أكتوبر ، وقال إن شحنة من الدبابات الأمريكية نزلت عند العريش وقال أحد شهود العيان إنها 'صف رائع من الدروع' - حرفيًا

an impressive array of armour

ثم عُرض فيلم تليفزيونى عن الحرب من داخل سيناء ، صوره المصور من وراء الخطوط الإسرائيلية ، ولن أنسى ما حييت صورة الطائرتين المصريتين اللتين كانتا تطيران على الارتفاع الصفرى flying at zero altitude وهو أدنى ارتفاع يمكن أن تطير عليه الطائرة دون أن تصطدم بالأرض ، وقال المعلق إن سيناء مفتوحة أمام الطيران المصرى ، وإن المصريين فدائيون يجازفون بأرواحهم حين يطيرون على هذا الارتفاع، فأقل خطأ يجعل الطائرة ترتطم بالأرض، ولكن ذلك الارتفاع يجعلهم بمأمن من الإصابة بأى أسلحة أرضية . ودارت الطائرتان أمام عيوننا - رغم عدم وضوح الصورة - ثم ارتفعتا فجأة فى الهواء كأنما بفعل السحر واختفيتا ثم لمحنا عند الأفق آثار الانفجار الذى أحدثته القنابل التى ألقيتاها .

وصدرت صحف الحادى عشر من أكتوبر وهى تتحدث عن الحق العربى ، وعن القضية الفلسطينية ، وعن تحرير الأراضى العربية فى سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية ، بل والأغرب من ذلك كله أن يتحدث بعض المحلّلين السياسيين عن ضرورة التدخل لإنقاذ إسرائيل من الدمار ، فلن يتوقف العرب فى رأيه عند استعادة حقوقهم ، وعلى إسرائيل أن تعقد فوراً معاهدة سلام تضمن لها بقاءها ! كنت أقرأ هذا الكلام غير مصدق ! كان التحوّل فى ذاته دليلاً على ما كنت أعرفه خير المعرفة من أن العالم لا يعرف إلا لغة القوة ، ولكن مظاهر التحوّل كانت غير متوقعة ، فالذين كانوا يؤيدون إسرائيل لم يعدلوا عن تأييدها لكنهم أصبحوا يقولون إن القوة لم تعد الوسيلة المؤكدة لتأمين وجودها ، وباتوا يدعون إلى التعقل والسلم ، والذين كانوا يناصرون الحق العربى لم يتحولوا عن مناصرته لكنهم أصبحوا يقولون إن القوة هى الوسيلة الوحيدة لاستعادته ، وباتوا يؤازرون الحرب ! أما الذين كانوا يزعمون الحياد

والموضوعية فقد أفردوا الصفحات للحديث عن تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى ، وكانوا ينتهون فى كل مقال تقريبًا إلى ضرورة نهوض الغرب بدور فعّال فى حل المشكلة التى تسبب فيها أصلاً بإنشاء دولة إسرائيل !

وحتى يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر لم أكن أغادر مكتب الأخبار إلا للنوم ساعات معدودة ، وفى صباح ذلك اليوم ألقى السادات خطابه المشهور الذى وردت فيه عبارته الذائعة 'عشرة أيام مجيدة' ، وقد ترجمت الخطاب مباشرة على الآلة الكاتبة ، وأذكر أننى أخطأت عندما كتبت كلمة sign وأنا أعنى signal (عندما أعطى 'الإشارة') فجاءنى أحد الزملاء ليستوضح فنهرته كأنما أخطأ حين لم يحدس الصواب بنفسه ، ولكننى كنت مرهقًا من طول السهر ، وكان الانجليز من حولى سعداء بى ، وعندما انتهيت وذهبت إلى المنزل ، سمعت فى الراديو ملخصًا لخطاب جولدا مائير الذى أعلنت فيه عبور بعض القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية للقناة من ثغرة فى الجبهة المصرية ، وفزعت طبعًا ، ولكن القضية كانت قد تحركت بما يكفى 'لعودة الروح' إلى مصر ، وعودة الثقة إلى نفوس التائهين والحائرين - والكثير من اليائسين !

وبعد وقف إطلاق النار ذهبت إلى لندن لتجديد جواز السفر ، وقابلت الأستاذ فوزى عبد الظاهر المستشار الثقافى ، وسألنى عن موعد انتهائى المرتقب من الدكتوراه ، فقلت له إننى أوشكت على الانتهاء وإننى أنتظر عودة الأستاذ المشرف من أمريكا . وتجولت يومها فى لندن كأنما لأستعيد ذكريات الصبا ، إذ أحسست بعد الحرب أننى كبرت فى السن ، وكأن الساعات التى قضيتها فى الترجمة على مدى الأسبوعين المنصرمين جعلتنى شخصًا آخر . وبدأت أدرك التحولات التى تصيب المصرى حين يصبح قلب مصر نفسها ، وعندما يتوحد الفكر والإحساس فيه ، وكان أول خاطر لى أن أدعو نهاد وسارة إلى العودة !



زارنى الدكتور نوح يوم ٢٢ أكتوبر فسلمته النقود ليحملها إلى نهاد فى مصر ، ومعها خطاب ألح فيه عليهما أن يعودا ، وقضيت الأسبوع الأخير من أكتوبر فى إعادة ترتيب بطاقات

الفصل الأخير من الرسالة ، وأنا أتابع عن كثب أخبار مصر ، وكل ما يجرى حولنا ، كأنما أصبح الاهتمام بأحداث العالم 'أسلوب حياة' .

وتلقيت دعوةً ذات يوم إلى حفل فى الجامعة، باعتبارى من الأساتذة المنتدبين من الخارج، بمناسبة تدشين جناح جديد فى المكتبة ، وكان ضيف الشرف هو رايموند وليامز الذى أهدى الجناح مجموعة من كتبه الخاصة ، فذهبت أولاً للحديث مع ذلك الأستاذ وثانيًا باعتبارى المصرى (بل العربى) الوحيد فى الجامعة - وكان علىّ أن أضع قناعًا هو قناع الرزانة والتعقل ، وأن أنفض عن نفسى آثار الاهتمام بالحياة العامة والاشتغال بالترجمة والكتابة ، وإن كان الانجليز لا يهتمون بذلك القناع - وعندما زال التوتر وهدأت الأعصاب ، انطلق المدعوون فى الأحاديث الجانبية التى تسبق الحفلة الرسمية أو تمهد لها وكانت تنذر بتحول آخر فى حياتى .

تعرفت أولاً بأستاذ أستاذى وهو البروفسور باراز Burroughs من جامعة أوكسفورد ، وبزوجته ديانا إلوين جونز Diana Ellwyn - Jones كاتبة قصص الأطفال المشهورة ، وتطرق الحديث بيننا إلى احتراف الكتابة وضياع حقوق الكُتّاب ، وحدثتهم عن كتاباتى للمسرح بالعربية ، وكيف توقفت عن الكتابة ثمانى سنوات بسبب الدكتوراه اللعينة ، وبأننى أعد الأيام حتى أعود إلى القاهرة لأمارس نشاطى الأدبى ، وقالت ديانا بلهجة جادة : ولماذا لا تكتب بالانجليزية ؟ وضحكتُ وأنكرتُ قدرتى على ذلك ، ولكن باراز أردف قائلاً « إن كريس (يعنى الأستاذ المشرف على رسالتى) يمتدح أسلوبك ويفيض فى ذكر موهبتك » وكدت أطير فرحًا - بطبيعة الحال - ولكننى وضعت قناع التواضع الانجليزى وقلت فى نبرات خفيضة « هذا كرم منه لا أستحقه » فأسرعت ديانا تقول « فلنحكم نحن على ذلك .. أرنا بعض كتاباتك » ولم تتح لى فرصة الإجابة لأن رايموند ويليامز دخل القاعة فالتفت الجميع وساد الصمت . وبدأت مراسم الاحتفال .

وبعد ثلاثة أيام وجدت فى درج البريد الخاص بى مخطوطًا لرواية من تأليف ديانا إلوين جونز (وجميع المخطوطات مكتوبة على الآلة الكاتبة بطبيعة الحال) فحملته إلى المنزل ، كان مُرسلاً من أوكسفورد وتاريخ الإرسال صباح اليوم نفسه ! وعندما فضضت المظروف وجدت فى داخله رسالة تقول فيها إنها تريد أن تعرف رأيى فى النص ، وكان عنوان الرواية Craven

Images أى صور بشعة ، وعكفت عليها حتى انتهيت من قراءتها فى نحو الثالثة صباحًا فقد كانت غير عادية فى كل شىء . وعلى الفور كتبت تحليلاً لها فى نحو ثلاث صفحات وأرسلته فى ظهيرة اليوم التالى (لم أنهض إلا فى الضحى) إلى الكاتبة .

كان ذلك يوم الثلاثاء ، وكان على أن أعمل فى الفصل الأخير من الرسالة بحيث أنتهى من تحديد تعريف 'الأسلوب الرفيع الجديد' قبل عطلة نهاية الأسبوع ، وقد يعجب القارئ من هذه التسمية ، ولكننى سوف أوجز ما أعنى فيما يلى : كنت قد اهتديت فى بحثى فى تطور أساليب الشعر فى القرن التاسع عشر إلى أن الرومانسية أتت معها بأسلوب جديد يطمح فى محاكاة الأساليب الكلاسيكية عن طريق الإسراف فى استعمال المجردات - سواء كانت من المعانى المجردة (الأسماء) أو غيرها . وكان المثل الأعلى القديم للأسلوب الرفيع هو أسلوب ملتون فى القرن السابع عشر ، والذى كان يعتمد على بعض العناصر المعروفة مثل 'جلال' الموضوع أى أهميته التى ترجع إلى طابعه العام أى العالمى واللازمنى ، ومثل 'شرف' الألفاظ المنتقاة (كما يقول النقاد العرب القدامى) وتحاشى الخصوصية ودقائق التجربة الشعرية ، وتجنب التفاصيل الواقعية أو المعتادة وما إلى ذلك . ولكن الرومانسيين كانوا بصفة عامة يجعلون من الفرد ومشاعره محورًا للتأملات الشعرية مما يتعذر معه 'الجلال' فى الموضوع ، وكان وردزورث ينكر شرف ألفاظ بعينها ويدعو إلى استخدام الألفاظ العادية فى الشعر ، كما كان كل منهم يؤكد خصوصية تجربته ، ويتكئ على التفاصيل ، وكان بعضها مغرقًا فى الواقعية . وقد اهتديت ، كما قلت ، إلى أن وردزورث عندما تخطى المرحلة الثورية الأولى بدأ يطمح فى محاكاة الكلاسيكيين على الرغم من جميع تلك السمات الرومانسية وذلك عن طريق زيادة استخدام المجردات ، ولذلك فقد أطلقت على ذلك الأسلوب اسم 'الأسلوب الرفيع التجريدى' (The Grand Abstract) وحتى يدرك القارئ مرماى سأسوق له مثالاً عربيًا من البارودى ، إذ قال فى إحدى قصائده المبكرة التى كان 'يروض فيها الشعر' (على حد تعبير على الجارم) :

ومن تكن العلياء همة نفسه   فكل الذى يلقاه فيها محبب

فالعلياء صفة مجردة ، أو اسم لشىء غير محدد ، فما هو تعريف 'العُلا' أو العلاء أو العلياء ؟ هل هو المنصب الرفيع أو الشهرة أو المال أو المجد أو كلها معًا ؟ وكذلك الهمة . ما

هى الهمة ؟ هل هى الطموح ؟ هل هى الدافع الباطن على 'العلياء'؟ وقس على ذلك 'كل الذى يلقاه' – الصعاب والعراقيل والمعاناة (الفقر / المرض / الاضطهاد / السجن ؟) المعانى كما ترى مجردة ويمكن إيراد أمثلة بالغة التنوع لكل منها ، وهذا هو المثل الأعلى الكلاسيكى الذى يكفل للبيت أن يجرى مجرى الأمثال والحكم .

أما الرومانسيون فقد بدأوا يميلون إلى محاكاة هذا الأسلوب بعد استقرار الاتجاه الجديد، فاتجه وردزورث فى مراجعته لقصيدة **المقدمة** ، وهى قصيدة تتميز بخصوصية التجربة – تعريفًا – لأنها سيرة ذاتية ، إلى الإسراف فى المجردات بحيث اختلفت الطبعة المعدلة التى نشرت عام ١٨٥٠ (بعد وفاة الشاعر) عن النص الأصلى الذى كتبه قبل خمس وأربعين سنة . وكانت مقارنة النص الأول بالنص المعدل من حيث الصور الشعرية هى موضوع دراستى للماجستير ، أما الآن فأنا أبحث الأسلوب وأستخدم الاختلافات الأسلوبية قرائن لإثبات تطور الأساليب الشعرية من القرن الثامن عشر إلى بداية التاسع عشر ثم فى غضون القرن التاسع عشر نفسه – من مرحلة الثورة الرومانسية إلى مرحلة الطموحات الكلاسيكية .

كان علىّ أن أنتهى من هذا التعريف ، كما قلت ، قبل عطلة نهاية الأسبوع ، لكننى وضعت البطاقات أمامى وجعلت أتطلع إليها وقد استولى على تفكيرى خاطر أوحد : لماذا لا أكتب بالانجليزية – كتابة إبداعية ؟ أنا قطعًا لن أستطيع أن أجارى سلاسة أسلوب ديانا ، خصوصًا إسهابها فى الوصف ودقة التفاصيل ، فهى تصف أشياء تعرفها خيرًا منى ، ولكننى قد أستطيع أن أتحدث عما أعرفه وربما نجحت . وبدلاً من كتابة الفصل الأخير من الرسالة (« عشان نخلص ») بدأت أكتب قصة قصيرة كانت حلقاتها قد اكتملت فى ذهنى منذ فترة ، وكانت – مثل كل ما كتبته – مستمدة من الواقع الحى من حولى ، وكانت طويلة بعض الشىء ، ولم أنته منها إلا يوم الجمعة ، فقررت أن أعرضها على ديانا وأسمع رأيها ، فأعددت صورة زيروكس وأرسلتها بالبريد ، وجاءنى الرد فى يوم الاثنين .

كان الرد موجزًا وقد أرفقت ديانا به قائمة بأسماء وعناوين 'وكلاء' agents وطلبت منى إرسال نسخة إلى أحدهم ، وقالت إنها تفضل أن أتعامل مع وكيلها الذى تتعامل معه منذ سنوات فهو أكثرهم خبرة ! وتساءلت ما الوكيل وما التعامل مع الوكلاء ؟ كان الرد يقول لى باختصار إن موهبتى ناضجة ولابد من الاستمرار على أساس الاحتراف ، ويحذرنى من أن

أرسل قصتى إلى أى مجلة ، بل أن أتعامل فقط مع الوكيل ! وكان لابد أن أسأل وأتقصى فعلمت أن الوكيل هو رجل أعمال يتمتع بموهبة كبيرة فى الإدارة ، ويعمل فى مكتبه محامون ونقاد ومحررون ومراجعون إلخ والمكتب يتولى الحكم على 'العمل' (القصة أو المسرحية أو القصيدة أو ديوان الشعر إلخ) فإذا رأى أنه صالح تولى إبرام عقد مع الكاتب وعقد آخر مع جهة النشر ، (أو مع عدة جهات نشر إذا كان الكاتب لامعًا وفى هذه الحالة يسمى الكاتب syndicated) بحيث يقتصر تعامل الكاتب مع الوكيل ، ويقتصر تعامل الناشر معه أيضًا ، وهناك حالات لم يقابل فيها الكاتب الجهة التى تنشر أعماله مطلقًا ، أو لم يقابل مندوب تلك الجهة إلا فى مناسبات خاصة ! وقلت فى نفسى – ولم لا ؟ وفعلت ما نصحت ديانا به وبدأت الانتظار الذى لم يطل إذ جاءنى برجوع البريد رد يقول « إننا تسلمنا القصة وهى حاليًا قيد الفحص ، وسوف تجدون طيه بعض المعلومات عن شركتنا » .

كان المكتب أى مقر 'الشركة' فى أوكسفورد وقرأت التفاصيل بتمعن فوجدت ما يسر القلب حقا ! وحملت الخطاب إلى الكلية وطلبت مساعدة سكرتيرة رئيس القسم فى فهم الموضوع فأوضحت أن الوكيل هو الوكيل القانونى الذى يتولى الحكم أولاً على العمل ، ثم يعهد إلى أحد المحررين 'بإعداده' للنشر (نعود للحديث عن ذلك فيما بعد) ، ثم يتصل بالمجلات التى تنشر ذلك اللون من الأعمال لنشره ، ونادرًا ما ترفض المجلة عملاً أوصى به الوكيل ، بل العجيب حقًا هو أن قرار النشر أصلاً فى يد الوكيل لا فى يد رئيس التحرير ، وكان هذا جديدًا علىّ ومثيرًا إلى حد بعيد ، لكننى علمت فيما بعد أن ما أسميته بالوكيل هو مؤسسة كاملة ، وأن النقاد الذين يحددون صلاحية العمل يتمتعون بمؤهلات فنية وعلمية عالية المستوى ، وتقاريرهم لا تقبل النقض ، فهم لا يمثلون القيم الأكاديمية التى نَدْرُسها ونُدرِّسها فى الجامعة فقط بل يضمون إليها ما يريده القراء ، وما يمكن أن ينجح لو تغير الجو أو الذوق الأدبى، كما أن بعضهم يتميز بنظرة مستقبلية قادرة على استشفاف ذلك التغير ومن ثم على الدفع بالإنتاج الجديد إلى السوق ! والأعجب مما ذكرت أن الكاتب لا يملك اختيار الجهة التى ستنشر عمله ، وإن كان له حق الاعتراض ، وقد يتمتع الكاتب بعد رسوخ قدميه بحق الاختيار ولكن ذلك لابد أن يكون أيضًا عن طريق الوكيل !

وبعد دراسة مستفيضة اتضح لى أن أساس ذلك هو التجارة ، فقد آمن الانجليز قبل غيرهم أن كل ما يعمله الإنسان لابد أن يعود عليه بفائدة ما ، وأقرب صور الفائدة إلى الذهن

الانجليزى العملى هو الربح المادى ، بل إن الفكر التجارى يعتبر أن الشهرة أو ذيوع الصيت عامل من عوامل تحديد قيمة الإنتاج المادية ، ولذلك فما نعتبره اليوم جديداً مثل حقوق الملكية الفكرية أو تجارة الخدمات وما إليها له جذوره فى الفكر التجارى الانجليزى . لا عمل دون أجر ! هذه هى القاعدة الذهبية عندهم ! هل يمكن أن أقول أيضاً : لا عمل دون ربح ؟ لقد شاعت هذه الأيام تعبيرات جديدة مثل 'المؤسسات التى لا ترمى إلى الربح' (non - profit organizations) وأصبحنا نصدق أن هناك بين الانجليز من لا يرمى إلى الربح ، ولكن الربح المقصود هنا هو الربح المادى فى صورته المعتادة وهى النقود ! أما الربح الحقيقى الذى تجنيه هذه المؤسسات فهو يأتى من طريق بالغ الالتواء ، فإذا كانت المؤسسة خيرية (charity) أى تدعو إلى الإحسان وإغاثة الملهوف (مثل منظمة أوكسفام Oxfam) فإنها تساهم عن طريق جمع تبرعات المحسنين وإنفاقها فى وجوه الخير ، فى رسم صورة المجتمع الراعى الطيب ، والدولة المؤمنة بالتكافل ، مما يضفى الطابع الإنسانى السامى على وجه انجلترا ، ويهيئ لها المزيد من المكاسب المادية فى صورتها المعتادة وهى النقود !

ولا ينفى ذلك بطبيعة الحال أن 'أهل الخير' يدفعون التبرعات عن 'إيمان' ويقين، وأن نسبة كبيرة من 'المؤمنين' يبتغون وجه الله فيما ينفقون ، ولكن الطابع التجارى المتأصل فى الحياة الانجليزية يجعل الانجليزى العادى 'يحترم' المال منذ نعومة أظفاره لأنه لا يرى أن النقود وسيط للمبادلة أو صكوك لحق الامتلاك بل يرى فيها رأسماله ، وهى فكرة قد تحتاج إلى إيضاح .

من المبادئ الأساسية التى يُلقنها الأهل للطفل مبدأ القسمة الثلاثية ، (أو - The three part division) ومعناه تقسيم الدخل إلى ثلاثة أجزاء ، جزء ينفق على المسكن ، وجزء ينفق على المعيشة (المأكل والملبس والمواصلات إلخ) وجزء يُدَّخر ! ومنذ السنوات الأولى فى حياة الطفل يعلّمه الأهل أن يدخر قسمًا من مصروفه فى 'الحصالة' ، ثم أن يتخذ لنفسه دفتر توفير فى مكتب البريد أولاً ثم فى البنك بعد ذلك (أو فى جمعيات الإسكان -building socie ties) وهكذا يميل الطفل إلى الحرص على ماله ، خصوصًا وأن أهله يعدّونه من البداية للاستقلال ، فحالما يبلغ السادسة عشرة يصبح عليه أن يعتمد على نفسه إما بالعمل أو المساهمة فى نفقات المنزل أو الاستقلال والحياة بعيداً عن الأسرة ، أما إذا كان مجتهداً

واجتاز امتحان دخول الجامعة (Sixth form) فهو يحصل على منحة دراسية تتضمن مصاريف التعليم (tuition fees) وتكاليف السكنى والإقامة فى إحدى بيوت الطلاب (resi-dene halls) إلى جانب راتب شخصى stipend (أو مصروف pocket money) مما يؤهل الطلاب للحياة المستقلة بعيداً عن منزل الأسرة تمهيداً للاستقلال نهائيًا بعد التخرج والعمل والزواج .

ومعنى هذه التنشئة أن الصغير يرى فى المال سبيله إلى الاستقلال والحرية ، وإذا كان طموحًا فهو يحلم بأن يعمل بالاستثمار والتجارة مما يجعل للمال قيمة لا يراها من لا يسير فى هذا الطريق (كأصحاب المهن من أطباء ومهندسين إلخ) وسواء تحقق حلمه أم لا فهو ينشأ على 'احترام' الادخار ، مما يغرس فى نفسه الحرص ، وقد فسر ذلك أحدهم بأن الجو مسئول عن ذلك ! ولطرافة هذه النظرة أوردها باختصار : أحرص الناس فى الجزر البريطانية هم من يعيشون فى أبرد الأجواء - أى اسكتلنده ! فالبرد يجعل المرء منغلقًا على نفسه (inward - looking) ينشد الدفء ولا شىء يجلب الدفء مثل النقود ! ولكن النظرة - كما ترى - فاسدة ، ففى أبرد أماكن الدنيا عشت مع أكرم البشر فى شمال أمريكا الشمالية !

أما الدولة فهى تشجع المحسنين على الإحسان بخصم تبرعاتهم من وعاء الضريبة ، فما أيسر أن أتبرع للخير إذا كانت النقود سوف تضيع من يدى على أى حال ! بل إن أحد الخبثاء نشر فى مجلة Punch الأسبوعية مقالاً يقول فيه إن التبرعات المخصومة من الوعاء الضريبى تساعد رجال الضرائب على اكتشاف الحجم الحقيقى لمكاسب المتبرع ! وضرب الكاتب مثالاً على ذلك بتبرع اللورد سيف صاحب سلسلة محلات ماركس أند سبنسر (Marks & Spencer) بمبلغ ٢٤ مليون جنيه 'للفقراء' فى إسرائيل ، وهو الحد الأقصى المسموح بتحويله من انجلترا إلى خارجها ، فقال إن أرباحه المعلنة كانت ٢١٩ مليونًا ، وكان صافى ربحه بعد خصم الضرائب ١٩ مليونًا ، أى أن ما تبرع به قد خُصم من مقدار الضريبة، وكان المفروض أن تكون ٢٠٠ مليون فنقصت بذلك المقدار فكأن الحكومة هى التى تبرعت لفقراء إسرائيل ! وانتهى الكاتب إلى ما يلى :

« ولما كان الحد الأقصى المسموح بالتبرع به من الأرباح هو ١٠ ٪ ، وكان مقدار التبرع هو ٢٤ مليون ، فإن معنى ذلك أن الأرباح المعلنة (٢١٩) تقل بمقدار خمسة ملايين عن الأرباح الحقيقية . فأين ذهبت هذه الملايين ؟ » .

ولم يعقب أحد على ذلك المقال أو يعترض عليه ، ولكننا قرأناه فى الكلية ، وناقشناه واستخلصنا منه ما استخلصنا !

وليس معنى ذلك ، كما سبق أن ذكرت ، غياب القيم الإنسانية (ومنها الثقافية والفنية) أو تضاؤلها ، فهى ثابتة وعريقة ، ولكنها دائمًا ما توضع فى أطر تجارية ، ولذلك فإن أى إعلان أو دعوة لابد أن تتضمن التكاليف وتحددها بصورة دقيقة ، وأنت عندما تدخل المقهى تدفع أولاً ثمن الشاى مثلاً قبل أن تشربه ، فأنت تشترى طعامك قبل أن تجلس لتناوله ، وعندما يدعو الانجليزى صديقه لتناول مشروب فإنه يفعل ذلك متوقعًا رد الدعوة ، والشائع أن يشترى كل فرد ما سيشربه ثم يجالس صديقه مع ما اشتراه من مشروب .

كان نظام الوكلاء وما يزال أساس تعامل الكتاب والفنانين مع أجهزة النشر والأجهزة الفنية ، وقد فكرت طويلاً قبل أن أندفع فى ذلك الطريق ، خصوصًا بعد أن وصلنى فى منتصف نوفمبر رد إيجابى من الوكيل ، وكان يتضمن عرضًا بتوقيع عقد لمدة ثلاث سنوات ! وقرأت فى ذيل الخطاب أن القصة ، وكان عنوانها 'الكمال' (Perfection) « قيد التحرير حاليًا » فسألت توم هيتون الذى سبق أن خاض تجربة نشر كتاب له فقال إن التحرير معناه إعداد النص للنشر ولو اقتضى ذلك بعض التعديلات ، وهى تعديلات قد لا تقتصر على اللغة ، وهى مما يقبل به الجميع ، حتى مشاهير الكتاب وأعلامهم !



كان التحول الثالث هو ارتفاع سعر البترول حتى وصل إلى خمسة دولارات للبرميل فى نوفمبر بسبب إعلان الدول العربية استخدام سلاح البترول للضغط على إسرائيل بصورة غير مباشرة ، فالضغط على الغرب يؤدى إلى الضغط على إسرائيل فكان قرار تخفيض إنتاج البترول العربى بنسبة ١٠ ٪ كل شهر حتى تستجيب إسرائيل ! وسرعان ما تكهرب الجو ! فبعد ارتفاع سعر البترول عاد الحديث عن الفحم مصدرًا بديلاً للطاقة ، وقام عمال مناجم الفحم بقيادة هيو سكارجيل Hugh Scargill بمطالبة الحكومة برفع أجورهم ، وهدد العمال

بالإضراب ، وظهر إدوارد (تيد) هيث Heath رئيس الوزراء على التليفزيون وهو يهدد ويتوعد، وقال إن حكومة المحافظين لن تسمح أبداً للعمال بالضغط على الحكومة ، وكانت ألفاظه الغاضبة وصوته الغليظ من العوامل التى أثارت الرأى العام ضده ، وكان ذلك درساً طريفاً ، فالانجليز يحبون الالتفاف والتفاوض والتلاعب ويكرهون المواجهة والتصادم ! وهذه أيضاً من صفات المجتمع التجارى ! وعلى أى حال ، ما إن حل ديسمبر حتى كان سعر البترول قد تضاعف من جديد ، وبدأ العالم يحسد العرب على الثروة التى هبطت عليهم من السماء !

ولا أذكر المناسبة التى دعتنى إلى هبوط لندن ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر ، ولكننى أذكر أن البرد كان شديداً والشمس ساطعة حين انتهى بى المسير إلى مطعم الإذاعة (فى Bush House) وعندما دخلت وجدت ما يشبه الاجتماع حول مائدة ، وفيها وجوه أعرفها خير المعرفة ، واطمأن قلبى حين رأيت عبد اللطيف الجمال – مصادفة غريبة ! – 'فاشتريت' الغداء وذهبت إلى 'الشلة' .



فى المنزل رقم ٢١ شارع داربى إلى جانب المصنوعات الخشبية (الهواية الجديدة)

ومن الحوار المتناثر فهمت القصة ، قبل أن يرويها عبد اللطيف لى بالتفصيل . ماذا حدث؟ بدأت القصة منذ سنوات عديدة عندما شارك المصرى - صديقنا إدجار فرج (الصعيدى الشهم) انجليزيا يدعى (يدعى ما يدعى ، ماذا يعنى الاسم - على حد قول صلاح عبد الصبور) فى إنشاء مكتب للخدمات الإعلامية (الصحفية) والترجمة . لم يكن مسموحًا لإدجار فرج آنذاك (لأنه أجبنى) بممارسة الأعمال الحرة ، أما ابن البلد فمن حقه بالطبع أن يمارس أى عمل يريد ، وهكذا أنشئ المكتب الذى سبق لى أن أشرت إليه ، وسبق للكثيرين من الدارسين أن عملوا فيه بالترجمة (بالقطعة) وكان كالواحة فى قلب الصحراء حين تخلو الأيدى من النقود ، وكان جميع الجالسين حول تلك المائدة ممن رووا عطشهم بنقود إدجار فرج .

كان المكتب مسجلاً باسم الانجليزى فقط (طبعًا) ولكن العمل كله كان فى يدى إدجار ، وقد اشتهر بكفاءته وإخلاصه النادر ، وكان ما يهمنا نحن هو كرمه وطيبة قلبه ، فكان أخًا كبيرًا لجميع الدارسين الملقين ، وأذكر أننى دخلت المكتب أول مرة مع عبد اللطيف الجمال ، وكان المطلوب ترجمة نشرة خاصة بتشغيل سيارة جديدة من الانجليزية إلى العربية ، وتناولها عبد اللطيف ونظر فيها ثم قال : إيه القرف ده ؟ يعنى إيه road - fouling ؟ فضحك إدجار وقال له : بلاش ! خد انت دى (وكانت مقالاً قصيرًا عن الشعر الانجليزى الحديث) فقبل وخرجنا ، وعندما عدت إليه فى اليوم التالى بالترجمة وضعها على المكتب وظل يتأملها حتى جاءت السكرتيرة ومعها الشيك ! كان قد أمر بإصدار الشيك حتى قبل أن يقرأ ترجمتى بل قبل أن يتسلمها .

وكنا نلتقى أحيانًا فى نادى الإذاعة أيام عملى فى كوينز هاوس ونناقش السياسة أو الشئون العامة ، وكان كثيرًا ما يسترسل فى قصصه عن طفولته وقد طال به البعد عن مصر ، فكانت تمثل لى واحة أخرى فى تلك الصحراء ، وربما كنت أحبه بصفة خاصة لأنه كان يذكرنى بأحد أقاربى وهو الرشيدى الذى كانت هوايته صيد الأفاعى !

أما شريكه فى المكتب فكل معلوماتى عنه مستقاة من المرحوم الدكتور مجدى وهبة الذى ذكر لى أنه كان يعمل فى المخابرات البريطانية فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأنه تمكن أثناء فترة إقامته من تعلم اللغة المصرية الدارجة ، وأصبح يجيدها مثل أهلها ، فهذا ما

أكده لى عبد المنعم سليم ، الكاتب المشهور ، فى لندن ، ولم يُقَدَّرْ لى أن ألتقى به حتى الآن ، وقد حدثنى عنه الدكتور عز الدين إسماعيل ، وقالت لى الدكتورة لبنى عبد التواب يوسف إنه كان فى ضيافة والدها ذات يوم وأسهب فى انتقاد اللغة الانجليزية التى يتكلمها المصريون ويكتبونها واختص بحديثه مجدى وهبة ولويس عوض . وقالت لبنى إنها انزعجت وقالت له لابد أن يكون هناك لبس ما ، ولكنه أعاد الكرة مما أغضب الحاضرين .

وعندما ذهب إدجار فرج فى يوم الاثنين السابق إلى المكتب وجد سكرتيرة جديدة ، فألقى عليها التحية واتجه إلى غرفته كالمعتاد فسألته عما يريد ، فضحك وقال لها إنه ذاهب إلى مكتبه ، فقالت له أى مكتب يا سيدى ؟ أنا لا أعرفك ! وضحك إدجار وقال لها : أنا الذى لا أعرفك ، فأنت جديدة وهذا مكتبى من عشرين سنة ! فنهضت الفتاة واستدعت الحارس الذى تولى إخراج إدجار فرج (بالذوق) بدلاً من أن يستدعى 'الشرطة' !

ووقف إدجار على الباب حائراً ينظر إلى المكتب . لم يتغير شىء . اللافتة ما تزال موجودة ، رقم المنزل ١٤ شارع شيرينجهام ، والبناء المقابل لم يتغير ! وفكر إدجار قليلاً وانتهى إلى أنه كابوس ، فقرص نفسه ليتأكد أنه يقظ ، ثم حاول من جديد دخول المكتب لكن الحارس تصدى له هذه المرة من الخارج وأسمعهُ ما لا يحب أحد سماعه ، فانصرف .

وحاول إدجار أن يعثر على شريكه طول النهار عبثًا ، واتصل بكل معارفهما فلم يجده فى أى مكان ، وقال ربما ترك لى رسالة فى مكان ما ، فطاف بجميع الأماكن التى تصور وجود الرسالة فيها ولكن سعيه خاب فعاد إلى المنزل وهو يحاول جاهداً تصديق ما حدث ، وبعد جهد استطاع النوم ، وفى الصباح اتصل تليفونيا بالمكتب (فهذا أصون للكرامة من الطرد إذا ذهب بنفسه) فردت عليه السكرتيرة وطلب منها الحديث مع رئيس المكتب فقالت إنه لم يصل بعد ، وعاود الاتصال حتى جاءه صوت غريب ، وبعد مناقشة هادئة فهم إدجار فرج أن من يحادثه قد اشترى المكتب من صاحبه الانجليزى منذ مدة ، وأن الاتفاق كان أن يتسلمه بالأمس (يوم الاثنين) غداة سفر المالك الأصلى إلى الخليج ، حيث يبدأ العمل هناك فى مكان ما . وشرح إدجار فرج كل شىء للرجل على التليفون ، ولكن الأخير اعتذر وقال له إنه يستطيع أن يقاضيه إذا شاء ، ولكن كل أوراقه صحيحة ، وموقفه القانونى لا غبار عليه .

وأصبح إدجار فرج معلقًا فى الهواء ! كان المكتب كل حياته . والغريب أن شريكه لم يؤجر المكان بل باع الشركة (the firm) أى المؤسسة التجارية كلها إلى ذلك الغريب ! لم يكن أمام إدجار إلا أن يلجأ إلى القضاء ، فالحق فى جانبه ، وسوف ينصفه القضاء ، ولكن تكاليف القضية باهظة وقد تستغرق سنوات وسنوات ، وفكر فى أن يلجأ إلى أصدقائه المصريين يطلب المشورة (على الأقل) ولكن كرامته الصعيدية أبت عليه أن يضع نفسه فى هذا الموقف فاعتكف فى منزله ، ولم يطل اعتكافه إذ 'طبّ' عليه محمود حسين دون موعد ، كعادته ، وسمع القصة ولم يلبث أن استنفر الناس لذلك الاجتماع !

وقلت فى نفسى ما أسعدنى إذ جئت أيضًا على غير موعد لأمد يدى إلى جابر عثرات الكرام ! واتفق الجميع على تقديم سلفة مبدئية لإدجار حتى تقيله من عثرته ، وضربنا موعدًا فى اليوم التالى ، وأتينا بالنقود ولكن أهم ما اتفقنا عليه كان فكرة عبقرية تفتق عنها الذهن الذى دبر عبور قناة السويس بالدبابات ! جئت متأخرًا إلى الموعد فوجدت أن القاعة الصغيرة فى نادى الإذاعة أصبحت قاعة مصرية ، وأن الفكرة التى طرحت تتلخص فيما يلى : ما دامت الشركات التى تتعامل مع المكتب لم تتعامل إلا مع إدجار وتعرفه جيدًا ، فهو يستطيع إذا أنشأ شركة جديدة باسمه ، وقد غدا ذلك ممكنًا قانونًا بعد حصوله على الإقامة الدائمة ، أن يعود للتعامل معها ، ولا شك أن الثراء الذى هبط على العرب سوف يزيد من حجم التعامل معنا . واتفقنا أن علينا ، ريثما يتحقق ذلك ، أن نمتنع عن التعامل مع الشركة الجديدة (القديمة) وأن يتبرع كل منا بجهد ترجمة شىء ما للإذاعة العربية تقدم باسم إدجار فرج ، وفوجئنا عند هذا الاقتراح بأصوات عربية أخرى غير مصرية تقول ونحن معكم ! كان إخواننا العرب من غير المصريين قد سمعوا الخبر فجاءوا ليساندونا ، وبلغ بى التأثر مبلغه فطفرت من عينى دموع ، وعندما مسحتها سمعت من يهمس لى بلهجة غير مصرية « ايش كنت بتفكر ؟ ادجار ابن غربة مثلنا ! » .

وسرعان ما اندمل الجرح وعاد إدجار فرج للعمل، وظلت الحادثة بملابساتها حاجزًا نفسيًا يمنعنى من معرفة 'صاحبه' الانجليزى ، ودليلاً على أننا مهما اغتربنا فسوف نظل نحمل الوطن فى أعماقنا .

٤

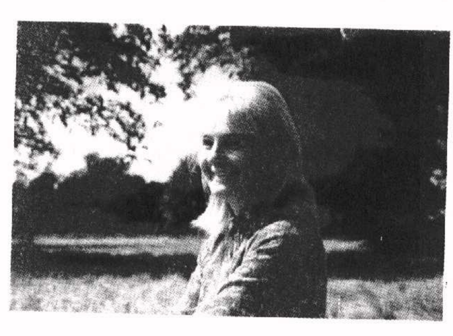
لا أذكر متى كتبت قصتى الثانية وعنوانها (Baby) وفيه تورية فهو يعنى 'رضيع' أو 'حبيب' وكانت على عكس القصة الأولى تتضمن سخرية أليمة من ولع الانجليز بالكلاب ، والواضح أننى كنت أحاول أن أثبت لنفسى فيها إحاطتى التامة بالثقافة الغربية ، وربما كتبتها من وجهة نظر غربية أيضًا ، ولكن الذى أذكره جيدًا أننى كتبتها فى جلسة واحدة ، وبمتعة غريبة ، كأنما كان شخص آخر هو الذى يكتب ! كنت أعرف أن القصة ليست مجالى ، ولكن 'المادة القصصية' الحية كانت أحيانًا تفرض نفسها علىّ ، وعندما وصلنى خطاب الوكيل وبه العقد كنت ، على فرحى ، أشعر بالضيق لأنه يلزمنى بإنتاجٍ لا أضمن أن أنتجه ! وأبقيت الأمر سرًا ، ولم أوقع العقد ، ولم أطلع عليه أحدًا سوى سمير سرحان عندما زارنى فى يوليو ١٩٧٥!

وقررت أن أجمع العالمين اللذين أعيش فيهما معًا ، فدعوت زملاء الجامعة وزملاء مكتب الأخبار إلى عشاء فى منزلنا ، تكون الأطباق فيه شرقية محضة ، وعلى رأسها الكباب ، وكنت قد تلقيت خطابًا من نهاد تقول لى فيه إنها ستعود مع سارة 'على رأس السنة' أو حرفيا (by the New Year) فحددت يوم ١٩ يناير ١٩٧٤ وكان يوم سبت للمأدبة ، بحيث تكون احتفالاً بعودة الأسرة ، وعودة الأستاذ المشرف ، ووداع العالمين جميعًا ، إذ كنت قدرت أن تكون مناقشة الرسالة فى أوائل الفصل الدراسى الثانى ، وأن نرجع جميعًا إلى مصر إما فى الربيع أو فى أول الصيف . وأعلمت الأصدقاء بذلك وكتبت بالموعد إلى نهاد فجاءنى الرد فى نحو منتصف يناير بأنها لم تحصل بعد على عمل ، وأنها تفضل أن تنتظر حتى تحصل على عمل ، وأنها عندما قابلت الدكتورة فاطمة موسى رئيسة القسم عرضت عليها التدريس فى معهد التمريض ، وكتبت إليها أطلب أن تتجاهل موضوع العمل وأن تعود هى وسارة فى أقرب فرصة .

واتصلت بتوم هيتون أقول له إن نهاد سوف تتأخر – وما العمل ؟ فقال لى سوف أرسل إليك جاكى (وكان قد تزوجها فى ديسمبر حتى يتمتع بالإعفاء الضريبى العائلى حسبما قال

لى) للمساعدة فى ترتيبات المأدبة . لم يكن هناك مجال للتراجع ، فعدد المدعوين كبير ، وبعضهم من معارف نهاد بل وأخص أصدقائها مثل وندى Wendy الأمريكية التى كانت زوجة لأحد زملائنا واسمه جون إليوت Elliott وصديقة لزميل آخر يدعى Eliot أيضاً ، وكنا أنا ونهاد نتندر بذلك ! ومثل مارجورى التى كانت تقيم مع شاب يدعى پول ، ويتنافسان على لقب 'أبخل' أهل انجلترا ، ومثل جواد مطر العراقى زوج پاميلا الانجليزية ، وكان يسمى نفسه جو Joe ، وكان المعروف أنه خدع الحكومة البريطانية فزعم أنه أصغر من سنه الحقيقى بعدة سنوات حتى يظل فى العمل بعد سن التقاعد ، وكانت زوجته محررة فى القسم الانجليزى ، وكان هو صديقاً لفتاة انجليزية التحقت مؤخراً بمكتب الأخبار (لا أذكر اسمها) وكانت تتميز بالطيبة التى نعتبرها من قبيل البلاهة فى بلادنا ، إلى جانب أستاذى وزوجته شارلوت ، وأستاذه باراز وزوجته ديانا إلوين جونز ، والدكتور فلتشر وصديقته التى كان يسميها بوبى booby (أى ذات الصدر الضخم) ولذلك كنت أتمنى أن تكون نهاد معنا .

وفى يوم الجمعة ذهبت إلى السوق وطلبت من الجزار مقداراً ضخماً من اللحم العجالى وشرحت له أننى بصدد إعداد حفل شواء فى الحديقة ، فانهمك فى تقطيع اللحم ، وإذا بسيدة تقف إلى جوارى تقول لى : هل قلت حفل شواء فى الحديقة ؟ فأومأت فقالت : «فى يناير ؟ سيموت الضيوف من البرد ! » ولكننى شرحت لها أن الموقد ضخم والنار ستكون بمثابة مدفأة، فاندفعت تقدم لى النصائح التى لم أطلبها ، ولسان حالها يقول : هذا أجنبى ساذج يثق فى الطقس الانجليزى ! ثم اشتريت اللوازم الخاصة بتتبيل اللحم وإعداد


مارجورى صديقة د. نهاد صليحة

أنواع السلاطة الشرقية ، والأرز والمكسرات التى ستُخلط به بعد تحميره إلى آخر ذلك من التوابع وعدت مُحمّلاً بهذه الأشياء فوجدت جاكى فى المنزل ، إذ كانت تعرف أين أضع مفتاح المنزل عند الخروج (لأننى كنت أتركه للخادمة 'سو' التى تتولى تنظيف المنزل) ووجدت معها

فتاتين من تلميذاتى السابقات هما كولينيت ومارى ! وقالت كولينيت ، وكانت قصيرة نحيلة ، إنها سمعت أننى أحتاج لمساعدة فأتت بصديقتها مارى - وهما 'تحت أمر' جاكى ! ولم أحاول أن أعرف مصدر تلك 'المعلومات' فالثرثرة وتناقل الأخبار من فم لفم (on the grape-vine) هى القاعدة فى الريف ، ولكننى حدّدت ما ينبغى فعله فيما يتعلق بإعداد الأثاث لاستقبال الضيوف، ثم إعداد المأكولات (إعداد الموقد ووضعه فى مكان مناسب بالحديقة ، وتنظيف الخضر والفاكهة وإعدادها إلخ) وعندما انتهى الجميع انصرفن وهن يتوقعن أن أدعوهن للمأدبة فى اليوم التالى ، ولكننى لم أفعل ، وانتهى اليوم 'على خير' .

كان الموعد فى السابعة ، وكانت جاكى مع توم زوجها أول من حضر ، فتركنا النار تدب فى الفحم ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم والمساء عاصفًا ، ولكن درجة الحرارة كانت فوق الصفر ولم يتساقط الثلج أو المطر ، فتفاءلت ، وتناوبنا التهوية على الفحم وإن لم يكن بحاجة إلى ذلك ، وبدأ الضيوف يتوافدون ، وبدأت رائحة الشواء الشرقى تتصاعد ، وكان نظام المأدبة حُرًا ، أى كان على كل ضيف أن يتقدم بنفسه لأخذ ما يريد من الطعام ، وجاكى ترشدهم ، وكان باب المنزل نصف مفتوح إذ كان بعض الضيوف لديهم عمل ذلك المساء (نشرة أخبار مثلاً) فكانوا يذهبون بسياراتهم لقضاء العمل والعودة . وفى نحو التاسعة التأم الشمل ولكن اختلاف 'العالمَيْن' جعل الأحاديث تميل إلى أن تكون 'ثنائية' ، فالأستاذ الجامعى يسأل المذيع أو المحرر عن الأخبار التى لا يعرفها ، والصحفى يسأل الأستاذ عن سياسة حزب المحافظين المعادية للجامعات وهكذا ، وفجأة وجدت ديانا تنادينى لتعرفنى بشخص لم أره داخلاً - إذ قالت بنغمة ذات دلالة : « هذا هو ريتشارد دارنيل - 'الوكيل' ! » وصافحته مرحبًا والمصافحة عادة منقرضة عند الانجليز ، ويشار إليها بتعبير (the rare British handshake) وما زلت أكرهها وأحاول تجنبها (عبثًا) حتى اليوم . وسمعت صوتًا نسائيًا لا أعرفه يقول من وراء ريتشارد « لسنا وحوشًا لهذه الدرجة يا محمد ! » ونظرت فإذا بامرأة تقدم بها العمر ، وتكاد لكثرة المساحيق على وجهها أن تلبس قناعًا ، وحدست من تعلقها بذراع ريتشارد أنها زوجته ، ولكننى لم أفهم ما قالته ، فسألتها فى دهشة عما تعنى فقالت إنها قرأت القصص التى أرسلتها إلى المكتب ، فهى محررة أولى (كبيرة محررين ؟ senior editor) وأنها تعترض على تصويرى للانجليز فى صورة 'بعابع' (جمع بعبع ogre) أو وحوش شائهة monsters ، وبدأنا الحوار غير المتوقع والذى استمر ساعات طويلة .

يبدو أن ديانا أدركت أننى أتردد فى التعاقد مع الوكيل خوفًا من المحررين الذين 'يغيّرون' كلمات الكاتب ، بل ويتدخلون أحيانًا فى صلب القصة أو الرواية ، فدعت ميلانى كبيرة المحررين حتى تزيل مخاوفى بنفسها ، مع الوكيل (صاحب المكتب) الذى كان طاعنًا فى السن ، ولم يكونا - على عكس ما حدست - زوجين . ودار الحديث عن مدى الحرية التى يتمتع بها المحرر فى تغيير النص الأدبى وسمعت منها ما أكد مخاوفى بدلاً من أن يزيلها . قالت ميلانى :

« أنا أعرف تمامًا ما يخشاه محمد ! إنه يخاف على أسلوبه مثلما فضل جوزيف كونراد أن 'يستغنى' عن 'خدمات' المراجعين والمحررين ويخرج إلى العالم بأسلوبه الخاص الذى أصبح علمًا عليه ! ولكن زمن كونراد قد انقضى ! نحن الآن فى عصر انفجار المطبوعات (publication explosion) وتكاثر المواد المقروءة (أو مواد القراءة) إلى درجة المرض (a plethora of reading matter) ودور النشر مؤسسات تجارية لابد أن تحافظ على نجاحها المالى (viability) وإلا أغلقت أبوابها وسادت البطالة حتى بين الكُتّاب ، ولذلك فعيوننا دائمًا على السوق : الكتاب الرائج (best seller) هو المثل الأعلى ، وقد ترى من موقعك فى الجامعة أن هارولد روبنسون ليس كاتبًا نابهًا بل وربما لم يدرج فى قوائم الأدب المعتمد (the canon) أبدًا ، وربما ظل مصيره مصير سومرست موم ، ولكنه مصدر رزق دار النشر التى قد تجازف بنشر أعمال لكتاب جدد يعتزون بأساليبهم ، وقد تخسر بعض هذه الكتب [وكانت كلمة كتاب فى سياق حديثها تعنى رواية] والناشر يغطى الخسارة بالربح من الكتاب الرائج ، فهى كما ترى عملية موازنة تجارية فى المقام الأول » .

وكنت أصغى باهتمام وأذنى تسجل كل كلمة حتى أستطيع الرد ، فأنا لا أومن بأن الثقافة تجارة بل رسالة ، وربما كان لخلفيتى المصرية دور فى هذا الموقف ، ولكننى حاولت دحض حجتها من واقع منطقها نفسه فقلت لها إذن لن يكتب لأديب ذى أسلوب متفرد أن يظهر من خلال دور النشر الحالية ! وكأنما كانت تتوقع السؤال جاء ردها سريعًا :

« بل لابد أن يظهر أمثال هؤلاء ، ولكنهم لابد أن يحققوا مبيعات كافية تكفل لهم البقاء بين كتابنا [تقصد المتعاقدين مع الوكيل] أما إذا لم يحققوا هذه المبيعات فسوف يكون ذلك نذيرًا بعدم تجديد العقد ! » .

وسألت « وعليهم أن يكفوا عن الكتابة ... وعن النشر ؟ » فقالت : « نحن لا ننصح أحداً عن شيء ، ولكن نقادنا يتيحون الفرصة للموهوبين فقط ، وأما الأعداد الهائلة من المخطوطات التى ترد إلينا ولا تنم عن موهبة صادقة فنحن غير مسئولين عنها ، ونحن لا نتدخل بالنصح والإرشاد إلا لمن نشتم لديهم قدراً معقولاً من الموهبة ، وهؤلاء هم الذين نتيح لهم الفرصة مرة أو مرتين ، فإذا لم ينجحوا نفضنا أيدينا من المسئولية ! » .

وقلت بصوت خفيض « مع أنهم موهوبون ؟ » فقالت « مع أنهم موهوبون ! الموهبة يا محمد ليست موهبة أسلوبية أو أدبية كما علمنا أساتذتنا فى المدرسة ، [وكانت تقصد بالمدرسة مراحل التعليم كلها] بل هى – من وجهة نظرنا – القدرة على الوصول إلى الناس ! فإذا سألتنى 'من الناس ؟' قلت لك لا أعرف ! ولكن الناس هم القراء ، هم أنت وأنا والبواب والسكرتيرة والطاهية وعامل المصعد ! ستقول لى إنهم لن يتذوقوا الشعر ، ولن يشتروا الدواوين، وسأقول لك إننا لهذا السبب لا ننشر الشعر ! » وسألت بنفس اللهجة « والمسرح ؟ » وردت « ولا ننشر المسرح قطعاً ! المسرحيات تُكتب للتقديم على خشبة المسرح ، وهناك وكلاء متخصصون فى نشر المسرحيات ، وغالباً **بعد** تقديمها على المسرح ! » .

وتدخل ريتشارد ضاحكاً فى الحوار فقال « لا تصدق يا محمد ! فلقد نشرنا ديواناً ضم شعر المحدثين فى بريطانيا ! » فأسرعت ميلانى تقول « لم أكن أنا الذى أوصيت به وانظر ما جر علينا من متاعب مع دار النشر ! » وعاد ريتشارد يقول « إنهم يهوّلون المسائل ، فلم يبيعوا إلا عشرة آلاف نسخة ، ولم تكن صفقة الشعر تمثل واحداً فى المائة من مجموع الأعمال (turnover) ولم تكن الخسائر تذكر ! » وقالت ميلانى كأنما لاستكمال العبارة « رغم بيع النسخ كلها ! » .

وعدت أسأل بعد أن نهضت لإحضار فناجين القهوة التركى ووضعها على المنضدة الصغيرة ، وبعد أن انضم إلينا المشرف سالڤسن وزوجته « وهل تتدخلون 'لتحرير' الشعر أيضاً– أقصد إذا نشرتموه أصلاً ؟ » ويبدو أن السؤال قد أثار أحزان أستاذى فضحك ضحكة عصبية وقال : « لا تستبعد ذلك يا محمد ! إنهم يحررون كل شيء ! » وقالت زوجته

شارلوت « إن كريس يحاول نشر ديوان صغير منذ عامين ، ودور النشر تقول إنه أصغر مما ينبغى ! (too little) » وقال ريتشارد « لم لا تطبع منه طبعة تجريبية (pilot edition) ؟ » وسألت : « تقصد طبعة محدودة ؟ » وقال أستاذى « قد أفعل ذلك إذا سُدّت جميع الأبواب فى وجهى ! » وقلت من باب تخفيف الجو الذى أصبح يكتسى طابع الجد : بشرط أن تكون طبعة غير محررة ! (unedited edition) » وضحكنا .

وعندما حان موعد انصراف الضيوف همست لى ديانا « لا تصدق ميلانى ! إنها لم تغير حرفًا واحدًا فى قصتك ، لكنها سترسل لك خطابًا تقترح فيه تغيير العنوان ! » وأثارنى هذا الاقتراح– وقلت لها إن العنوان جزء لا يتجزأ من القصة ، بل هو عنصر من عناصر الدلالة – فضحكت، ولوّحت بيدها مودعة وخرجت هى وزوجها مع ريتشارد وميلانى قبل الجميع لأنهم كانوا سيرجعون إلى أوكسفورد بالسيارة ، وهى رحلة 'باردة' فى يناير !

ولم ينفض السامر قبل الحادية عشرة ، وقد كتب لجميع الذين استمروا معى أن يعودوا إلى المنزل بل وأن يعتادوا زيارتنا بعد رجوع نهاد ، وأن يسمروا معها ، مع إضافة صديقة أو صديقتين (برئاسة إدا توماس !) .

وفى هدأة صباح الأحد سمعت رنين جرس الباب ، وتصورت أن الغلام الذى يحضر الصحف يريدنى لأمر خاص ، فهبطت الدرج مسرعًا ، وعندما فتحته بحذر (فالبرد قارس) وجدت هارى فيلدز (Harry Fields) أحد زملائنا المترجمين واقفًا فأسرعت بإدخاله وإغلاق الباب . وهرعت إلى المطبخ لإعداد القهوة وبينما أنا منهمك فى إعدادها تناهت إلى سمعى صرخات من منزل هارى ، إذ كان يقيم إلى جوارنا ، وتركت المطبخ وخرجت (دون أن أكون قد أفقت تمامًا) لأستفسر من هارى عن سبب الصراخ ، فأشار بيديه إشارات فهمت منها أنه يائس ومنهار . فتركته وذهبت إلى الحمام ووضعت رأسى تحت الدش الساخن ، وارتديت ملابس الشتاء الثقيلة ونزلت فقدمت القهوة لهارى ، ونظرت بسرعة فى صحف الصباح (فصحف الأحد صفحاتها كثيرة وتتطلب ساعات طويلة من القراءة ولو دون تركيز ! ثم أحضرت قهوتى وجلست ولسان حالى يقول 'اصطبحنا!' .

٥

ولد هارى فيلدز فى مصر إبان الحرب العالمية الثانية لأب انجليزى وأم إيطالية ، ودخل مدرسة فرنسية (فى منطقة قناة السويس - لا أدرى أين) فنشأ يعرف عدة لغات ويتكلمها جميعًا بلهجة إيطالية ! وكان يذكرنى بالخواجات الذين كنت أشاهدهم فى الاسكندرية والقاهرة فى أوائل الخمسينيات باستثناء هام وهو أنه كان أسمر الوجه ، يميل إلى السمنة ، ويستخدم يديه كثيرًا أثناء الحديث ، وكان طيب القلب ويحب العمل ولا يتذمر أبدًا منه (وهى الصفة التى نطلق على صاحبها فى مصر - بكل أسف تعبير 'حمار شغل') وكان له طفل جميل يدعى مايكل أصيب بمرض خبيث فى المخ وأجريت له عملية وشفى وإن كان مظهره قد تغير ، أما زوجته فكانت مصدر الصراخ فى ذلك الصباح - وقصتها مؤلمة .

كانت روزانا إيطالية قُحَّة ، لا تعرف الهمس ، ولا تعرف ضبط النفس ، وكانت تحب التعبير عن آرائها بصراحة يجدها الانجليز مبعثًا للحرج الشديد ، وكانت لغتها الانجليزية محدودة ومع ذلك فهى تعتبرها (perfect) على حد تعبيرها ، وكانت تعطينى دروسًا خاصة فى اللغة الإيطالية (الساعة بجنيه واحد) ولكنها كانت تعانى من مرض لا أعرفه ، وكانت قد ذكرت عَرَضًا ذات يوم أنها أصيبت بمرض التهاب الغشاء السحائى (meningitis) وشفيت منه فى الماضى ، وكان هارى يعتبرنى صديق العائلة ، ويفضى إلىّ بأسراره ، كما كانت زوجته لا تثق فى سواى ، وكنا نناديها باسم مختصر هو روزا ، والذى حدث ذلك الصباح وتسبب فى ذلك الصراخ حادثٌ يتكرر من حين لآخر . ولذلك لم يكن هارى بحاجة إلى الإفاضة فيه ، وكانت إشارات يده كافية للدلالة عليه .

كان أول حادث من هذا النوع قد وقع وأنا بعد فى لندن ، إذ قطعت روزا درس الإيطالية وفاجأتنى بانجليزية مزعجة قائلة « هل تعرف كلبة من كلاب مكتب الأخبار ترضى غرائز الكلب الذى يعيش معى ؟ » وأصابنى الوجوم التام . لم أفهم ما تعنى ، أو فهمت ولم أصدق ما فهمته ، فلزمت الصمت . وعادت تقول « أرجوك اشرح له بالعربى الفصيح أننى مريضة ولم أعد أصلح » . فغمغمت غمغمة لا معنى لها سوى تغطية حرج موقفى ، ومن ثم اندفعت تقول

«إن هارى حيوان ! أنا لا أصدق أنه مصرى ! هل تصدق أنه يشتهينى ؟ هل تصدق أنه يحاول أن (....) .. » وكان علىّ فى ذلك اليوم أن أنصرف معتذراً بأننى لدى موعد مهم . أما ذلك الصباح ، فيبدو أن هارى أعاد الكرَّة .

وبعد أن شربنا القهوة أشرت إلى بعض أنباء الصحف ، وأهمها إضراب عمال الفحم (أو تهديدهم بالإضراب) واشتداد الأزمة بين رئيس الوزراء ورئيس نقابة العمال ، ولكنه كان على غير استعداد للنقاش ، وفضلت أن أقرأ الصحف فى صمت ، وأن أعرض عليه الصحيفة التى قرأتها حتى يلقى عليها نظرة أو يقرأ شيئًا يصرف ذهنه عن صراخ الصباح ، وكنا فى الضحى فى الحقيقة ، وكان علىّ أن أحاول ترتيب المنزل قبل أن تأتى 'سو' للتنظيف فى الصباح ، ومن ثم تركته وقمت للعمل ، وانتهيت من ذلك وقلت له إننى لابد أن أكتب أشياء معينة فإذا شاء بقى وإن شاء رحل . وكان يريد البقاء .

وكان يمكن أن يمر يوم الأحد فى هدوء ، لولا أن بدأ المطر ينهمر ، وكان من نوع أمطار الشتاء الخفيفة المتواصلة ، وكان ذلك معناه أن أرفع بقايا الموقد من الحديقة وأن أضع كل شيء فى الكوخ الخشبى الصغير المقام فى آخرها والذى يستخدم لتخزين أدوات 'البستنة' ، فأسرعت إلى الحديقة أعمل وحدى وهو جالس لا يتحرك ، ينظر فى الصحف بعين زائغة وقد أخذ منه الهمُّ مأخذه ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم وتنذر بأمطار متواصلة طوال اليوم ، فقلت فى نفسى هذا هو ما يصوره الروائيون للإيحاء بتجاوب الطبيعة مع مصائب البشر !

وبعد حوالى ساعة جاء مايكل (ابن هارى) ليقول لأبيه إن والدته سقطت مغشيًا عليها وأنه قد استدعى سيارة الإسعاف ، ولم يكد ينتهى من كلامه حتى وصلت السيارة فأسرع هارى خارجًا ، واضطررت إلى الخروج معه فى المطر ، وكان رجال الاسعاف قد دخلوا المنزل وفحص أحدهم 'روزا' ، وعندما وصلنا كان يتكلم فى التليفون (ربما مع المستشفى) وسرعان ما حملها اثنان منهم ، وكانت قد أفاقت من الإغماء ، وذهب الجميع .

لم أستطع التركيز بعد رحيل السيارة ، وفى نشرة الواحدة ظهراً سمعت أنباء الاتجاه إلى لوم الرئيس الأمريكى نيكسون impeachment مما يعنى عزله من منصبه بتهمة التواطؤ فى التجسس على مقر الحزب المنافس أثناء الحملة الانتخابية ، وأنباء إضراب العمال (عمال المناجم) واتجاه رئيس الوزراء البريطانية إلى 'مواجهة' العمال بقصر ساعات العمل فى

الأسبوع على ٢١ ساعة (ثلاثة أيام بدلاً من خمسة) وتوفير الطاقة الكهربائية بإطفاء أنوار الشوارع ، وإغلاق البث التليفزيونى فى العاشرة والنصف ، وكان ذلك كله نذيرًا بما أسماه المعلقون 'الأيام المظلمة' القادمة ، والتى كانوا يتهمون العرب بالتسبب فيها (بسبب رفع أسعار البترول) .

وفى المساء اتصلت تليفونيا بهارى لأطمئن على زوجته فقال باقتضاب إنها بخير ، ورغم أن المرض (أى مرض) لا يحتمل الهزل ، فقد ضحكت حين قال بالعربية المصرية : 'الكلبة تمام التمام' . فقلت له بالعربية 'سلامتها' فغمغم ووضع السماعة . ولم أكد أضعها وكنت واقفًا أنظر من شباك المطبخ (الدور الأرضى) إلى الساحة التى تفصل بين المنازل فى المنطقة السكنية ، حتى رن التليفون ، وعندما رفعت السماعة ، كان المتحدث رجلاً انجليزيًا أجش الصوت ، قال إنه شاويش فى البوليس ، ويريدنى أن أحضر لترجمة شىء ما . قلت له إذن أرسلوا سيارة ، فسألنى عن العنوان فأعطيته له وارتديت ملابس الخروج .

عندما دخلت مخفر الشرطة لأول مرة فى حياتى وجدت مكتبًا لا يختلف عن أى مكتب حكومى - موظفون ، سكرتيرات ، آلات كاتبة ، تليفونات ، ولا علاقة له بما نراه فى السينما . وقفت حائرًا نحو خمس ثوان وقبل أن أتجه إلى الاستعلامات ، لمحتنى شرطية سوداء فجاءت باسمه وقالت أنت مستر عنانى ؟ فأومأت وسرت معها حتى دخلنا مكتب الشاويش، وهو الرئيس المناوب (النبطشى = النوبتجى) للمكتب يوم الأحد . وسألته ما الخبر فقال لى : عربى متهم بالاغتصاب ! وقلت فى نفسى 'هذه هى الكارثة !' وتلفتُّ حولى باحثًا عن شكل عربى فلم أجد أحدًا ، واستمر الشاويش فى الحديث قائلاً : إننا بالطبع لم نوجه إليه التهمة بعد ، لأننا لا نعرف ماذا يقول - وقيل لنا إنك تستطيع ترجمة ما يقول . ورحبت فأشار إلى كرسى فجلست . وأتت لى السوداء بكوب الشاى (فنجان من الشاى الساخن باللبن دون سكر) .

وعندما انتهيت منه عادت فقالت لى تفضل معنا - فدخلت غرفة فيها موظف تقدمت به السن ، وعندما قالت له السوداء إننى مصرى تهللت أساريره وقال : 'لقد خدمت فى مصر فى الحرب - أجمل بلد فى الدنيا ! تفضل !' وجلست فشرح لى الموضوع وهو أن أحد الدارسين العرب ، ويبدو أنه بدوى يغادر الصحراء لأول مرة فى بعثة لدراسة الزراعة فى ردنج ، 'احتك'

بامرأة فى الطريق العام ، أو كما يقول طه حسين 'مسها مسًا غير كريم' حين دعته إلى الاحتماء من المطر تحت المظلة . وقال العجوز إنه يظن أن الشاب يعرف الانجليزية ولكنه مصاب بنوع من الذهول ولا يستطيع الكلام ، وربما إن حادثته بالعربية نطق ! وشرح لى بإيجاز حرج الموقف ، فهم فى الشرطة لا يريدون إحراج الدولة التى ينتمى إليها – خصوصًا فى هذه الأيام – ولا يريدون التسرع بتوجيه التهمة إليه قبل الاستماع إلى أقواله كاملة عن طريق مترجم رسمى ، وهمس لى وهو يميل برأسه نحوى « والسيدة التى اتهمته قد تتنازل عن الشكوى إذا اقتنعت بوجود لبس ما » . وسألته إن كنت سأقوم بدور المترجم الفورى هنا أم فى المحكمة ؟ فقال بدهشة : محكمة ؟ لا لا لا ! سنحاول الانتهاء من المسألة الآن ، ولا أعتقد أننا سنحتاج إلى المحكمة !

وضغط جرسًا على المكتب فعادت السمراء إلى الظهور فأشار إليها بيده إشارة معينة فخرجت لحظة وعادت مع شاب أشقر وسيم ، منكِس الرأس ، نحيل وقصير ، وعلى وجهه أمارات الحزن (والندم ؟) فجلس قبالتى ، وبدأ الموظف بسؤاله عما حدث ، فكان يتكلم وأنا أترجم وهو يكتب ، والسوداء واقفة لدى الباب تسمع ما يقال . لن أفصح عن اسمه الحقيقى – بطبيعة الحال – ولنطلق عليه اسم 'طالب' وحسب . قال طالب :

> « بدأ المطر يتساقط فجأة وأنا ذاهب إلى محطة الأتوبيس ، ولم يكن هناك مكان أختبئ فيه ، ولم تكن معى مظلة ، وبينما أنا أعبر الجسر (flyover) وجدت امرأة تنادينى للاحتماء تحت مظلتها ، فترددت ثم جريت إليها ، وبمجرد أن وضعت رأسى تحت المظلة حتى صاحت وصرخت وأمسكت بى ، فاجتمع الناس وجاءت سيارة الشرطة فى لمح البرق . أنا برئ . هى التى دعتنى وكانت تبتسم ، لكننى لم أفعل شيئًا » .

وبعد أن اكتملت الترجمة التى أوجزتها هنا إيجازًا شديدًا ، قال الموظف (ولم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أنه قاضى صلح Justice of the Peace) هذا معقول ، وأقواله لا تتناقض مع أقوال الشاكية ، ثم أشار إلى السوداء فجاءت واصطحبت 'طالب' إلى الخارج ، وعاد القاضى للهمس فانحنى إلى الأمام حتى مست ذقنه دفتر المحضر ، وقال لى : هل تعتقد فى أعماقك وضميرك (in your heart of hearts) أنه يقول الحقيقة ؟ وقلت له : لقد ترجمت لك

كل كلمة بصدق وأمانة ! ورد بسرعة « طبعًا طبعًا ، لاشك فى هذا ! كنت فقط أريد دعمًا لحدسى » والتزمت الصمت . وبعد ثوان معدودة أحسست أنها امتدت دهرًا ، قال : أعتقد أننا لا يجب أن نضيع من وقتك أكثر مما ضيعنا . وسوف نتصل بك إن جد جديد . وخرجت .

كان المطر ما زال ينهمر ، وإن كان من نوع الثلج الذى يذوب عندما يصل إلى الأرض وهم يسمونه sleet ، وكان خفيفًا لدرجة أحببت معها أن أسير فيه وأحس بنقراته الخفيفة المنعشة على وجهى ، وأن أعود إلى المنزل بالأتوبيس بدلاً من سيارة الشرطة ، وإن كانت لا تحمل علامات تدل على ذلك ، وسرت أفكر فى قضية اختلاط الدلالات الثقافية من جديد ، أفلا يمكن أن يكون طالب قد تصور أن المرأة تدعوه إلى شىء آخر ، فمد يده إلى ما لا ينبغى أن يمد يده إليه ؟ أفلا يجوز أن يكون قد شاهد الانجليز يفعلون مثل هذه الأشياء علنًا فى الشارع فتصور أنها مباحة ؟ أفلا يجوز أن تكون السيدة قد بدرت منها بادرة 'فَسرَّها' على أنها تشجيع على المساس بخصوصيتها ؟ وكيف يستطيع ذلك البدوى تفسير العلامات الثقافية التى تختلف كل الاختلاف عن علامات مجتمعه ؟ وسمعت هاجسًا آخر يهمس فى أعماقى : أفلا يمكن أن يكون بريئًا حقًا وصدقًا ؟ ولم أدر بمرور الوقت إذ وجدتنى قد وصلت إلى المنزل.

بدأت اعتبارًا من يوم الاثنين الالتزام بجدول الكتابة ، فمن غير المعقول أن أصل إلى هذا الحد فى الرسالة ثم لا أنتهى منها ، وقضيت اليوم كله فى المكتبة ، وكنت أعود إلى المنزل مبكرًا (فى نحو الخامسة) فأجلس إلى الآلة الكاتبة وأواصل العمل حتى العاشرة أو الحادية عشرة ، ولم يكن أحد يتصل بى ، فالجميع يعرفون أن أسرتى فى مصر ، وأننى منقطع عن العالم للانتهاء من الرسالة . ولكن إغراء الكتابة كان يطل برأسه كالشيطان من حين لآخر ، وكنت أقاومه ما استطعت المقاومة ، حتى انتهى الأسبوع ووجدتنى قد قاربت تحديد شكل الفصل الأخير ، فوضعت ورقة بيضاء فى الآلة الكاتبة – وجعلت أتطلع إلى المساحة البيضاء وفكرة التمثيلية التليفزيونية تتشكل فى الفراغ !

وفى يوم السبت ٢٦ يناير أشرقت الشمس فخرجت إلى 'الطبيعة' العارية من الأوراق ، أتأمل الأغصان التى تبرق بكساء الصقيع الباكر ، والسحابات البعيدة التى تغزو السماء ذات الزرقة العميقة ، أو أتأمل أوراق الشجر الذابلة التى اختلطت بالتربة ، وهبطت عليها قطرات الندى التى تجمدت ، ولن تنصهر إلا فى العصر ، ولربما تظل مجمدة طول اليوم ، وكان

موضوع التمثيلية قد قاربت التشكل ، وكان يقوم على قصة جمال الدين كرجى باهى - وهو إفريقى مسلم من طائفة الإسماعيلية - أتى به توم هيتون من شرق إفريقيا ، فأسكنه معه فى المنزل الذى اشتراه ، ورتّب له عملاً فى قسم أتنيكس الملحق بمكتب الأخبار ، وسرعان ما أتى جمال الدين بأهله وطفله الصغير ، وبدأ نزوح الأقارب حتى ضاق المنزل بهم ، وكان النموذج الفنى فى ذهنى هو قصة 'القناع' لوالبول ، ولكننى لم أكن أدرك أننى أنسج على منوال غيرى، بل كنت أفكر فحسب فى موقف الفرد الذى يجد نفسه محاطًا بأناس ما فتئوا يتكاثرون حتى يغلبوه على أمره ، وهو يزداد حبا لهم وإيمانًا بهم وفقدانًا لذاته وتفرده ! الفكرة نفسها هى التى عالجها هارولد بنتر فى فيلم 'الخادم' ، ولكننى كنت أعالج هنا نماذج حية موجودة حولى !

وفى المساء اتصل بى عبد اللطيف الجمال وقال لى إنه حصل على شهادة مرضية تعفيه من العمل ثلاثة أشهر ! ولم أكد أصدق - كيف ؟ أقصد كيف يحصل على مثل هذه الشهادة وهو بصحة جيدة ؟ سألته : هل الطبيب مصرى ؟ فقال بل انجليزى ابن انجليزى ! واتضح أنه ذهب إلى رئيس وحدة الأخبار وقال إنه يعانى من انهيار نفسى ويطلب الإحالة إلى الطبيب ، فحددت له الإدارة طبيبًا فى لندن ذهب إليه وتظاهر بأنه مريض نفسى . وقال عبد اللطيف : « والدكتور اقتنع وأعطانى الشهادة وقال إنه سوف يرسل التقرير إلى رئيس الوحدة ! معنى ذلك أننى أستطيع الانتهاء من الدكتوراه هذا العام ! سأذهب غدًا إلى لندن وأقيم هناك حتى أنتهى من الرسالة ، وسوف أتصل بك من هناك » . والذى لا يعلمه عبد اللطيف - حتى اليوم- أن الطبيب كتب فى تقريره إن عبد اللطيف كان يتظاهر بأعراض مرض معين ولكن الفحص أثبت أنه يعانى من مرض أخطر كثيراً وقد يتطلب دخوله المستشفى للعلاج ، إلى جانب التفاصيل الطبية التى لا يعرفها إلا المتخصصون . وذكرت ما نشرته إحدى الصحف من أن ٤٦ ٪ من أسرّة المستشفيات فى بريطانيا (فى انجلترا وويلز فقط فى الواقع) يشغلها المرضى النفسانيون ، وقد قطعت تلك القصاصة ووضعتها (ألصقتها) بالكتاب الذى كنت قرأته (وما يزال لدى) عام ١٩٦٨ وعنوانه 'الطب النفسى اليوم' لمؤلفه ستافورد - كلارك . لقد نجحت الكذبة المصرية هذه المرة ، وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة !

وفى يوم الخميس ٣١ يناير كان يبدو أن الربيع قد أتى ، فالجو صحو ودرجة الحرارة لا بأس بها ، إذ وصلت إلى ١٢° ظهرًا ، فخرجت إلى السوق سيرًا على قدمىّ وحينما رجعت وجدت فى انتظارى مفاجأة : تكليف من الشرطة (والشرطة تابعة للمجلس المحلى) بالحضور للترجمة الفورية بعد أسبوع فى محكمة الجنح وهى نوع من المحاكم لا يوجد عندنا وهو يحاول إنهاء القضايا السهلة أو التى لا خلاف على الأدلة فيها إما بإحالتها إلى محكمة الدرجة الأولى أو بإصدار حكم أو بحفظ القضية . وتسمى هذه المحاكم magistrate's court وهى تابعة أيضًا للمجلس المحلى للمدينة ، وتختلف عن محكمة الصلح التى ذكرتها من قبل فى أن القاضى يحمل مؤهلاً قانونيًا ، على خلاف قاضى الصلح الذى يعينه المجلس المحلى على أساس النزاهة والخبرة والسمعة الطيبة .



جاكى زوجة توم هيثون مع اثنين من قبيلة كينيا عند زيارتهما إلى لندن عام ١٩٧٢

وذكرت تجربة 'طالب' ودعوت الله ألا تكون قضية مماثلة ، وللقارئ أن يتصور مدى دهشتى عندما ذهبت فى الموعد المحدد لأرى 'طالب' نفسه فى قفص الاتهام ، وهو ليس قفصًا كالذى نراه فى السينما بل مجرد حاجز عادى فى غرفة عادية . دخلت فحلفت على المصحف أن أراعى الله والضمير فى ترجمتى ، وكانت النيابة قد وجهت إليه التهمة رسميًا هذه المرة ، وكانت الظروف مختلفة عن المرة السابقة ، فلم تكن الدنيا تمطر ، بل كان الجو صحوًا حين اقترب صاحبنا من الشاكية وحاول ، فيما قيل ، تقبيلها . وكانت الفتاة حاضرة . وقمت بالترجمة لمدة ساعة كاملة ، عرفت فيها تفاصيل الاتهام ، إذ يبدو أن 'طالب' المذكور اقتفى أثر الفتاة ثم هجم عليها دون مقدمات مما سبب لها صدمة عصبية trauma فصرخت وتكرر ما حدث فى المرة الأولى ، ولم تستدعنى الشرطة فى المراحل التمهيدية للقضية لأن قاضى

الصلح أحال الشكوى إلى النيابة التى أمرت باحتجاز المتهم (الذى لم يكن متهمًا بعد) ٢٤ ساعة ثم وجهت إليه التهمة رسميًا ثم حبسته على ذمة القضية (remanded in custody in connection with...) ولم يستغرق القاضى وقتًا طويلاً فى نظر القضية فأصدر الحكم بترحيله من انجلترا ، وقال فى 'تلخيصه' summing up للقضية إنه أخذ فى اعتباره صغر سن المعتدى ، وانتماءه إلى ثقافة مختلفة ، واحتمال اختلاله نفسيًا ، كما حكم بأن للمدعية الحق فى التعويض المادى عما أصابها من صدمة ، وقال إنه سيحيل القضية إلى سفارة البلد المعنى حتى يتم دفع التعويض الذى تحكم به محكمة أخرى مدنيّة ، وسيكون على طالب أن يأتى إلى الشرطة 'كل يوم' لتسجيل اسمه حتى يتم الفصل فى القضية المدنية !

كانت التجربة رهيبة ! لقد وقع 'طالب' فى المحظور ! وخرجت مهمومًا أريد أن أحكى ما حدث لأى صديق ، وكنت أريد أن أعرف مصير طالب بعد ذلك ، ولم أكد أخطو خطوة واحدة خارج قاعة المحكمة حتى قابلت رجلاً أسمر يبدو أنه عربى فنظرت إليه فابتسم وجاءنى قائلاً «أنا من السفارة ، وقد اتفقنا بالفعل على دفع التعويض الذى طلبته الشاكية ، ولن تحال القضية إلى محكمة أخرى بل ستجرى التسوية خارج المحكمة أى (settlement out of court) حتى يستطيع 'طالب' العودة إلى أهله » وسألته أسئلة كثيرة أجاب عليها بما بث الاطمئنان فى قلبى ، ولم يعد لدى شك فى أن 'طالب' سيعود إلى وطنه بسرعة .

وقد يكون من المناسب أن أختم هذا الفصل بذكر الشيكين اللذين تلقيتهما من المجلس المحلى بعد ذلك ، لقاء جهودى فى الترجمة ، وكانت نقوداً تمنيت ألا أكسبها فلكم شاهدت الانجليز يمارسون 'ألعاب الحب' (love play) فى الطريق العام ، ولكم شاهدت الفسوق الصريح ، دون أن يلتفت أحد إليه أو يشكو منه !

العـــــودة



في نحو منتصف فبراير ١٩٧٤ وصلني خطاب من البنك يقول لي إنني مدين لهم بثلاثين جنيها ، و'يستحسن' أن 'التفت' إلى هذا الأمر وأوليه 'عنايتي' في أقرب فرصة ! كانت صيغة مطبوعة ترسل لكل عميل « يسحب على المكشوف » ولكنها كانت إنذارًا لي بأن الإفلاس عواقبه وخيمة ، ولذلك عدت إلى صورة العقد التي أرسلها الوكيل ، ولاحظت أنه يقول في أحد بنوده إن الوكيل سوف يدفع لي عند التوقيع مبلغًا معينًا للإنفاق على العمل (لتغطية تكاليف التأليف) وفجأة اختفت مخاوف تغيير الأسلوب أو تعديل الصياغة الأدبية ، ولاحت صورة النقود الزاهية أمام عيني ، فعقدت العزم على أن أنتهي من التمثيلية التليفزيونية بأسرع وقت . وأعددت الملخص اللازم وأرسلته إلى الوكيل ، فجاء الرد بالموافقة ، فأتيت بالآلة الكاتبة وبدأت العمل .

وقضيت أسبوعين كاملين لا همّ لي إلا الانتهاء من النص ، وكان الحوار الحيّ مستقىً من اللغة الدارجة ، وأحسست بنشوة بالغة وأنا أحاكي كتّاب التليفزيون ، وأتعمد إثراء حواري

بالتوريات اللفظية ، وعندما انتهيت منها عرضتها على توم هيتون وزوجته جاكى ، فأبديا إعجابًا لا يشوبه أى تحفظ ، ومن ثم أعددت صورة بالزيروكس وأرسلت الأصل إلى الوكيل ، وجاءنى الرد برجوع البريد ، وكان يقول إنهم استلموا الأصل وسوف يرسلون إلىّ رأيهم حالما يقرؤها الناقد . وعندما أتيت ببطاقات الرسالة عدت إلى العمل الذى لا يقل إبداعًا عن التأليف، وإن كان يقتضى تجنب اللغة الدارجة تمامًا .

وفى يوم السبت ٣٠ مارس اتصل بى توم هيتون وقال إنه سوف يسافر إلى بلانتاير Blantyre فى ملاوى ، وقد دعا صديقًا له عاد من إيران لتوه ، وكان يمر بأزمة نفسية ، إلى العشاء ، كما أن ابنه كان فى زيارة لانجلترا ، وهو يدعونى إلى العشاء مع الجميع . ورحبت بالدعوة فالوحدة كانت قاتلة ، ولا أعرف متى تعود نهاد وسارة . وعندما وصلت إلى منزل توم كان الجميع قد بدأوا الحديث الصاخب ، فقدمنى توم إلى صديقه جون فورسايت (Forsythe)، وطلب منه أن يشرح لى ما حدث له ، لكنه كان حزينًا فقال 'فيما بعد' ، وبعد أن شرب ما شاء الله له أن يشرب بدأ يقص قصته :

كان فورسايت يعمل بالنجارة (cabinet maker أى نجّار موبيليا) ويسمى نفسه (أستاذ صنعة) (master craftsman) وعندما ارتفعت أسعار البترول بعد حرب أكتوبر قرأ إعلانًا عن وظيفة مناسبة فى طهران تدر دخلاً لم يكن يحلم به ، فقدم طلبًا لاقى القبول وسافر فى نوفمبر وجعل يرسل إلى زوجته وطفليه ألف جنيه فى الشهر ، وطلب منها إنفاق مئتين وإدخار الباقى حتى يعود فسوف يساعده ذلك فى عمله ولا شك . وكان فورسايت نموذجًا للطبقة العاملة التقليدية فى بريطانيا ، وكان المفروض أن يستمر فى عمله حتى الصيف ، لكنه لم يحتمل الانتظار ، إذ كان يشتاق إلى رؤية طفليه ، وكانت حياة الوحشة والوحدة فى إيران لا تحتمل ، فقرر فجأة أن يعود إلى انجلترا ، وحصل بسهولة على إجازة لمدة أسبوعين . وكان قد وضع خطة لتحديث عمله فى النجارة بشراء آلة جديدة باهظة الثمن ، واتفق مع شركة من الشركات على شرائها عند عودته ودَفْع العربون من مدخراته التى كان يقدر أنها بلغت ثلاثة آلاف جنيه على الأقل . واتجه من المطار رأسًا إلى منزله فوجد زوجته أمام المرآة تضع مساحيق الزينة وتضبط هندامها ، وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة مساءً فألقى عليها تحية المساء فردت ببرود قائلة ما معناه 'ما الذى أتى بك مبكرًا ؟'

وقال فورسايت: « كان استقبالها الجاف لى صدمة كبيرة . فأنا أحبها . إنها امرأة رائعة. [وأخرج من جيبه صورة عرضها علىّ] وسألتها أين الطفلان ؟ فقالت عند جدتهما ! فقلت والمدرسة ؟ فقالت 'هى تصحبهما إلى المدرسة' . فسألتها : هل ستخرجين الآن ؟ فقالت بلهجة ساخرة وهل تظنني أتزيّن حتى أتطلع إلى نفسى فى المرآة ؟ ثم خرجت . وقضيت الليلة وحدى مهمومًا ، فالدنيا ظلام والبارات تغلق أبوابها فى العاشرة ، ولم يعد هناك ما أستطيع أن أسلّى نفسى به سوى الشراب . وشربت ونمت ، وعندما صحوت لم أجد زوجتى (ولا الأطفال طبعًا) فاتصلت بالمعارف والأصدقاء فلم أجد إجابة شافية ، فخرجت إلى الورشة ، فرحب بى الزملاء ، وبعد تبادل الأخبار عن سوق العمل وأحوال التجارة وطرائف إيران سَأَلْتُهم إن كانوا شاهدوا زوجتى مؤخرًا هى والطفلين ففاجأنى الوجوم التام . وعندما ألححت فى السؤال وجدتهم يتبادلون نظرات سريعة ذات دلالة ويشيحون عنى بوجوههم فحدست أن فى الأمر شيئًا وخفت أن يكون قد حدث لهما مكروه ، فقال أحدهم ألا يذهبان إلى المدرسة ؟ فأومأت فقال لا بأس إذن . وبلغ بى القلق مبلغه ، فاتجهت إلى المدرسة وطلبت رؤية الطفلين فأحضروهما فقبّلتهما وقلت لهما إننى سوف أعود فى الرابعة لأصحبهما إلى المنزل ، فقال الكبير : ألا ننتظر 'ديك' (Dick) إذن ؟ ولحت الصغيرة ، ولم تكن تجاوزت الثامنة تشد يد الصبى كأنما لتحذره ، وأدركت بسرعة أن فى الأمر سرًا فلم أزد بل قلت بثقة : لقد عاد والدك وسوف يأتى لإحضاركما فى الرابعة ! وانصرفت .

« وسرت إلى المنزل وأنا أُقلّب الأمر على وجوهه ، إذ قد تكون زوجتى التحقت بعمل يشغلها أثناء غيابى ، مما يفسر عدم وجود السيارة فى الصباح ، وقد يكون 'ديك' زميلاً فى العمل تكلفّه زوجتى بإحضار الأطفال ، ولكن متى عادت زوجتى بالأمس ومتى خرجت فلم أشعر بها ؟ لابد أننى أسرفت فى الشراب فنمت نومًا يشبه الإغماء ، والأرجح أن أرى 'ديك' بعد قليل عندما أذهب لإحضار الطفلين ، وربما أوضح لى كل شىء . وعرّجت على أول بار أقابله فتناولت قدحين من البيرة الانجليزية التى طالما اشتقت إليها فى إيران ، وفى الرابعة ذهبت إلى المدرسة فوجدت الجميع قد انصرفوا !

« ولجأت إلى توم هيتون وجاكى - هنا - فهما أصدقائى منذ الصغر ، وجاكى وأنا نشأنا فى حوارى نوتينج هيل جيت Notting Hill Gate وعرفنا شظف العيش قبل أن أثبت موهبتى

فى حرفة النجارة وبراعتى فى تصميم الأثاث - اسألهما عنى يا أستاذ ! وهما اللذان نصحانى بشراء هذا المنزل المجاور لمنزلهما ، والحق أنهما أزالا مخاوفى وتطوع توم بأن يذهب بنفسه معى ليعرف ما حدث ، وأين ذهبت زوجتى . ولكننى لم أكن أقوى على البحث فطلبت منه أن يتولى البحث بنفسه . وعندما عاد كنت قد نمت فلم أشاهده إلا فى الصباح . وكان ما توقعت وما كنت لا أريد تصديقه ، إذ اتخذت زوجتى لها عشيقًا فى غيابى ، وذلك تحت سمع وبصر الجيران ، ونَبَّهَتْ الطفلين ألا ينبسا ببنت شفة ، وكان 'العم' ديك هو الذى يأتى بسيارتى عصرًا لإحضارهما ، ويبدو أن زوجتى أشاعت أننى لن أعود أو أننا سوف ننفصل فتقبل الناس صداقتها 'للعم' ديك !

« ومن ثم ذهبت إلى منزل أسرتها وقابلت والديها وقصصت عليهما ما سمعت ، فقالت أمها (حماتى) ببساطة : 'تقرل جيرتا [الاسم المختصر لزوجته جيرترود] إنكما اتفقتما على الطلاق وعهدت إلىّ برعاية الأطفال ، و'ديك' هو الذى يحضرهما من المدرسة كل يوم . وأنا أرى أن التقاضى باهظ التكاليف ، والاتفاق على الطلاق سوف يوفر النقود ؟ لم أصدق ما أسمع فأنكرت كل ذلك ، وقلت لها إن ابنتها خاطئة ، وإن 'ديك' عشيقها ، فأشار والدها لى بيده قائلا : 'حذار من رمى الاتهامات بغير دليل ! هل تعلمت الهمجية فى إيران ؟' وفقدت أعصابى وقلت إنها جعلتنى أضحوكة بين الجيران ، وحتى لو اتفقنا على الطلاق فأنا أريد النقود التى أرسلتها إليها من إيران ! وخرجت .

« وفى اليوم التالى صحوت متأخرًا وخرجت أسير على قدمى رغم المطر المنهمر وقد اعتزمت العثور على جيرتا بأى طريقة ، ولم أكد أصل إلى ناصية الشارع حتى رأيت سيارتى واقفة ، ودبت الحياة فى عروقى فأسرعت إليها وإذا بزوجتى فيها مع شخص حدست أنه 'ديك' ، وإن لم أتبين ملامحه بسبب البعد والمطر ، فبدأت أعدو نحوها ، وإذا بزوجتى تدير المحرك وتندفع إلى الأمام فعدوت حتى كدت أدركها لكننى لم أستطع فالتقطت حجرًا وضربت الزجاج به فكسرته ! وكانت القضية التى قرأت عنها فى الصحف وسببت لى هذه المتاعب » .

ونظرت إلى توم أستوضحه ، فأنا لم أقرأ عن أى قضايا تخص فورسايت ، فأسرع توم يقول « إنها فى صحف اليوم . تفضل » . كان الخبر يقول 'القاضى يحكم على الزوج الهمجى بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ' ، ويتضمن الخبر التفاصيل كلها ، تمامًا كما رواها

الزوج ، ويقول إن القاضي استنكر السلوك الهمجي من الزوج الغيور العائد من إيران ، وقد أصدر هذا الحكم عليه حتى يجعل منه عبرة لمن يعتبر !

وقالت جاكى « شيطانة محظوظة ! وجدت فى يدها أموالاً لا تعرف ماذا تفعل بها فقررت أن تلهو وتلعب ! » وقال ابن توم (وكان اسمه 'كامل' وكان يكتبه – ويا للعجب – بالانجليزية هكذا Camel !) « لو كنت مكانها لفعلت نفسى الشىء! » وكان وجه فورسايت يزداد امتقاعًا، وأحسست أنه على وشك البكاء ، فقلت له « تستطيع أن تتزوج خيرًا منها ، ولا أظن أن 'ديك' سوف يتزوجها ، فإذا كنت ما تزال تحبها فلا تقل إن الوقت قد فات ! » ونظر إلىّ فى دهشة وقال « أنا لست حزينًا على فراق اللعينة بل على فراق الأطفال ، وفراق النقود طبعًا » . وكان الوقت قد تأخر فانفض الحفل وعدت إلى المنزل بمادة 'قصصية' جديدة !

لم يقل لى 'توم' إنه أقنع فورسايت بأن يلحق به فى بلانتاير ، فهناك ألف فرصة للعمل ، وكان توم قد اكتسب من نشأته فى اليمن الميل إلى بذل المساعدة لمن يحتاجها ومد يد العون دون توقع للجزاء أو للثواب ، وكان دائمًا ما يقول إن فى أعماقه دمًا عربيًا يدفعه إلى الترحال، وقد تابعت أنباءه بعد عودتى من مصر فكان المثال الفريد للتطبع الذى يغلب الطبع ، هذا إذا اعتبرنا صفات العزلة والحرص من الطباع 'الغريزية' لدى الانجليز . ولم يتردد فورسايت فى الموافقة ، ولم يكتب لى أن أرى أيا منهما إلا بعد عام كامل !



كانت كتابة التمثيلية التليفزيونية أيسر كثيرًا من كتابة القصة ، فأنت تضع تخطيطًا مبدئيًا يشبه السيناريو ، وتتصور ما يمكن أن يدور من أحداث بعين خيالك ، وبعد أن ترسم المشهد بخطوط عريضة (outline) تكتب الحوار فقط ، وهو محدود إذا قيس بالحوار المسرحى أو الإذاعى ، وأذكر أننى كنت أملأ ١٨ صفحة فولسكاب بالحوار للتمثيلية الإذاعية التى لا تزيد عن نصف ساعة ، والآن لم أكتب سوى ٢٥ صفحة لهذه التمثيلية التليفزيونية ومدتها ساعة كاملة . كان الفرق هو أننى فى الإذاعة أخاطب الأذن أساسًا ولابد أن يكون الصوت البشرى متصلاً فى الأسماع فهو الأساس ، وما المؤثرات السمعية الأخرى من

موسيقى وغير ذلك إلا عوامل مساعدة وثانوية ، لا يكاد يحسب لها حساب ، أما فى التليفزيون فنحن نخاطب العين ، وقد يكون دور المخرج فى تحريك الأشخاص وتكوين المشاهد وتكوينها أهم من دور كاتب الألفاظ ، والزمن المتوقع للمشاهدة ، حتى دون حوار ، قد يطول فيمعن فى الطول ، والمسرح وسط بين الإذاعة والتليفزيون ، فالمسرحية التى تستغرق من ساعتين إلى ثلاث ساعات فى التقديم على المسرح تتطلب صفحات تتراوح بين ٦٠ و ٩٠ صفحة ، بما فى ذلك الإرشادات المسرحية .

وكان يوم وصول الموافقة من الوكيل يوم عيد لى ، وسرعان ما وصل العقد فوقعته وأعدته بالبريد ، وكان علىّ أن أسجل نفسى فى نقابة المؤلفين (Writers' Union) لأن اشتراكى فى نقابة الصحفيين (NUJ) لم يكن يؤهلنى للكتابة فى التليفزيون ، ولم يكن معى من النقود ما يكفى فطلبت التأجيل وجاءت الموافقة ، ومن ثم بدأت أفكر فى موضوع جديد لتمثيلية جديدة ، واشتط بى الخيال - ترى هل أستطيع يومًا ما أن أكتب للمسرح الانجليزى ؟ لن أكون أول أجنبى يدخل الساحة ، ولن أكون الأخير ، وأفقت من أحلامى ذات يوم على خطاب من إدارة الجامعة تسألنى فيه متى أنتهى من الدكتوراه ، لأن الحد الأقصى للتسجيل هو خمس سنوات، وسوف يكون علىّ إذا أردت زيادة المدة أن أدفع المصاريف الدراسية بنفسى .

أفقت - كما قلت - لأن الكتابة فى الغربة معناها الحياة فى الغربة ، وأنا رجل جذوره فى مصر ، وثقافة اللغة العربية تجرى فى جسده مجرى الدم ، ونهاد وأنا لا نتصور لنا حياةً خارج مصر ، وعندما وصلنى فى إبريل خطاب نهاد الذى تقول فيه إنها ستصل هى وسارة فى أوائل مايو (يوم ٤ تحديدًا) تأكد لى أن تلك الأحلام لابد أن تنقشع ، وربما احتجت إلى العودة إلى العمل ، وهو ما فعلته اعتبارًا من أول مايو ، حتى لا نعيش فى ظل الإفلاس .

وقضيت شهر إبريل ممزق النفس بين الكتابة الإبداعية ومحاولة 'تشطيب' الرسالة ، وعدت إلى العمل فى مايو ، وعندما وصلت نهاد وسارة ، ورأيت ابنتى بعد فراق دام ثمانية أشهر ، وكانت نهاد تحملها تهلل قلبى وعاد الدفء إلى نفسى ، وفى المطار دُهشت سارة لبرودة الجو والنسيم الذى كان يهب عليلاً حينًا وعاتيًا حينًا آخر ، وقالت بالعربية 'الهوا' ! وقلت لنهاد إنها تتكلم العربية ! وأكدت لى أنها تعرف أكثر من هذه الكلمة !

وكانت جلسة التصافى بيننا طويلة ، فلقد مرت نهاد بأوقات عصيبة وهى ترعى ابنتنا وحدها ، وكانت رحلتها ولا شك تضحية من جانبها فى سبيلى أو فى سبيل الأسرة ، أقصد أسرتنا الصغيرة ، وكنت أعرف أننى أخطات حينما وافقت على رحيلهما ، ولكننى كنت ألتمس الأعذار لنفسى - وهى أعذار تتعلق بتكوينى نفسه لا بأفعال محددة ، فأنا لا أستطيع أن أكتم كل طاقاتى الفنية وأسخر كل جهودى للانتهاء من الرسالة مثلما يفعل طالب البعثة الملتزم، ولا أستطيع أن أمتنع عن المسرح ، أو عن قراءة الصحف ومشاهدة التليفزيون والاستماع إلى الراديو ، وإلى الموسيقى ، أو عن الاختلاط بالناس والإحساس بحياتهم ونبضها ، وبلغة الناس إلى جانب لغة الكتب ، ولا أستطيع أن أمتنع عن العمل طويلاً فالتدريس والترجمة يمثلان روافد لحياتى ، وكل هذا ينطبق تمامًا على نهاد ، وقد عشنا أيامًا صعبة ، وآن لنا أن نودعها أن نتطلع إلى المستقبل فى مصر . وتمنيت من أعماقى أن تغفر لى نهاد تلك 'الموافقة' على الرحيل !



اتفقنا أنا ونهاد على أن نجعل الشهور الباقية من عام ١٩٧٤ - ريثما يتم بناء العمارة التى استأجرت لنا فيها شقة جميلة ، بفضل والدها رحمه الله ، وكان معهما أخى مصطفى ، فى مدينة المهندسين بجوار نادى الصيد المصرى - شهور استعداد للعودة ، فاشترينا كل ما تصورنا أننا سنحتاج إليه ، فى حدود طاقتنا المالية ، وكنا نتنزه حين يصفو الجو فى الحديقة الرئيسية المجاورة لنهر التيمز (على مسافة بعيدة بعض الشىء من منزلنا) وكانت سارة وهى تخطو فى عامها الثالث تتحدث الانجليزية لغةً أولى ، والكلمات العربية المفردة متناثرة فى تضاعيفها . وكنت قد اكتسبت هواية جديدة فى ذلك الصيف هى صناعة الأشياء الخشبية ، فلم أتردد فى العمل نجارًا فى الحديقة بعض الوقت ، وعندما علمت صديقات نهاد بنبأ عودتها صبحن يزرنها ، وكثيرًا ما كنت أعود من العمل مساءً لأجد مجلس السمر منعقدًا ، وأعتقد أن اختلافنا عنهن كان يجذبهن إلينا ، ولا أقول الكرم الذى هو سمة كل العرب وكل المصريين.

وقصت الصديقات على نهاد ما دار فى 'الحياة' أثناء سفرها ، وما أن انقضى الصيف حتى عادت نهاد إلى العمل فى المكتبة معهن ، وأصبحت تأخذ سارة إلى روضة الأطفال فى الصباح ، ثم أحضرها أنا إلى المنزل عصراً ، وقد أتولى إطعامها ورعايتها حتى تعود نهاد ، وأعتقد أن سارة استفادت فائدة جُلّى من تلك الروضة ، وفى الأيام التى كنا نعمل فيها معاً (أى فى أيام ورديتى النهارية) كنا نخرج معاً ونعود معاً .

وكانت خطاباتنا المتبادلة مع أفراد الأسرة فى مصر - مع ما عادت به نهاد من أخبار مفصلة - تبعث على الاطمئنان ، ولكننى كنت ما أزال أحمل سرىّ الخاص ، وهو العقد الذى وقعته مع الوكيل ، ونص تمثيليتى (Invasion أى الغزو) وذلك الحلم الجامح الذى يغرينى بمواصلة الكتابة الإبداعية بالانجليزية ، وعندما عرف بذلك السر سمير سرحان (الذى كان قد رحل مع أسرته فى إعارة إلى المملكة العربية السعوية) كتب لى خطاباً مطولا يقول لى فيه 'هل تريد أن تترجم أعمالك فيما بعد إلى العربية أو أن تصبح كاتباً مستوردا ؟' وفهمت من خطابه أنه يريدنى أن أعودبأسرع ما أستطيع ، وقص علىّ قصة إعارته ، وكيف أصيب رشاد رشدى بصدمة آنذاك (أى قبل ثلاث سنوات) حين لم يقبل طلبه لأنه كان قد عقد الأمل على الرحيل بعد أن بلغ سن التقاعد (وكانت ألفاظ سمير سرحان هى he was banking on it) ثم تغيرت الأحوال وأصبح رشاد رشدى أستاذاً متفرغاً ثم عميداً لمعهد الفنون المسرحية ثم رئيساً لأكاديمية الفنون ، وكانت أنباء ذلك كله تعنى الكثير لى ، كما كان رشاد رشدى رئيساً لتحرير مجلة جديدة هى 'الجديد' ، وكنت من أوائل من كتبوا فيها عام ١٩٧٢ ، والآن تفرق الأصحاب فى ثلاث قارات ، ولابد أن رشاد رشدى كان يشعر بالوحشة لذلك ، خصوصاً وأن 'ابنه' الرابع فاروق عبد الوهاب رحل إلى أمريكا قبل عدة أعوام .

واكتملت الرسالة وأصبحت أشعر أن الأيام المقبلة ستكون عصيبة، فربما أقرر البقاء - رغم كل شىء - والالتزام بالعقد الذى وقعته ومدة سريانه ثلاث سنوات ، وربما أقرر الالتحاق بعمل آخر - وكثيراً ما كنت أقرأ الإعلانات عن الوظائف الخالية لأساتذة العربية (اللغة والأدب والثقافة) فى الجامعات البريطانية ، وقد حصل عبد اللطيف الجمال على إحدى هذه الوظائف فيما بعد ، وإن كان الراتب أقل كثيراً من الدخل الذى تدره الترجمة ، فالتدريس

مهنة منكوبة فى بريطانيا ، ولا يقدم عليها إلاّ المثاليون ، ممن يؤمنون حقا برسالة العلم والتعليم.

وعندما عادت نهاد وسارة عادت لنا الحياة الاجتماعية فبدأنا نتبادل الزيارات مع الأستاذ المشرف وزوجته شارلوت ، ثم أصبح منزلنا بسبب موقعه المتوسط بين العمل والمدينة ملتقىً للمعارف والأصدقاء ، وكان معظمهم يسخرون منا حين نقول إننا سوف نرجع إلى مصر ، فهم يعتبروننا من المقيمين الذين أصبحت لهم جذورهم فى هذه التربة الجديدة ، وإن كانت قضية الجذور تشغلنى أكثر من غيرها .

نظرت فيما كتبت ، فوجدت أننى أعالج موضوعات تتعلق بحياة انجلترا ، وأننى مهما يكن موقفى أخاطب القارئ (أو السامع أو المشاهد) الأجنبى . كان قلبى مطمئنًا إلى الملامح الفنية لكتاباتى ، ولكن 'الموضوعات' كانت تشغلنى ! ما دلالة ما أكتب - أو بعبارة شكرى عياد 'وبعدين ؟' لم أكن أشعر بالوحدة بعد عودة نهاد وسارة ولكننى كنت أشعر أننى مقبل على 'وحدة' من نوع آخر حين أعود إلى مصر ، ولا شك أن أولى عناصرها هو اللغة ! سمير سرحان يقول لى فى خطاباته إن المجال مفتوح للكتابة بالعربية « وإن كان عندك أفكار اكتبها بالعربى ! » وكنت أسمع الهاجس فى ذهنى بالانجليزية easier said than done - أى ما أصعب تحقيق ذلك !

وكان الهاجس له ما يبرره ، إذ كنت ذات يوم فى المطار أستقبل أو أودع أحدًا (لا أذكر) حين شاهدت الدكتور شوقى ضيف يودع ابنه الطبيب المقيم فى لندن ، وعندما بدأنا الحديث حدث أننى أترجم عن الانجليزية ، فالخواطر ترد إلى ذهنى بالانجليزية وأكاد أنخرط فى حديث يشبه الترجمة الفورية ، بل كنت أتعثر بحثا عن كلمة أو تعبير ، وتصبب العرق من جبينى ، وعندما تركت أسرة الدكتور شوقى ونزلت الدرج حيانى شخص تعرّف علىَّ ، وكانت التحية العربية جديدة ولم أعرف معناها ، إذ كان ذلك الشخص من المشرفين على فريق رياضى مصرى عائد بعد الانتهاء من بعض المباريات ، وكانت التحايا القديمة هى 'أهلا يا كابتن' أو 'يا باشمهندس' ، ولكن التحية الجديدة كانت يا باشا - وهى الكلمة التى كان

الظرفاء يستخدمونها فى ' معاكسة' الحسناوات ! وقلت بسرعة « أهلا وسهلا » لكنه عندما انخرط فى الحديث معى كان الواضح أننى أتلعثم وأتردد !

إذا كنت سأكتب عن حياة الانجليز وأوجه حديثى إلى الانجليز ، فسوف أكون قد أهدرت العمر حقا ! هل اختفت العربية التى تعلمتها فى مدرسة المحافظة على القرآن الكريم (مدرسة الحكيمة فى رشيد) والتى كتبت بها النقد والمسرح وترجمت إليها مسرحيات شيكسبير وتشيخوف ويونسكو ؟ كنت واثقًا أنها كامنة بصورة ما فى أعماق النفس أو فى طوايا العقل، وإن يكن استدعاؤها عسيرًا بالغ العسر ، لأن ردود الأفعال اليومية التى غالبًا ما تتخذ صورًا لفظية – شأنها فى ذلك شأن المشاعر والأحاسيس والأفكار – تتشكل بلغة الحديث والفكر والعمل فى الحياة اليومية ، وهى الانجليزية ! كانت معظم الأفكار التى أتتنى من الكتب أو من أفواه الناس تتخذ صورة اللغة الانجليزية ، وكنت أحمد الله آنذاك على أنى غير مضطر لترجمتها إلى العربية، ولكن ذلك محتوم حين أعود إلى مصر ، فكيف تتحول آلة التفكير كلها من لغة إلى لغة، وشغلنى الموضوع إلى الحد الذى دفعنى إلى مناقشته مع مستر ويلكينز أستاذ علم اللغة، الذى أجرى بحوثه كلها أو معظمها فى ثنائية اللغة ، أو فى التحول من لغة إلى لغة فى سياق التفكير والحديث (bilingualism & code switching) وكانت بعض مادته مستقاة من طفليه اللذين يتحدثان الانجليزية والفرنسية بطلاقة لأن أمهما فرنسية . قال ويلكينز :

« نحن نفرق فى علم اللغة بين فئة المفردات الأساسية التى يكتسبها الطفل من والدته أو من يحل محلها (surrogate mother) وبين فئة المفردات الثانوية التى يكتسبها من التعليم سواء كان ذلك هو التعليم الرسمى أم غيره ، فالمفردات الأساسية هى التى نعتبرها اللغة الأم وهى تشكل المادة الخام لاستجابة الطفل وتفاعله مع العالم الخارجى ، وتتحكم فى أساليب انفعاله ، أى أنها جزء لا يتجزأ من عملية نموه النفسى ، وعلماء النفس يعلقون عليها أهمية كبرى . فإذا نازعتها لغة أخرى فى تلك السن المبكرة – وهذا هو ما حدث فى حالة طفلىّ الصغيرين – تأخر النضج اللغوى للطفل ، مثلما يتأخر النطق عند الأطفال الذين يعانون من تنازع نصفى المخ على السيادة . ولكن النضج يأتى ولا شك – ويكون فى هذه الحالة ثنائى اللغة ، بمعنى أن الطفل يكون قادرًا على التحول من إحدى اللغتين إلى الأخرى بسرعة

وبتلقائية – أى دون تفكير ودون تردد ، وإن كان العامل الذى يحدد اللغة المستخدمة لا يتوقف على السياق وحده ، بل تشترك معه عوامل أخرى كثيرة بدأ اللغويون فى دراستها مستعينين بعلم الاجتماع وعلم النفس .

« وأما الفئة الثانية فهى فئة مفردات الخبرات اللاحقة على المفردات الأساسية ، وهى كما قلت مفردات التعليم ، فهى أكثر دقة وتفصيلاً ، وأكثر رهافة ولطافة ، وعادة ما تتغلب فيها إحدى اللغتين على الأخرى ، حتى لو كان الذهن يستخدم اللغتين معًا فى التفكير ! فابنتى الكبرى لا تكتب إلاّ الانجليزية رغم إلمامها الكامل بالفرنسية قراءة وكتابة وحديثًا ، وحين تُضطر إلى كتابة الفرنسية فإنها كثيرًا ما تترجم عن الانجليزية وتزعج والدتها بأسئلتها الكثيرة . وهى ذات موهبة لغوية لا شك فيها ، وأعتقد أنها لو تعمقت فى دراسة الفرنسية فسوف تستطيع أن تكتب كتابة إبداعية يومًا ما بلغة والدتها .. إنها فتاة رائعة .. » .

وتركت ويلكنز يتحدث بإعجاب وحب عن ابنته ثم قاطعته لأشرح له حالتى فقال « أنت خير من يحكم على نفاذ الانجليزية إلى مفرداتك الأساسية ، وقد تستعين فى ذلك بابنتك ، فهى لا شك تعرف العربية أو ستعرفها عما قريب ، وربما أصبحت العربية مزاحمة لمفرداتها الأساسية بالانجليزية ، ولكنك لن تتعرض أبدًا لمثل هذا التنازع ، لأنك لم تتعلم الانجليزية إلا بعد أن تشربت العربية – وكان ذلك كما تقول فى الثامنة ... » .

ولكن ويلكينز لم يكن درس التنازع على مستوى اللغة الناضجة ، فهو مرتبط بطفليه ، والموضوع فى حالتى يتخطى مرحلة الطفولة . فإذا كانت اللغة الانجليزية هى السائدة اليوم ، فلابد أن تسود العربية غدًا ، ووجدتنى دون أن أدرى أتأمل عملى بالترجمة وتأثيره فى تكوين إحساسى باللغة الانجليزية ، والفارق بين ما كتبته فى الرسالة وما أكتبه الآن فى القصص والتمثيليات ، وطابع الحوار بينى وبين الانجليز من جهة ، وبينى وبين نهاد من جهة أخرى ، وانتهيت إلى أننا – أنا ونهاد – قد أخذنا كفايتنا من الانجليزية ، وأن الوقت قد حان للعودة النهائية !

كانت سارة قد بلغت الثالثة ، وكان الانجليز يعتبرونها 'عجبة' (oddity) فهى تلتقط من حوارى أنا ونهاد كلمات المثقفين وتستخدمها فى غضون لغة الأطفال فى الحضانة ، وكانت زميلات نهاد فى العمل يعجبن لها ويدهشن منها ، وكانت إحداهن تقيم بجوارنا واسمها

صوفى دينر – وكانت نمسوية وتتكلم الألمانية – شقراء وسمينة – ولم تكن تكف عن التعليق على لغة سارة العجيبة ! وأذكر أن محادثات فض الاشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية كانت قد بدأت آنذاك ، وكان كيسنجر يواصل رحلاته المكوكية بين الطرفين ملوحاً بأمل السلام النهائى ، وما لبثت القوات الإسرائيلية أن انسحبت من المنطقة التى كانت تحتلها غربىّ القناة ، وبدأ الحديث الجاد عن السلام ، وأعلن السادات أن الانسحاب سوف يعيد حقول البترول لمصر ، ويسمح بإعادة فتح قناة السويس .

٤

كان عبد اللطيف الجمال قد قرر حين حصل على الاجازة المرضية أن ينتهى من كتابة الدكتوراه فى غضون الشهور الثلاثة . لكنه كان مثال "الصرمحة" بين الكتب ، وهو ما كان شكرى عياد يحذرنى أنا منه ، فانقضى صيف ١٩٧٤ دون أن يكتب سوى فصل واحد ، وكان يتعمد التعمق فى الفكر الفلسفى الألمانى بحجة الغوص فى تأثير الألمان فى كولريدج وكيف صوّر ريتشاردز ذلك فى كتابه عنه ، وكان المشرف على رسالته هو الأستاذ نورمان جيفارز Norman Jeffares المتخصص فى ييتس ، وكان على إعجابه بعمق أفكار عبد اللطيف يريد له أن ينتهى حتى يكتب شيئًا عن ييتس . ولكن عبد اللطيف كان قد استنفد ما يزيد كثيراً عن الحد الزمنى المسموح به للتسجيل للدكتوراه فألغت الجامعة تسجيله ، وأرسلت له تقول إنه إذا أراد إعادة التسجيل فسوف تنظر الجامعة بعين العطف فى الطلب الذى عليه أن يتقدم به ، مما جعل عبد اللطيف يزهد فى العمل وفى الدراسة جميعًا ، وعندما أعلنت منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة ومقرها باريس عن مسابقة امتحان للتعيين فى وظيفة مترجمين تقدم وحصل على الدرجات النهائية فى ورقتى اللغة الانجليزية ، لكنه تجاهل ورقة اللغة الفرنسية، فلم يوفق ، ونجح عبد الرشيد الصادق المحمودى وترك لندن إلى باريس .

ولم أكن أزور لندن إلا لمتابعة أخبار الأصدقاء ، إذ كنت حريصًا على معرفة من غادرها إلى مصر ومن بقى فيها ، وازداد اهتمامى فى شتاء ٧٥/٧٤ بأنباء مصر ، إذ كان أخى

حسن قد التحق بعمله فى وزارة الخارجية وكان آنذاك سكرتيراً ثالثًا فى مونروفيا (عاصمة ليبيريا) وهو الآن سفير مصر فى أذربيجان ، وكان أخى مصطفى قد انتقل من الهيئة العامة للسد العالى (بعد انتهاء السد وتوزيع العاملين فيها على المصالح الأخرى) إلى الهيئة العامة للتأمينات الاجتماعية ، لكن طموحه جعله يلتحق بالجامعة الأمريكية للحصول على الماجستير فى إدارة الأعمال ، وحصل فيما بعد على الدكتوراه وهو الآن أستاذ فى إحدى الجامعات الخاصة ، ولم يكن قد تزوج بعد ، بخلاف حسن الذى تزوج وأنجب أميرة وعزة - وهما من التوائم غير المتطابقة ! وكان والدى قد شفى من الأزمة القلبية التى كانت أصابته بالفالج ، وهو بعد فى أواخر الخمسينيات من عمره ، وكان ماهر البطوطى قد عاد إلى مصر من إسبانيا ، ومر علىّ فى انجلترا وقضينا معًا وقتًا جميلاً ، وزارنا فى منزلنا فى ردنج .

لا أذكر الكثير - وهذا من العجب العجاب - عن مطلع عام ١٩٧٥ ، فالمفكرة تقول فى كل صفحة 'عام العودة إن شاء الله' وتحكى عن المستقبل لا عن الحاضر أو الماضى ، وكانت نهاد كشأنها حاسمة فى موضوع العودة ، لا تطيق التردد فيه ، وكان اهتمامنا منصبًا آنذاك على الضائقة المالية التى نعانى منها ، فلدينا طفلة ، والأجر الذى سأتقاضاه إن شاء الله فى الجامعة محدود ، إذ كان راتب المدرس الشهرى ما يزال أربعين جنيها ، زيد فيما بعد إلى ستين، وأذكر أننى عندما قدمت استقالتى سألنى رئيس مكتب الأخبار عن الراتب الذى سوف أحصل عليه فى مصر ، فقلت : ستون جنيها ، ولم يدعنى أكمل العبارة فقال وهل تكفى ستون جنيها فى الأسبوع ؟ وتظاهرت بالانشغال بأشياء أخرى حتى لا أصحح له العبارة !

كان حفل التخرج يعقد أربع مرات فى العام ، وكان المشرف يرى أن أقدم الرسالة فى الشتاء حتى أحضر الحفل الخاص بفصل الربيع ، فسنوات التسجيل الخمس قد انقضت ، والرسالة اكتملت ، ولم يكن يرى مبرراً للتباطؤ والتلكؤ ، وكان يلمح لى من وقت لآخر بأن وظائف التدريس متاحة فى قسم اللغة الانجليزية ، وأشار ذات يوم إلى إعجاب مستر ويلكينز بدراستى الأسلوبية وإلى أننا تربطنا صداقة متينة ، فإذا ازدهرت الدراسات اللغوية والأسلوبية فلماذا لا أكون فى طليعة أنصارها ؟ وكنت أستمع إلى هذه التلميحات فلا أرد الرد الشافى ، لا بسبب ترددى بل لأننى لا أريد إغلاق 'أبواب المستقبل' إغلاقًا تامًا ، فالمستقبل مجهول (تعريفًا) ولا يدرى أحد ما تأتى به الأيام .

توفيت أم كلثوم فى مطلع فبراير (وأذكر أن الصحف المصرية تسرعت بإعلان الوفاة قبل حدوثها يوم ٢ فبراير) وقرأت نعيها فى صحيفة التايمز يوم الثلاثاء ٤ فبراير وأنا فى لندن - لا أدرى ماذا كنت أفعل - لكننى أذكر أننى كنت فى محطة القطار حين قرأت الخبر المفصل ، فكأنما كان إيذانًا بانتهاء عصر كامل ، ولم تنقض أيام حتى فوجئ الجميع بانتخاب السيدة مارجريت ثاتشر رئيسةً لحزب المحافظين ، وكانت أول رئيسة للحزب منذ إنشائه ، والغريب أنها عصامية إذ كانت تنحدر من أسرة فقيرة (أبوها كان بقالاً) وسلكت طريق الدراسة الجامعية حتى أصبحت مُدرّسة للكيمياء ، ثم دفعها طموحها إلى الحصول على ليسانس الحقوق ، والاشتغال بالسياسة ، فتولت منصب وزيرة التعليم فى وزارة المحافظين الأخيرة التى خسرت الانتخابات نتيجة الصدام مع إضراب عمال الفحم فى مارس ١٩٧٤ ، وعودة حزب العمال بقيادة هارولد ويلسون من جديد إلى الحكم رسميا يوم ١١ أكتوبر فى العام نفسه .

وشغل الناس بهذه السيدة فزعامتها لحزب المحافظين تعنى احتمال توليها رئاسة الوزارة إذا نجح الحزب فى الانتخابات فى جولة مقبلة ، وهذا هو ما لم يكن 'المحافظون' الحقيقيون من الانجليز يسيغونه ، فبدأنا نسمع لأول مرة عن الحركة النسوية الجديدة ، وهى التى كانت مقصورة حتى ذلك العهد على الأدب ، وبدأ الحديث الذى ملأ الدنيا هذه الأيام عن 'طبيعة' الرجل والمرأة ، وطلب منى مكتب الأخبار الحضور للاطلاع على بعض الصحف العربية لمعرفة ردود الفعل العربية ولكننى قضيت اليوم كله فاحصًا دون أن أجد تعليقًا مهمًا فى أى منها .

وفى يوم الثلاثاء ٢٥ مارس كنت فى المنزل ، وكنت قد انتهيت لتوى من محادثة تليفونية مع أحد الأصدقاء العرب الذى كان يهنئنى بعيد المولد النبوى (١٢ ربيع الأول) وأثناء صعودى إلى غرفة المكتب رن التليفون من جديد ، وإذا بمكتب الأخبار يقول إنهم أرسلوا السيارة لأن وكالة أنباء الشرق الأوسط 'أَخْلَتْ كل خطوطها' استعدادًا لنبأ مهم ، ولا يريدون أن يسبقهم أحد إليه ، فارتديت معطف المطر والقبعة الكندية وخرجت لأجد السيارة ، وفى لحظات كنت استمع إلى إذاعة الرياض ، إذ قيل إن الملك فيصل قد قتل . وسرعان ما جاءت الأنباء المؤكدة من المصدر الأصلى عن اغتياله برصاص أحد أفراد الأسرة أثناء الاحتفال بالمولد النبوى . وبعد قليل قال الراديو إن الأمراء « اتجهوا إلى منزل الأمير خالد وبايعوه

ملكًا » وسرعان ما طيّرت الخبر فى عبارة واحدة حتى لا تسبقنا وكالات الأنباء الأخرى ، وكان يقول Khalid is new Saudi King ثم جلست أترجم النبأ لأتعثر فى كلمة 'بايعوه' !

ووقفت فى ضيق واضح لأنظر فى المعاجم ، فأسرع إلىّ المشرف وكان رجلا مهذبًا من ليسوتو اسمه هاتون Hutton ليسأل عن المشكلة ، فقلت له 'كلمة' ! فقرأ الخبر الناقص فى الورقة التى كانت ما تزال فى الآلة الكاتبة وسألنى كأنما ليكمل العبارة لى they proclaimed him king ? وقلت له نعم ! وسرعان ما اختطف الورقة وأرسلها إلى عاملة التليكس كى تطيّر النبأ ، لكننى عدت إلى الكلمة لأتساءل عن معنى البيعة . وفى لحظة خلتها دهرًا تزاحمت فى ذهنى معانى البيعة والمبايعة فى تاريخنا العربى ، فذكرت 'بيعة العقبة' ، وغيرها من الأحداث التى تجعل الكلمة زاخرة بمعان لا تخرج فى كلمة واحدة ، فهى تتضمن الانتخاب وإعلان الولاء معًا ، إلى جانب ما يوحى ذلك كله به من وفاء وإخلاص وثقة ، وأين ذلك من الكلمة المفردة التى تناقلتها وكالات الأنباء نقلاً عنى فى ظهيرة ذلك اليوم من أيام الربيع ؟ واضطررت إلى إصدار نشرة أخرى أضفت فيها تلك المعانى – ثم ذهبت إلى الكافتيريا لإحضار كوب من الشاى بعد أن أوصيت والد جون بولارد أن يأتينى بالترجمات الانجليزية التى تبثها وكالات الأنباء العربية (أى العاملة فى البلدان العربية) حتى أقارن وأوازن وأحكم ، ولكن الجميع كان يردد الكلمة 'المؤقتة' التى اقترحها هاتون دون الاطلاع على الكلمة العربية!

وانثنيت أفكر فى مدى الاختلافات فى التفكير (النابعة من اختلاف الثقافة) التى تتحكم فى اختلاف صورتنا فى العالم الخارجى ، واختلاف صورة العالم الخارجى لدينا ، وذكرت عبارة أخرى كانت قد وردت فى تعليق إذاعة صوت العرب عقب اجتماع نيكسون مع بريجنيف قبل ثلاثة أعوام ، وكان الذى كتبه عبد الفتاح العدوى ، صديقى القديم (رحمه الله) وهى إن الانفراج الدولى « يأخذ بخناقنا » ! كنت ترجمتها آنذاك بتعبير is at our throat ولكن أحد زملائى المحررين اقترح أن يجعل لها رنينًا جذابًا وهو throttle وهو فعل يعنى الخنق، ولا يوحى بالتنازع الذى يمسك فيه الرجل 'بخناق' غريمه ، ومنها 'الخناقة' بالعامية والفعل 'يتخانق' المصرى ! وعندما اعترضت قال لى : هذه مسئوليتى ، ولحسن الحظ أن الخبر لم يكتب له أن يُنشر ، وإن كان مكتب الأخبار كله يعتقد أن المعنى هو أن الانفراج الدولى فى رأى كاتب التعليق 'خانق' (suffocating) !

وقلت فى نفسى إن هى إلا أيام وأعود إلى مصر ، تُرى هل تصبح دقة الترجمة عاملاً يساهم فى تصحيح صورتنا ؟ إن لغة الأخبار يسيرة موطأة الأكناف ، فقوالبها ثابتة محفوظة، أما لغة الأدب فما أشقها وأعسرها ، وما بالك بلغة الثقافة العربية ذات الجذور العميقة فى التاريخ والمعتقدات ! لا شك أن تلك رسالة لا تقل قيمتها عن الكتابة والنقد ، والصحوة العربية تقتضى صحوة لغوية لا تقتصر على أجهزة الإعلام بل تشمل كل ما نترجمه من آدابهم وما يترجمونه من آدابنا - بل وما ينبغى أن نترجمه نحن من آدابنا !

لا ، لم يعد الهدف من العودة تدريس الأدب الانجليزى للصغار ، بل القيام بما هو أهم وأفعل وأجدى وأقيم !



قدمت الرسالة فى إبريل ، بعد انتهاء موعد فصل الربيع ، وحددت الجامعة لجنة الممتحنين وكانت تضم البروفسور روجر شاروك والبروفسور ماثيوز (صديقى المتخصص فى شلى) ولم يعد أمامى سوى انتظار تحديد موعد المناقشة ، وسمعت فى أواخر مارس أن السادات سوف يعيد فتح قناة السويس يوم ٥ يونيو ، وأن مكتب الأخبار يتوقع أن يلقى خطابًا فى هذه المناسبة ، وأرسل يسألنى هل ستكون معنا هنا ؟ ولم أتردد . نعم . فلابد من دخل إضافى يساعدنى على تحمل نفقات السفر وشحن الأثاث والكتب وما إلى ذلك .

كنت أعمل جاهدًا على استكمال مكتبتى حين ساقتنى خطاى إلى مكتبة كبرى فى لندن، وجعلت أتطلع إلى دواوين الشعراء ، وإذا ببعض الكتب المعروضة تباع بتخفيضات تصل إلى ٥٠ ٪ ، فتأملت بعضها فإذا بها - كما يقول الغلاف - ترجمات عن العبرية الحديثة ، أى عن اللغة المستخدمة فى إسرائيل ، وإذا بكتابها مجهولون تدور أعمالهم عن 'مثالية' الحياة فى إسرائيل ، و'الدرس' الذى يتعلمه الإنسان ، أو ينبغى على كل إنسان أن يتعلمه من الحياة 'محاصرًا' بالأعداء ، وكان وصف العرب بأنهم الأعداء مألوفًا ، لكن وصف إسرائيل بأنها 'جزيرة السلم والأمان' فى بحر هائج متلاطم الموج يهدد باكتساح أهلها كان سخيفًا وغير

شاعرى بالمرة ! وتساءلت فى نفسى هل يريد اليهود للعالم أن يصدق أن العرب وحوش يريدون ابتلاعهم ؟ وكان السؤال الأهم : هل رد العرب على ذلك شعرًا أو نثرًا ؟ وإذا كانت تلك الدواوين مترجمة حقًا عن العبرية - وهو ما كنت أشك فيه بل وأستبعده - فهل ترجمنا نحن أدبنا حتى يرى العالم صورتنا الصادقة ؟ وزاد ذلك من إيمانى بأهمية الرسالة التى أصبحت أومن بضرورة النهوض بها عند عودتى إلى مصر .

وعندما خرجت من المكتبة وجدت فى الشارع نفسه Shaftsbury Avenue المسرح الذى يحمل اسم الشارع ويعرض آخر ما كتبه آرثر ميلر ، وهى مسرحية 'حادثة فى ڤيشى' وهى تحكى بصراحة قصة اضطهاد اليهود إبان الحرب العالمية الثانية ، وتثير الشفقة عليهم ، وتستعطف العالم وترجوه أن يمد يد المساعدة إليهم ! هل هذا هو الأدب الهادف ؟ هل كُتب علينا إذن أن نقتصر فى تناولنا للأدب على مواطن الجمال وبراعة الفن المسرحى (أو الشعرى فى الدواوين التى ذكرتها) بغض النظر عن الدلالة ؟ هل كُتب علينا أن نتجاهل تساؤل شكرى عياد 'وبعدين ؟'

وعندما عدت إلى ردنج طالعتنى أنباء الصراع فى لبنان بين الفلسطينيين والميليشيات المسيحية (اليمينية) ولم أكن أعرف حقيقة ما يجرى ، ولم أتمكن من معرفته حتى الآن ، وكنت أحيانًا أعجب لما يجرى وأشفق على المؤرخين الذين يقولون إنهم موضوعيون لا يبتغون إلا الحقيقة وحدها ! فهل الحقيقة تقتصر على أن قتالاً ما يدور فى بيروت ، أم تتعدى ذلك إلى الذين يتقاتلون وما هى دوافعهم والقوى التى تساندهم ؟ وفى بدايات مايو كنت أدرك أن سنوات عشر حافلة قد انقضت ، وأن الطالب المصرى الذى كان يتعمد عزل نفسه عن السياسة قد أصبح رغم أنفه مشغولاً بها ، وأن انشغاله باللغة والأدب قد دفعه دفعًا إلى الانشغال بالحياة العامة ، ولم أعد أقاوم رغبتى فى متابعة أنباء سقوط سايجون فى أيدى الشيوعيين وهزيمة الأمريكيين فى حرب كلفتهم ١٢٥ ألف قتيل ، ومئات الآلاف من الجرحى ، وآلاف الملايين من الدولارات (٣٠ إبريل) بعد سقوط كمبوديا (١٧ إبريل) وذكرت عندها تلك الأمريكية الحسناء التى قابلتها فى بوفيه محطة القطار وكانت كأنما تريد من يسمع قصتها وكيف فقدت زوجها وأخاها فى ڤيتنام فضاقت الدنيا فى عينيها ورحلت إلى أوربا كأنما لتبدأ حياتها من جديد ولكن أشباح من فقدوا كانت تطاردها وانتهى بها الأمر إلى

العمل فى البوفيه - وقد تَخَلَّفْتُ عامداً يومها عن اللحاق بالقطار حتى أسمع قصتها وأتأمل فلسفة 'الرحيل' التى كانت عزاءها الأوحد ، فهى ترى الناس دائمًا وهم يرحلون وتنظر فى وجه كل منهم وهى تتساءل فى أعماقها : هل يعود يوما ما ؟ وقلت فى نفسى إنها تصلح شخصية فى قصة أو مسرحية .

ولم أكن نسيت حبى للكتابة المسرحية ولكننى كنت أتساءل الآن عن قضايا تتخطى فنون الكتابة وتتعلق بالدلالة ، فالأمريكيون الذين سيقوا دون إرادة إلى الحرب فى ڤيتنام كانوا يتصورون أنهم يدافعون عن الحرية . فما الحرية ؟ هل من الحرية إرغام أو محاولة إرغام شعب ما على تغيير نظامه الاجتماعى ؟ وقرأت مقالاً فى صحيفة الجارديان يقول فيه كاتبه إن قول الأمريكيين بأن قوات الڤيتكونج اليسارية التى تقاتلهم لا تزيد نسبتها عن ١٠ ٪ من تعداد السكان يُغفل أن القوات الأمريكية لا تمثل إلا نسبة لا تكاد تذكر من الشعب الأمريكى ، وإن العشرة فى المائة لم تكن لتستطيع النجاح لولا مساندة ٤٠ أو ٥٠ فى المائة من السكان ، مما يعنى أن الغالبية هى التى تحارب ، لا العشرة فى المائة فقط ، بخلاف الحال فى أمريكا حيث لا يساند المقاتلين إلا أقل القليل ، وكلهم من أصحاب المصالح الحاكمة !

وفى مايو أعلن الرئيس الأمريكى جيرالد فورد انتهاء حرب ڤيتنام رسميًا ، ولم يهتم الكثيرون بذلك الإعلان إذ كانت الصحف البريطانية مهمومة بالتضخم الذى وصل إلى ذروته فى أواخر الشهر ، وكانت النسبة مذهلة وهى ٢٥ ٪ وكان ذلك بطبيعة الحال نتيجة استجابة الحكومة العمالية لمطالب نقابات العمال برفع الأجور ، بغض النظر عن زيادة الإنتاجية ، مما أدى إلى 'طبع' المزيد من النقود ، فانخفض سعر صرف الجنيه الاسترلينى من جديد ، وارتفعت الأسعار فى الأسواق ، وبدأت الحملة التى أعادت - فيما بعد - حزب المحافظين إلى الحكم .

وفى يوم ٥ يونيو ذهبت فى الصباح الباكر إلى العمل - وكان يوم خميس - حيث ترجمت خطاب السادات فى إعادة فتح القناة أمام الملاحة العالمية ، ومكثت فى مكتب الأخبار حتى انتهت وقائع الاحتفال وأرسلت الأنباء المفصلة إلى الصحف والإذاعات ، وعدت إلى المنزل لأجد خطابًا يحدد لى موعد مناقشة الدكتوراه فى ٨ يوليو (يوم ثلاثاء) فأخبرت نهاد فقالت آن

الأوان للرحيل ، وذهبنا فى اليوم التالى إلى لندن مع سارة حيث حجزنا تذكرتين لهما يوم ١٩ يوليو (يوم السبت) وأرسلنا الخطابات إلى مصر بموعد عودتهما . وقضينا بقية اليوم فى لندن حتى المساء ، وكان الجو صحواً وفضلنا تناول الغداء فى إحدى الحدائق .

وانهمكت فى العمل على امتداد الشهر الباقى على مناقشة الدكتوراه ، حتى يتوافر لى أكبر قدر ممكن من النقود ، وتخلصت نهاد من بعض الأشياء التى لم تكن تريدها إما بإهدائها إلى الأصدقاء أو بتركها فى المخزن الخاص بالمنزل ، وسرعان ما انقضت الأيام ، وناقشت الرسالة ، وبدأنا فى تدبير ما سنفعله .

كانت سارة فى تلك الأيام سعيدة بالحضانة ، وكانت تحب المشرفة مرجريت (nurse Margaret) حبًا شديداً وتصدق كل ما تقوله ، وذكرت مرجريت لنهاد ذات يوم أنها طلبت من الأطفال أن يلعبوا فى كثيب رملى صغير ، وأخذت مرجريت تحفر فسألتها سارة عما تبحث عنه فقالت لها مرجريت أبحث عن الذهب ! فإذا بسارة تتحمس وتشمر عن ساعد الجد بحثًا عن الذهب ! وكانت مرجريت تحكى لنا عن ميل سارة إلى النظام والتنظيم وعلاقتها مع الأطفال الآخرين ، والصداقات التى عقدتها مع بعضهم (واستمرت حتى بعد عودتنا إلى مصر) وطبعًا عن لغتها 'المثقفة' !

وفى نحو منتصف يوليو كنت أقف فى المطبخ وأحاول إعداد طعام للغداء حين وجدت شخصًا يدخل من الباب المفتوح - كان للمطبخ باب يؤدى إلى الشارع أو إلى الممرات الداخلية فى المنطقة السكنية - ويلقى علىّ السلام بالعربية . كان سمير سرحان ، وكان قد وصل من مصر لتوه ، ولم يكد يحط الرحال فى فندق كومبيرج بشارع بيز ووتر حتى استقل القطار وجاء إلى المكان الذى سبقت له زيارته ! وقال بلهجة يتنازع فيها الجد والهزل : لقد جئت حتى أعود بك إلى مصر ! وعندما عادت نهاد بدأت مناقشاتنا ومسامراتنا التى لم تتوقف حتى ذهبت لتوديع نهاد وسارة فى المطار !

وشغلت بوجود سمير سرحان فى لندن فكنت أذهب إليه ونقضى اليوم معًا وأحيانًا كنا نعود معًا إلى ردنج للمبيت ، وفى الصباح نذهب إلى أوكسفورد ، وكان يلح علىّ فى كل يوم أن أتصل بشركات الشحن حتى تتولى إرسال الأثاث إلى مصر ، ففعلت ذلك ، ودفعت للشركة

خمسمائة جنيه مقابل الإعداد والشحن وما إلى ذلك ، وتحدد موعد الشحن فى أواخر أغسطس . ثم رحل سمير فى أوائل أغسطس ، ولم يقل لى إلا وأنا أودعه فى المطار أن نهاد جاد – زوجته – حامل وأن موعد الولادة فى سبتمبر !

وذهبت إلى لندن لحجز مكان لى فى إحدى رحلات مصر للطيران فوجدتها كاملة العدد حتى منتصف سبتمبر ! وكنت قلقًا لأن الشركة لم ترسل بعد من يأخذ أثاث الشقة ، فقلت أنتظر حتى يأتوا ، وما إن وصلت السيارة الضخمة فى الموعد المحدد وحمل الرجال كل شىء (باستثناء أقل القليل) واطمأن قلبى ، حتى ذهبت فأكّدت الحجز للسفر يوم الأربعاء ١٧ سبتمبر – وكان ذلك فى رمضان ! وقال لى المشرف على المساكن إننى أستطيع إخلاء البيت فى أى وقت أريد اعتبارًا من أول سبتمبر دون أن يطالبنى بدفع الإيجار لأنه سوف يكلف أحد المقاولين بإعداده للمستأجر الجديد فى أول أكتوبر ، وعرض علىّ دهام العطاونة زميلى الفلسطينى أن أقيم عنده ابتداءً من يوم ٨ أو ٩ سبتمبر فقبلت ، وكان اشترى منزلاً فى قرية كافرشام ، وسيارة 'مينى' (أوستن) ، فأعددت ثلاث حقائب وذهبت بها إلى المطار فى صحبة توم هيتون الذى كان قد عاد من بلانتاير ، وشحنتها جوًا إلى مصر ، ثم أخذت ما بقى من حقائب وأشياء إلى منزل دهّام يوم ٨ سبتمبر ، وقضيت فى صحبته أيامًا جميلة حتى حان موعد السفر .

كانت تلك الأيام وما تزال تبدو لى غائمة كأنما تطفو بها سحابة على وجه السماء ، إذ أحيانًا ما كنت أسير ساعة أو ساعتين فى الحقول وفى المروج ، أنهل من الخضرة وصفاء الجو ما لا تشبع عيناى منه أبدًا ، ولا يشغل فكرى شىء ، فلقد انقضت السنوات العشر وكانت حافلة بما لم أحسب له حسابًا يومًا ما ، وكنت قد تجاهلت مفكرتى ولم أعد أسجل فيها شيئًا، بل وتجاهلت الكتابة للأصدقاء والاختلاط بالناس ، فأنا عائد إلى مصر وإلى اللغة العربية، وإلى مراتع الطفولة واليفوعة والسماء الزرقاء ، وكان ذهنى غير قادر على استيعاب معنى الرحيل ، فهو معنى عسير لا يقل عسرًا عن معنى الزمن ، بل كان يبدو فى طابعه القاطع محالاً بعد أن اعتدت تحول الفصول ومعنى العودة ودورة الأيام ، وأعتقد أن غرامى بتعبير دورة الزمن يرجع إلى ذلك الوعى العميق الذى اكتسبته من الحياة فى الطبيعة ومعها .

قد يتوقف القارئ عند تعبير 'طابعه القاطع' - وقد يكون محقًا فى توقفه - لأن الرحيل يعنى الغياب ، والغياب يعنى الفراق الذى هو صنو الفناء ، بل إن بعضنا يستخدم التعبير كناية عن الموت ، ولكن الرحيل الذى كنت بصدده كان لا يزيد فى معناه عن الانتقال من مكان إلى مكان مع عدم نفى إمكان العودة ، بل كان الانتقال نفسه يعنى العودة إلى مكان قديم وزمان قديم ، ولما كانت العودة إلى الزمن القديم محالة ، فقد خُيِّل لى أننا نلقى بمعنى الزمن القديم على المستقبل حتى نكسبه معنىً ، أو نزيل بعض ما يكتنفه من ظلال العماء ، بحيث نشعر بدورة الزمن ، فدورة الحياة من حولى تؤكد ذلك فى الطبيعة التى يتجسد فيها إبداع الخالق المتجدد أبدًا ، والذى ما انفك يتجلى فى دورات متعاقبة يأخذ بعضها برقاب بعض ، وبدورة الروح فى أعماقى ما فتئت تدفع بالصور فى دوائر ، وما برحت تؤكد التقاء المنبع والمصب ، فمن حيث جئنا لابد أن نعود ، وما الرحيل إلا خطوة واحدة من خطوات رحلتنا إلى الوجود المادى ومن الوجود المادى إلى غيره من صور الوجود !

لم أكن أتصور أبدًا أننى لن أرجع إلى ذلك المكان مطلقًا بعد ذلك ، وما أكثر ما رأيتنى فى الأحلام أزوره وأتحدث مع من فيه ، فلقد تحول المكان فى نفسى إلى واحة دائمة الخضرة، أعتادها فى خيالى لأبترد من هجير حياتنا اللاهثة اللافحة ، وتحولت بقعة المكان إلى بقعة زمنية- كما يقول الشاعر - وتحول كل ما فيها إلى إحساس صافٍ قد يخلو من الخطوط ومن الألوان، وقد يرقُّ فيصبح لطيفًا كالنسيم ، لا يحمل أريجًا ولا يرن بأى لحن ، بل يصعد مثل الطاقة المجردة التى نعرف منها معنى الروح .

كنت فى كل عام أسمع فى شهر إبريل موسيقى باخ - وقطعته الشهيرة عذابات السيد المسيح كما رواها القديس متىّ التى أخذ منها عبد الوهاب موسيقى 'إليها' - وكنت فى كل عام أهتز لسماعها وأعد نفسى بأن أحصل على الاسطوانة ، وها أنذا أرحل دون ما أردت ، وكم كنت أنتظر سماع ألحان باخ الشجية ، وخاصة أنغام الأرغن التى تشبه ألحان الطبيعة التى تسبح للخالق جل وعلا ، وكم دارت الأعوام وأنا أرسم لنفسى حياة مع الموسيقى والشعر، وها أنذا أرحل دون شىء ، فى جيبى جنيهات معدودة ، ونهاد تقول لى إنها سافرت فى سبتمبر إلى السعودية للعمل فى جامعة الملك عبد العزيز فى جدة ، فأنا أعود إلى مصر وحدى، وبلا شىء سوى الأحلام ، وما أظن أننى قد تعلمته ، وأظن أنه يكفى لبداية جديدة !

وفى يوم ١٧ سبتمبر صحبنى توم هيتون إلى المطار حيث وزنت الحقيبة فأصر موظف شركة مصر للطيران على أن أضع حقيبة يدى أيضًا ، وكان فيها عدد من كتبى المفضلة ، فاتضح أن الوزن أكثر من المسموح به ، فقال لى لابد أن تدفع ثمانين جنيهًا استرلينيا ، وفى استسلام تام أخرجت النقود ، وأنا أقول 'فليكن' ، ودفعت فى صمت ، ويبدو أنه دُهش فلم يتكلم ووضع النقود فى الدرج وأعطانى بطاقة الصعود إلى الطائرة .

جلست فى الطائرة إلى جوار إبراهيم الشربينى – أمين عام مجلس الشعب – وزوجته وعندما قلت لهما إننى دفعت ثمانين جنيها انزعجا وسألانى عدة أسئلة ، وقطعنا الوقت فى الحديث ، وعندما وصلت الطائرة فى نحو منتصف الليل ، أمر المضيف ركاب الدرجة السياحية أن يلزموا أماكنهم ريثما يهبط كبار المسافرين ولمحت بينهم الدكتور عبد القادر حاتم، وصاح البعض 'كوسة ! كوسة !' ولم أفهم فسألت الأستاذ إبراهيم فقال لى إنها تعنى 'المحاباة' ! ولم أعلّق . لقد تغيرت اللغة ولابد من بذل جهد جديد لفهمها !

وفى المطار وجدت من يستقبلنى عند باب الدخول من الطائرة ، وكان أحد العسكريين الذى أرسله أحد أقاربى لمساعدتى فى الخروج ، وبذل الشابْ جهدًا حتى انتهى من ختم جواز السفر ، وتفتيش الحقيبة بدقة ، ثم الخروج حيث وجدت أخى مصطفى وصديق عمرى أحمد السودة . لقد عدت إلى مصر !



امام المنزل رقم ٢١
شارع داربى عام ١٩٧٣

فى الحديقة الخلفية
للمنزل ٢١ شارع
داربى شتاء عام
١٩٧٣



عبد اللطيف الجمال فى شقتنا رقم ٥١ شارع داربى

أمام بحيرة وندرمير فى حى البحيرات شمال إنجلترا

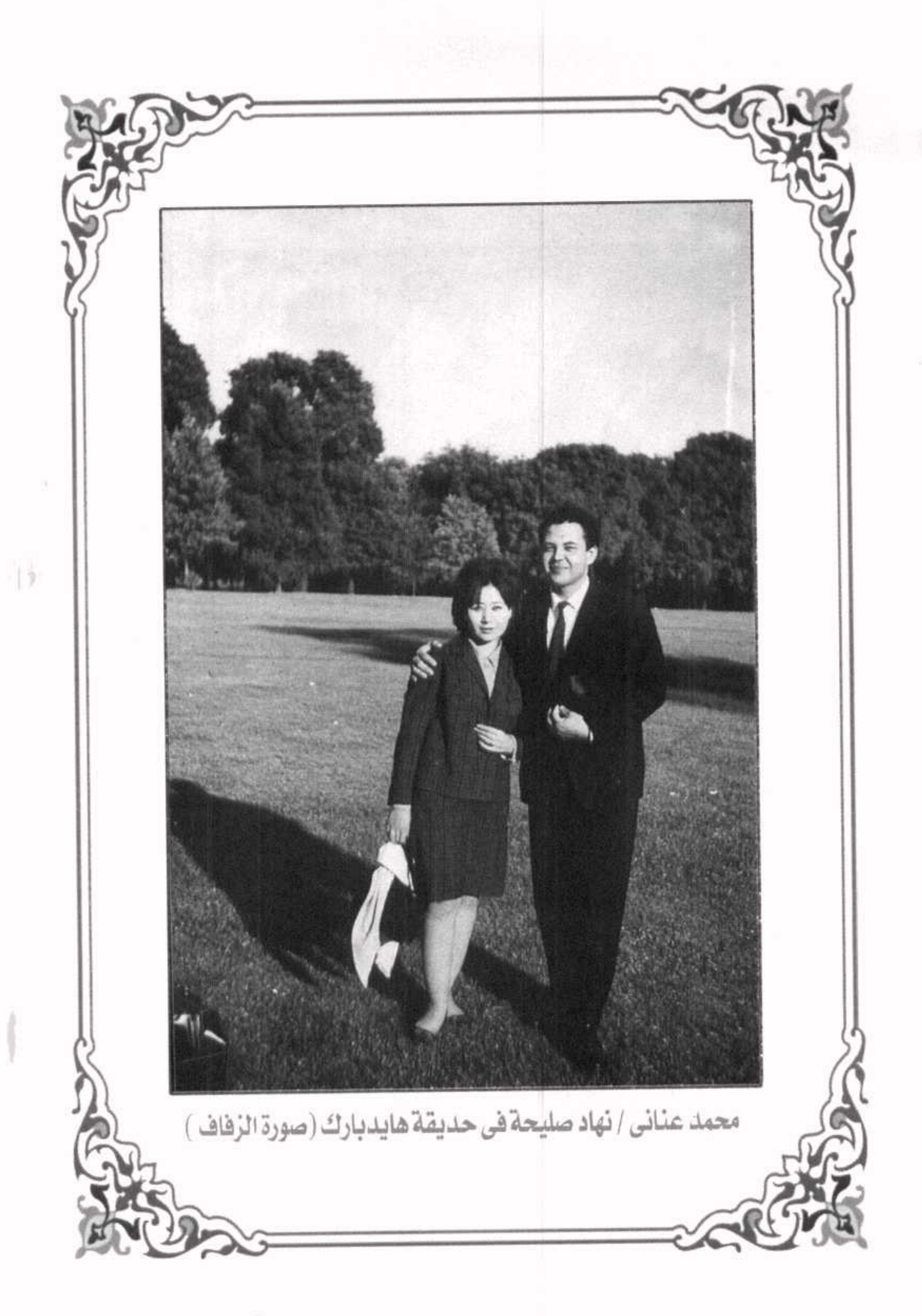


أمام أحواض زهور الزنابق والأقاحى عام ١٩٦٦

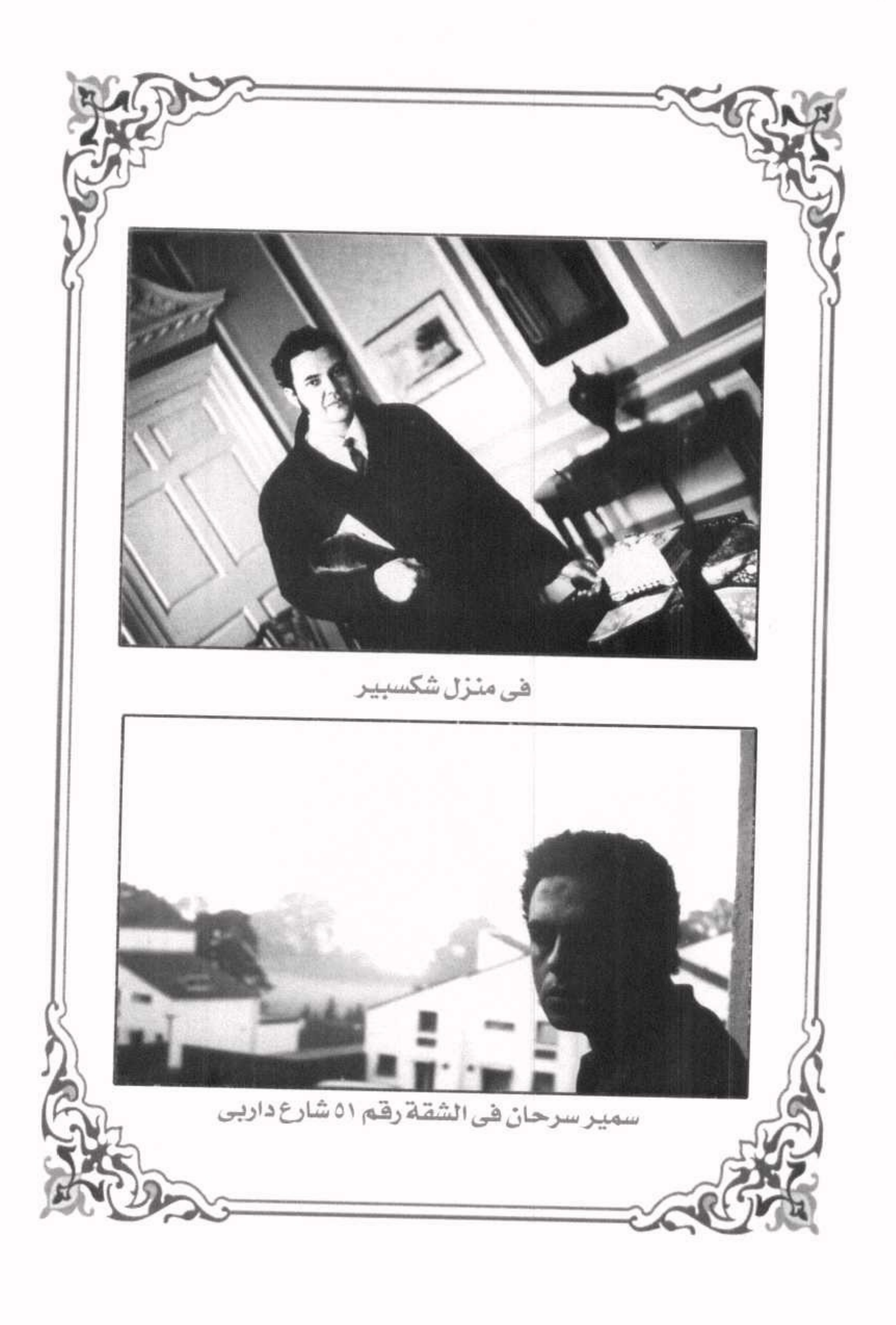


فى غابات اسكتلنده

أمام بحيرة وندرمير فى حى البحيرات فى شمال إنجلترا



محمد عنانى / نهاد صليحة فى حديقة هايدبارك (صورة الزفاف)

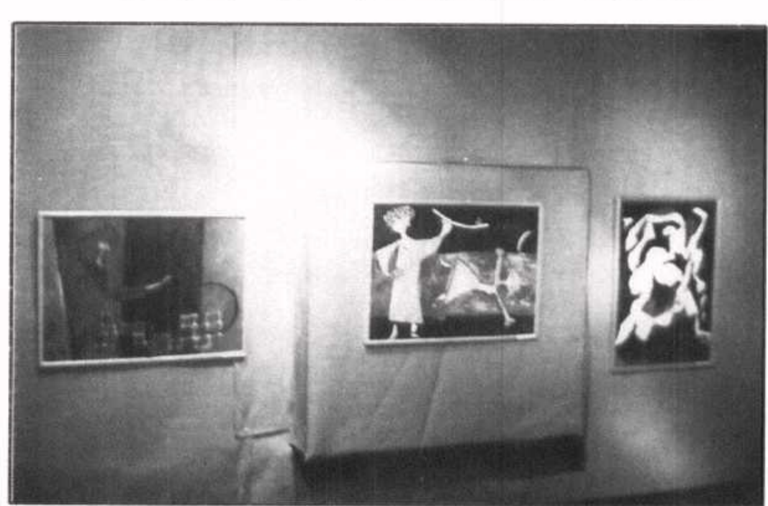


في منزل شكسبير

سمير سرحان في الشقة رقم ٥١ شارع داربي



أول صورة بعد وصول نهاد صليحة من مصر سبتمبر ١٩٦٦

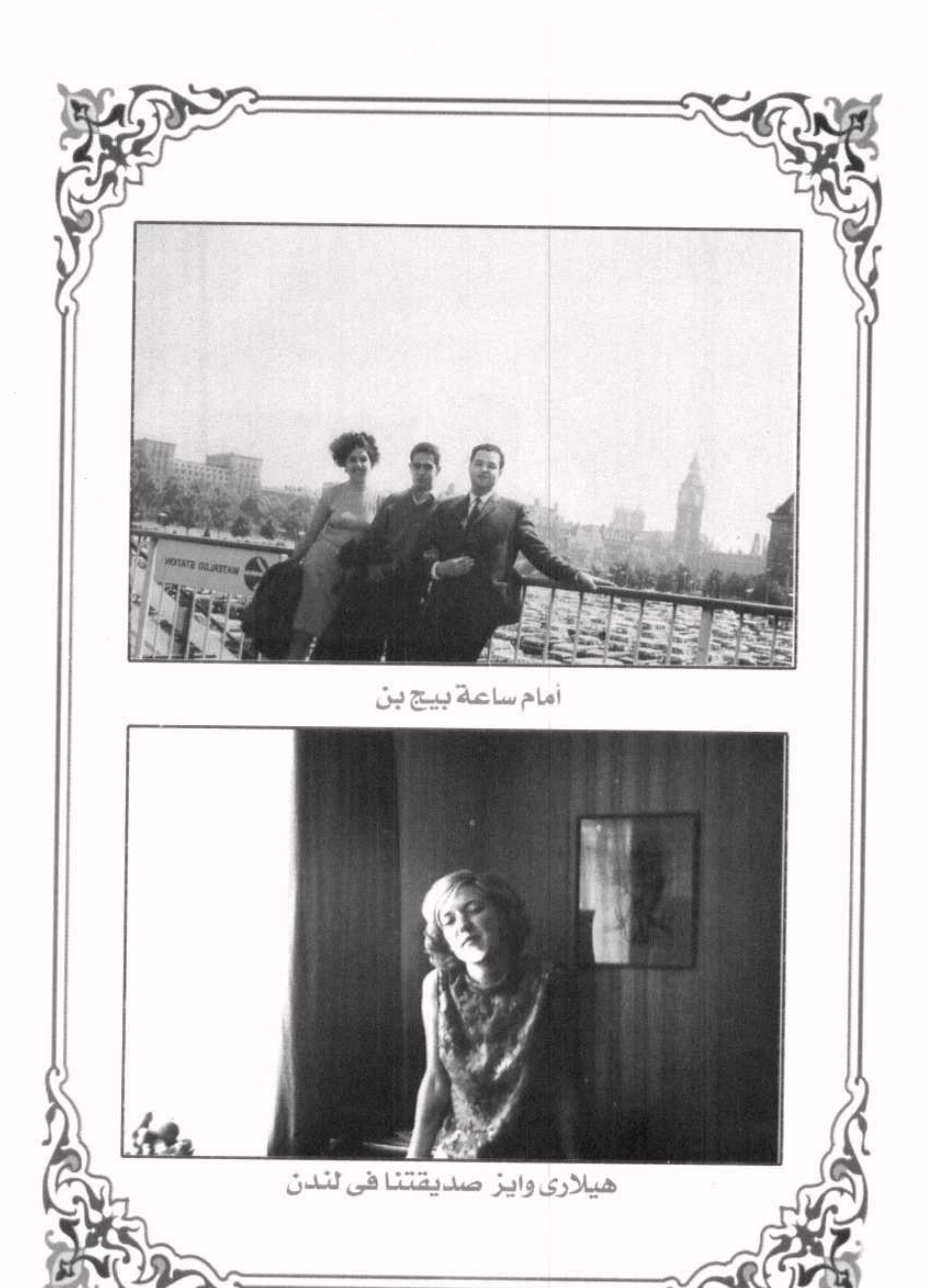


معرض الفنان أحمد سليم فى لندن



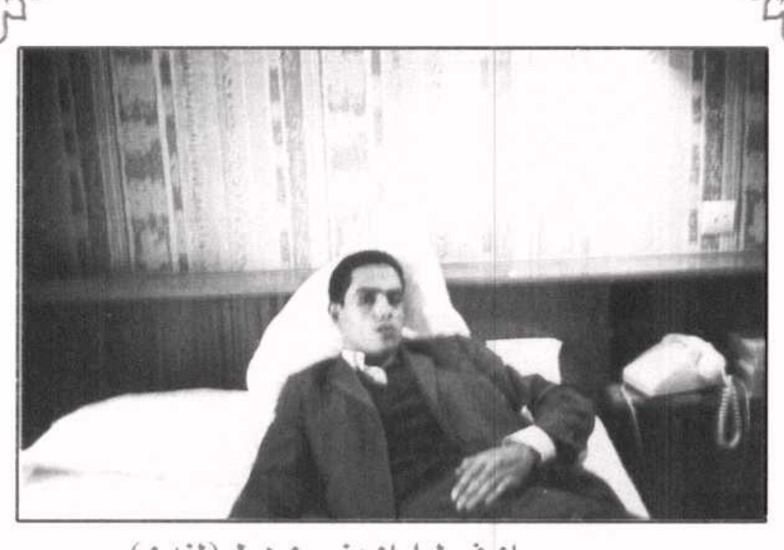
سمير سرحان ونهاد جاد فى محطة القطار بعد العثور علي المعطف المفقود (أغسطس ١٩٦٨)

نهاد فى سوق السبت (لندن ـ سبتمبر ١٩٦٦)



أمام ساعة بيج بن

هيلارى وايز صديقتنا فى لندن



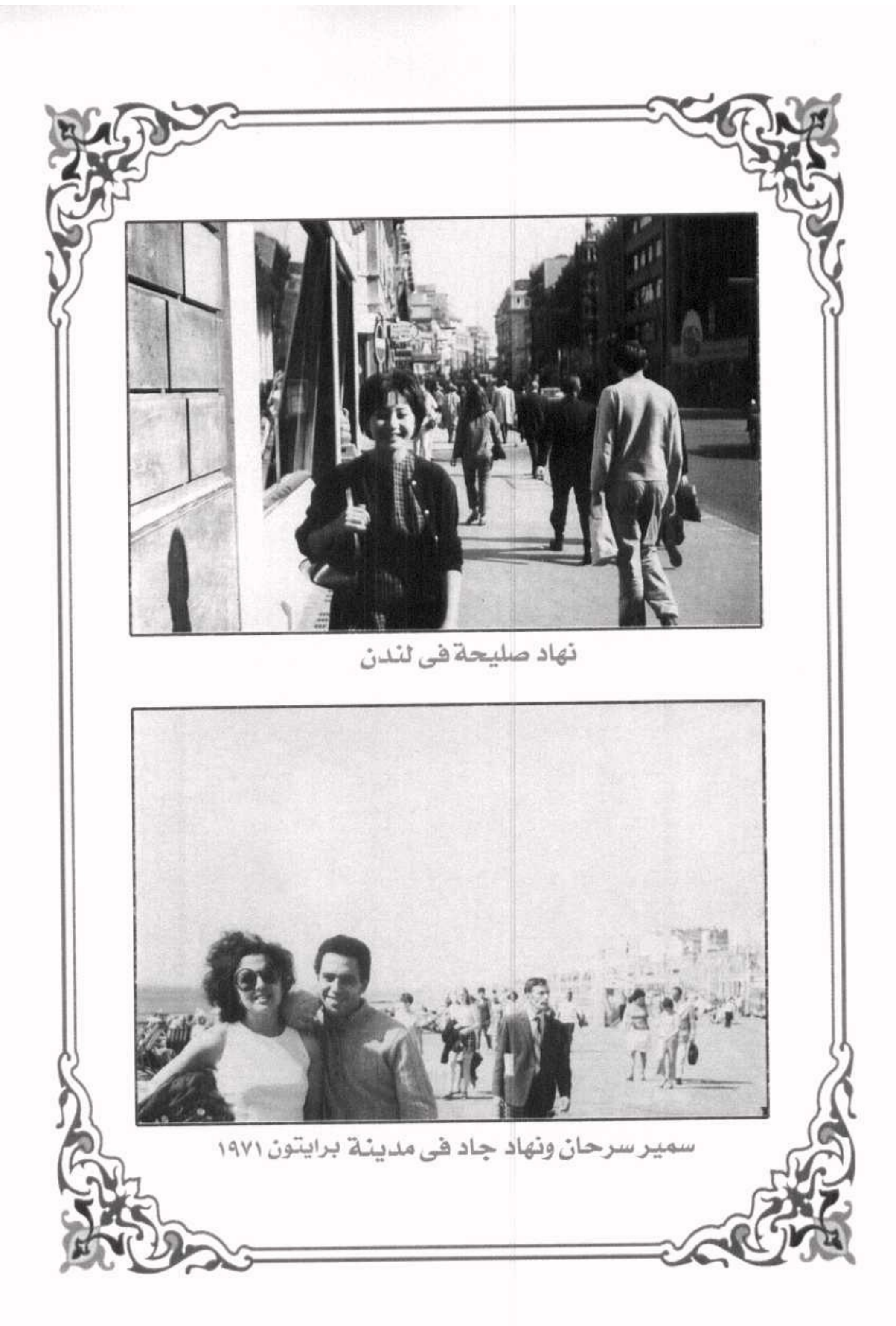
سمير سرحان فى لبليان بنسون هول (لندن)



سمير ونهاد صليحة ونهاد جاد فى المنزل شارع بوثويل عام ١٩٦٨



سمير سرحان ونهاد صليحة فى حديقة هايدبارك



نهاد صليحة فى لندن

سمير سرحان ونهاد جاد فى مدينة برايتون ١٩٧١



عنانى ونهاد (الحامل فى سارة) وسمير فى مدينة برايتون الساحلية

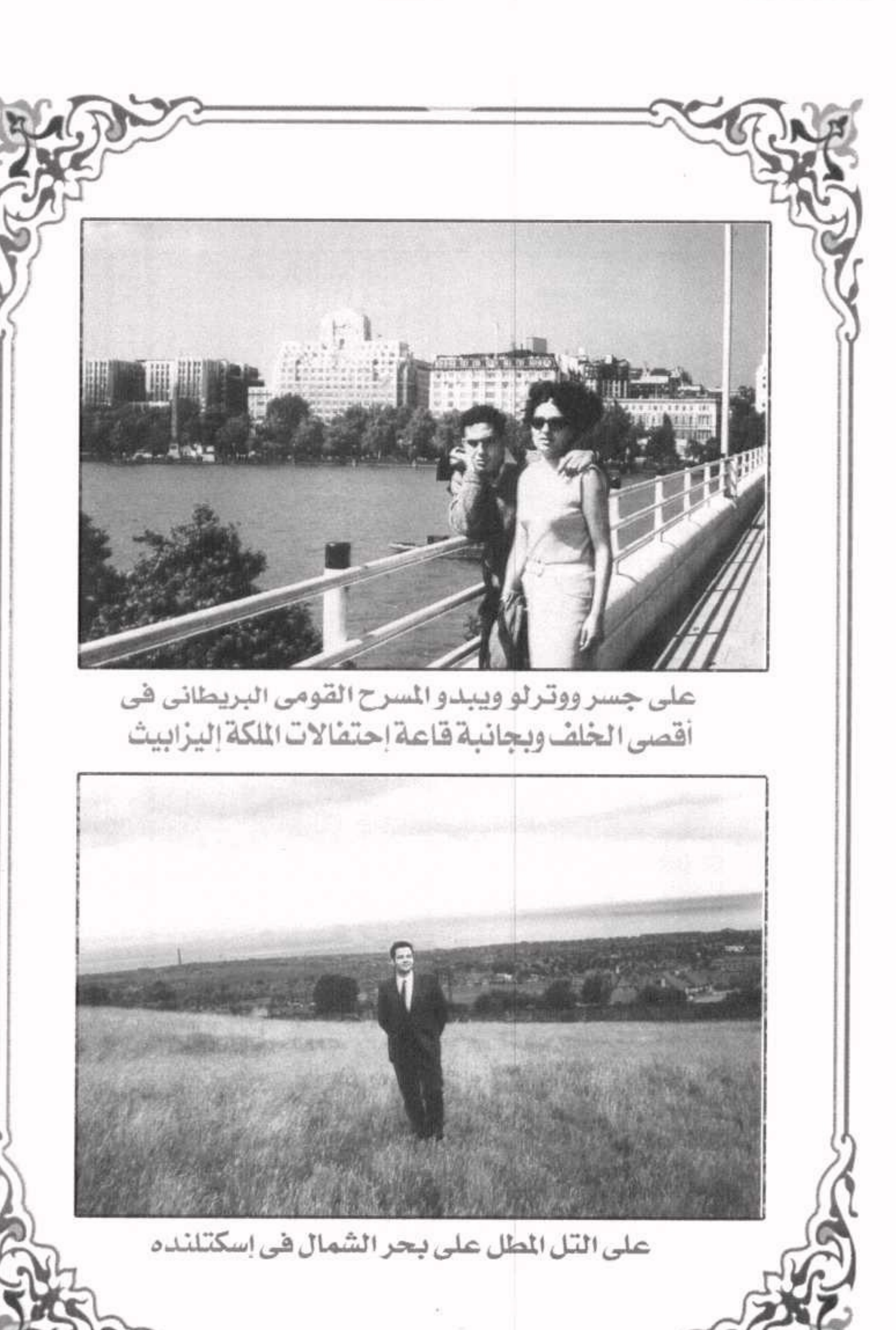


نهاد والدكتور بشير إبراهيم بشير



سمير ونهاد جاد يقرآن الصحف مع بائع الصحف

أمام منزل الدكتور / صمويل جونسون فى لندن



على جسر ووترلو ويبدو المسرح القومى البريطانى فى
أقصى الخلف وبجانبة قاعة إحتفالات الملكة إليزابيث

على التل المطل على بحر الشمال فى إسكتلنده



محمد عنانى ميدان الملكة فى ادنبره



نهاد فى رحلة إلى الجنوب

رقم الايداع بدار الكتب ١٧٤٧١/١٩٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6577 - 8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب